قدّور محمصاجي

شباب الأمير عبد القادر

أصله، طفولته، تربيته، تكوينه، زواجه، معاركه العسكرية الأولى، تولِّيه الإمارة

ترجمة مختار محمصاجي





ديوان المطبوعات الجامعية

شباب الأمير عبد القادر

صَدَر للمؤلّف

– عن دار Éditions Subervie (فرنسا)

La Dévoilée, théâtre, avec un jugement d'Albert Camus et une préface d'Emmanuel Roblès, 1959.
Le Silence des cendres, roman, 1963.
Oui, Algérie, poèmes, illustrations de Rezki Zérarti, 1965.

– عن الشركة الوطنية للنشر والتوزيع S.N.E.D (الجزائر)

Le Coq du bûcheron, conte, 1967.
Fleurs de Novembre, nouvelles, 1969.

– عن المؤسسة الوطنية للكتاب E.N.A.L (الجزائر)

La Fillette, le cheval et le colon, conte, 1984.
Aller à 'Arafât, notes de pèlerinage, 1986.

– عن ديوان المطبوعات الجامعية O.P.U (الجزائر)

Jeu de la boûqâla, essai, 1989.
L'Allusion faite à ma voisine, essai, illustrations de Kamel Eddine Matiben, 1991.
Concevoir une émission éducative, essai, 1994.
Le Jeu de la boûqâla, essai, nouv. Ed. 2002 et 2003.
Sultan Djezâïr suivi de Chansons des Janissaires turcs d'Alger (fin du XVIIIe siècle) par Jean Deny, 2005.
El Qaçba, Zemân, tome 1 : Histoire (De l'Île aux mouettes à la Casbah. La Casbah d'Alger, autrefois), essai, 2007.

– عن مطبوعات القصبة Casbah Éditions (الجزائر)

Le Rêve derrière soi, roman, 2000.

وله أيضا:

سيناريوهات و حوارات أفلام:

"صمت الرماد"، فيلم مطوّل. إخراج يوسف صحراوي، إنتاج الإذاعة والتلفزيون الجزائري R.T.A ، الجزائر، 1975.

"الغزالة"، مسلسل تلفزيوني من ثماني حلقات. إخراج يوسف صحراوي، إنتاج المؤسسة الوطنية للإنتاج الفني E.N.P.A ، الجزائر، 1991.

قدّور محمصاجي

شباب الأمير عبد القادر

أصله، طفولته، تربيته، تكوينه، زواجه،
معاركه العسكرية الأولى، تولّيه الإمارة

ترجمة الأستاذ الدكتور مختار محمصاجي



ديوان المطبوعات الجامعية

الساحة المركزية ـ بن عكنون ـ الجزائر

العنوان الأصلي

La Jeunesse de l'émir Abd el Kader

رقم النشر: 4.07.4913
رقم ر.د.م.ك (ISBN) 978.9961.0 1092.1
رقم الإيداع القانوني:2007/2860

إلى كل الثوريين الجزائريين عبر الأزمنة
إلى كل أولئك الذين يعتبرون الإنسانية مستقبلنا

إلى مفدي زكريا،
تحيّةً لذكراه وعبقريته الشعرية،
وتذكارًا لصداقته الأخوية المُشجِّعة.

إليها، أمّ كل الحقائق.

إلى أحفادي

أنيس، والتوأم وليم ووسيم

الذين تَعِد طفولتهم بالكثير.

إلى خير الدين، أخي،

تحيّةً بليغة الأثر في ذكراه

"لكن حلفت أن أدافع عن ديني، وأحافظ على بلدي، إلى حدٍّ تضعف دونه قــوتي، وأظــن أني لم أعمل القدر الكافي."

"ولو أصغى إليّ المسلمون والنصارى لرفعت الخلاف بينهم، ولصاروا إخوانا ظاهرا وباطنا."

إلى القارئ

إن هذا الكتاب الذي بين يديك، لصاحبه الأستاذ قدور محمصاجي، ليس بالعمل الهيّن. هو عمل طويل النفس، كان يحمله مؤلفه بين جوانحه منذ أمد بعيد جدا. كانت بدايته والأستاذ قدّور محمصاجي في ربيع العمر، حيث عثر على قصيدة لفكتور هوغو يوازن فيها بين الأمير عبد القادر ونابليون الثالث، ويقدح فيها في الأمير قدحا كبيرا. فصدمه الأمر، وثارت ثائرته. وانقدحت في خَلَده فكرة كتابة شيء ما عن الأمير، ومازلت تلك الفكرة تراوده إلى أن قدّم عملا، ذات أكتوبر من سنة 1964، وكان ذلك يتمثل في محاضرة بعنوان "الفَرَس في انتصارات الأمير عبد القادر الحربية"، ألقاها في المسرح البلدي. ومن يومها، و الرجل يسأل ويستجوب، يستقصي ويستفهم، يغدو ويروح إلى قاصي الأمكنة ودانيها، علّه يظفر بما قد يُشفي غليله ويروي ظمأه من أخبارٍ عن المراحل المهمة في حياة أب المقاومة الجزائرية، الأمير عبد القادر الجزائري، عن أصله، وولادته، وطفولته، وتربيته، وشبابه، وتكوينه، وزواجه، ومعاركه العسكرية الأولى ضد الحملة العسكرية الفرنسية، وحتى اعتلائه سدّة الإمارة. واستجمع كل ذلك الشتات في كتابه "La Jeunesse de l'émir Abd el Kader" الذي أصدره ديوان المطبوعات الجامعية سنة 2005. وهاهي ذي ترجمة الكتاب باللغة العربية بين يديك.

وإنك إذ تقرأ للأستاذ قدور محمصاجي الفصول العشرين المُشَكِّلة لهذا الكتاب، يتملّكك إحساس بأنك تقرأ لكاتبين اثنين: أحدهما أديب،

والشطحات اللغوية التي تهدهدك وتغوص بك في عالَم حالم. وفي الكتاب أيضا الوقائع الثابتة الموثوقة، والأحداث الواقعية الصادقة، والتواريخ المضبوطة الدقيقة، تجعلك تعيشها لحظة بلحظة، تشدك إليها، ولا تُخلي سبيلك إلاّ بعد إتمامك قراءة الكتاب. وساعتئذ يغمرك شعور باللّذة والبهجة. وتدرك بعدها أن الكاتب قد غمطك حقّك لأنه توقف عن الحكي والسرد !

وهكذا كانت حالنا أثناء ترجمتنا لهذا الكتاب الشيِّق. وشاركنا في هذه الأجواء المُفعمة بالبهجة أخونا، طالبنا، وزميلنا الأستاذ جمال بوتشاشة، أستاذ الترجمة بجامعة الجزائر. فقد كان له يد في هذه الترجمة، وشدّ أزرنا، وكان لنا في هذا نعم المعين، ولولاه ما تمّ هذا العمل. فله منّا جزيل الشكر و الامتنان.

وتجدر الإشارة إلى أننا بذلنا قصارى جهدنا في الحصول على بعض مراسلات الأمير عبد القادر مع كثير من أعيان عصره، إلا أنه أعيانا البحث عنها، ولم نجد بعضها، فإذا ما عثرنا عليها، وحظي هذا المؤلَّف بطبعة أخرى، أدرجناها في مظانها.

المترجم،

الأستاذ الدكتور مختار محمصاجي

تـوطـئـة

مبادرة استكشافية

إن هذه الصفحات التي سنقرأ، هي تفصيل لموضوع محاضرة ألقاها المؤلف في معسكر، عاصمة الأمير عبد القادر القديمة، وذلك في المسرح البلدي يوم 15 أكتوبر 1966، ثم ألقاها في الجزائر العاصمة في قاعة المحاضرات بالنفق الجامعي بجامعة الجزائر، تحت رعاية إتحاد الكتاب الجزائريين يوم 27 ديسمبر 1966، وكذلك بثانوية الأمير عبد القادر، بالجزائر العاصمة، يوم 20 جانفي 1967.

وقد خضع نص المحاضرة، طبعًا، إلى تعديلات مناسبة في الكتابة وفي طريقة العرض هي ضرورية للطباعة. ويصحب هذا النص هوامش - من شأنها إضافة معلومات، في موضع سرد الحدث، مستقاة من منابع عتيقة، ومُطعَّمة بمعلومات أُخَر أكثر جِدَّة، الغرض منها هو إفادة القارئ الراغب في تفاصيل أكثر- وُضعت في أسفل الصفحات، بدلاً من نهاية الفصل أو نهاية الكتاب، تسهيلا للقراءة والفهم.

ومهما يكن من أمر، فإنه يُراد لهذه المحاضرة المُعادة الكتابة أن تكون، في جوهرها، بحثا يستذكر مظهرا قلّما تناولته الدارسات، يتعلّق بشخصية من أبرز الشخصيات في تاريخ بلادنا، وبأحد الرموز الأكثر تألقا في المقاومة الوطنية المناهضة للاعتداء العسكري والاستعماري الفرنسي سنة 1830. هذا المظهر يشمل طفولته، وتعليمه، وشبابه، وتكوينه، إلى غاية اعتلائه سُدّة الإمارة.

وإذا لم يكن هذا المُؤلَّف، دونما شك، بمثابة دراسةٍ، كما هي عليه الدراسات في عرف أهل الاختصاص، فإنه، مع ذلك، عمل مُبرَّر كون كاتبه يتوجَّه به أساسا إلى جمهور القراء، وهو في هذا يتّسم ببساطة الكاتب المتواضع والناسخ البسيط.

إن الكاتب، في واقع الأمر، يأمل في أن يتقاسم مع هذا القارئ الصامت، ذي الروح الكريمة المجنَّحة الخيال - والذي يستحيل على وجه الخصوص خداعه- لحظات سعادة كانت في خفاء وانكشاف دائمين، صادفها طوال بحثه عن المعلومات.

وإذا لم يكن الكاتب مؤرِّخا، فإنه يبقى، على الرغم من ذلك، وفي إطار هذا المُؤلَّف، مُحبا الإطّلاع على التاريخ، ومتوخيا الحيطة والحذر بما فيه الكفاية فيما يتعلّق بالمعلومات التي أوردها كُتّاب سيرة الأمير - وذلك مهما كانت جنسية هؤلاء، سواء أكانوا مترجميه، أو كانوا ضباط هيئة البعثات الفرنسيـــة، أو كانوا جزائريين من أقاربه أو من رفاقــه في الكفاح. والحال أن الكاتب لم يكن، مع كل المعلومات التي جمع من هنا

وهناك، ليرفض أية معلومة رفضا مطلقا، أو ليستعملها دون تحليل أو تصويب، في حدود الممكن، وعند اقتضاء الضرورة.

وإن هناك، بحقّ، أسبابا أخرى، وهي عديدة، لاختيارنا موضوع هذا المشروع، وفي هذه الصورة التي هو عليها. إذ يمكننا، من جهة، التأكيد على وجود معلومات ضئيلة جدا عن مولد عبد القادر وطفولته وتربيته وعائلته. وهي معلومات غثّة، بل هي دون قيمة تُذكر، مبعثَرة في مؤلفات ومقالات شتّى، غير متوفّرة أو بعيدة المنال تقريبا. كما يمكننا، من جهة أخرى، وبصفة جزئية، تسجيل حقيقة أن هناك أعمالا قليلة جدا تمّ تكريسها، حتى الآن، للموضوع المختار لهذه المبادرة التي يجدر اعتبارها مبادرة استكشافية فقط، تحثّ على المُضِيّ قُدُما، وبصفة أعمق، في معرفة مسيرة الأمير من البداية.

وكان الكاتب يرغب أيضا، وبطريقة ما، في نقل ذلك الشغف العام وتلك "الروح الحماسية" وتلك "الأخبار العاجلة" السائدة في ذلك العصر، والتي كانت وراء هذه المحاضرة. كما يجدر توضيح أمر آخر، وهو أن أصل هذه المحاضرة ذاتها هو كلمة سابقة كان عنوانها "Le cheval dans les victoires guerrières de l'Emir Abdelkader" أي "الفَرَس في انتصارات الأمير عبد القادر الحربية". وكان ذلك من أجل المشاركة، بمعيّة مفدي زكريا ومراد بوربون وأحمد سفطة، في الحفل التكريمي الذي أقامه إتحاد الكتاب الجزائريين (الذي كان قد مرّ عليه 29 شهرا من الوجود آنذاك) على شرف الشاعر الكبير، والمقاوم الجزائري

البارز، وذلك بمناسبة مرور 81 سنة على موته (ليلة 25 إلى 26 ماي 1883، عن عمر يناهز الخامسة و السبعين، في دمشق، بسوريا).

وقد أُقيمت هذه التظاهرة البسيطة، والمؤثرة في الوقت ذاته، في المسرح الوطني ألجزائري[1]، بالجزائر العاصمة، في 29 ماي 1964.

---

(1) كان يسمّى في العهد الاستعماري: "المسرح البلدي للجزائر" و"أوبرا الجزائر"، وبعد الاستقلال، أصبح يسمّى: "المسرح الوطني الجزائري" و "مسرح محي الدين بشطارزي".

مقدمة

شباب قَدره البطولة

في صائفة العام المنصرم[1]، حججت إلى أول قطاعٍ تاريخي حيث تشكّلت أول إرادة لتحرير الوطن في يوم 22 نوفمبر 1832، والتي أُعلنت رسميا يوم 27 نوفمبر 1832.

حججت إلى سهل غريس، المُزيَّن بنجوم عزيزة وذكريات بطولية. سهل غريس المُزيَّن بسيدي قادة (المنطقة التي كانت تُسمَّى كاشرو Cacherou زمن الوجود الإسباني الذي لم يدم طويلا)، وبالقْطنة*، وبالخصيبية**، وبالنجم الأعظم -معسكر-، عاصمة الدولة الجزائرية التي كانت آنذاك في طور إعادة الهيكلة في الغرب الجزائري، والتي أثبتت

(1) كان ذلك في في شهري جويلية و أوت من سنة 1966.

* القْطنة، مسقط رأس الأمير عبد القادر، أصلها القطنة وتُلفظ قافها (ڨ). وهي موضع القُطُون، أي الإقامة. والقْطنة في وقتنا الحاضر موضع يبعد عن معسكر بحوالي 30 كلم، على الطريقين الولائيين رقم 01 ورقم 43، مرورا بمنطقة بوحنيفية.

** الخصيبية، لفظة تُستعمل للتصغير، والمراد منها هو الأرض الصغيرة الخصبة.

وجودها بكل عنفوان، كما الحال في شرق البلاد، بالسلاح، وبالشعر، وبهوى الشعب للثورة في مواجهة الخطر المحدق به !

فما هنالك إلا نداءات تُسمَع، وتُردَّد، و يُتَغَنَّى بها !

أجل. إن التاريخ والوعي الشعبي اللذين يُخلِّدان ما شاع من أخبار عن حياة كانت خلاّقة ولا تُمحى من الذاكرة وينقلانه إلينا، يشهدان، أبد الآبدين، بأن سهل غريس* مقام رحب لعشب وأشجار وذكريات سامية، وبأنه أحد الأماكن المشهودة في إنجازنا الوطني.

ويمكننا أن نتصور هنا، وبسهولة، هذا العُقاب المَلَكي القوي، الهادئ، اللطيف، القادم من عهد الأجداد، عهد النصر المظفَّر، باسطًا جناحين ناصعي البيـــاض، هذا المُؤسِّس للإرادة الوطنية الشابة، الأمير عبد القادر بن محي الدين، ممتطيًا صهــوة الأدهم، حصانـــه الرائع والأسود "كالليل"(2) أو "كليل دونما قمر ودونما نجـــوم"(3)، داخلاً معسكر أو مارًا وسط فرح شعبي شديد متلاطم الأمـــواج، عبر الباب الجديد في تلمسان، المدينة التي أجلاها الفرنسيون في 12 جويلية 1837. وفي هذا الموضوع،

---

* **غريس** هي موضع الغرس أو الموضع المغروس. وتُكتب بالفرنسية هكذا "Ghris" رغم أن العديد من المؤلفين اختلفوا في كتابتها: Eghris, Ghriss, Ghrîs, el-Ghris... وقد ذكر عبد القادر نفسه هذا المكان في قصيدة له حيث قال:

جزى الله عنّا كل شهم، غدت به ::: **غريس** لها فضل، أتانا وما أنوى

(ممدوح حقي، ديوان الأمير عبد القادر الجزائري، دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر، دمشق، 1960، ص 35.)

(2) Eugène DAUMAS, Les Chevaux du Sahara et les mœurs du désert, Hachette, Paris, 1862, chap. Les robes. Observations de l'Émir Abd-el-Kader, p. 170.

(3) المصدر نفسه. بيت مأخوذ من أغنية شعبية، ص 286 ، تناوله عبد القادر، ص 161.

نظم الأمير بداية قصيدة ملحمية طويلة، في الشعر العمودي، تؤلّف نغماتها بين الحب والجود وتمجيد البطولة في ساح الوغى. وبما أن انشغالاته كانت أكثر أهمية واستعجالا في مجالات أخرى، فقد أوكل مهمة إتمام القصيدة إلى كاتبه الموهوب قدّور بن محمد بن رويله، حيث قال:

"إلى الصون مدّت تلمسان يداها :: ولبّت، فهذا حُسن صوت نِـــداها
وقد رفعت عنها الإزار فــلُج به :: وبـــرِّد فـــؤادا من زلال نَـــداها
وذا روض خدّيها تفـــتّق نَـــوره :: فلا ترض من زاهي الرياض عَداها
ويا طالما صانت نقـــاب جمـــالها :: عداة وهم – بين الأنام – عِداها
وكم رائم رام الجمال الذي ترى :: فـــأرداه منها لحظـــها ومنـــاها
وحاول لثم الخال[4] من ورد خـــدّها :: فـــضنّت بما يبغي وشطّ مداهـــا
وكم خاطِب لم يُدع كفئا لها ولم :: يشم طرفا من وشي ذيل رداهـــا
وآخــــــر لم يعقـــد عليها بعصمة:: وما مسّهـــا مـــسّا أبان رضاها[5]

ويُعدّ عبد القادر بالنسبة إلى كل جزائري، رمز المقاومة الوطنية. هذا الرجل الذي أتى فعلا في عصر، بل أقول، في وقت كانت ستوضع فيه مصداقيـــة تاريخنا رهن الحجز، وكانت ستُعهد إلى المسخ. وإذا بهذا الرجل، الواسع الثقافة، والمولع بالآداب، والذي يرشده في هذا الدرب

(4) كناية عن 'المَشوَر'. وهو قلعة بها قصر، تقع في تلمسان، وتعود إلى القرن 13.

(5) ممدوح حقّي، ديوان الأمير عبد القادر الجزائري، دار اليقظة، دمشق، 1960، ص 16؛ Henri PÉRÈS, Les Poésies d'Abd-el-kader composées en Algérie et en France, R.A., hors série, 1932, pp. 11-12.

ذكاؤه وحبه اللامتناهي للشعب المُشجِّع له، هذا الذي يتلقّى الدعم من إيمانه، يهب نفسه قلبا وقالبا لقضية وطنه.

ويُعتبَر عبد القادر، من نواح عديدة، أحد أبطال المغرب العربي، والأمة العربية، والعالم الإسلامي، وكل الشعوب المحِبّة للعدل وللحرية. وإن انسحابه الذي فضل أن يكون في دمشق، إحدى عواصم الحضارة العربية، وليس في غيرها، لم يكن اختيارا قد تعجّل في اتخاذه، كما ادّعى ذلك سُجّانه الفرنسيون. وقد ذكر ذلك الأمر في بيان كتبه للحكومة المؤقتة، في مارس 1884، حيث قال: "كنت متيقنا من أنهم سينقلونني إلى البلد الذي طلبت الذهاب إليه، حالما يعدونني بذلك. ولقد اخترت فرنسا، وأنا على اقتناع بهذا. وعهدت بنفسي إليها، لأن وعد فرنسا، هو إلى اليوم، وعد لا يُنقض. فطلبت إذًا من الجنرال دو لاموريسيير De la Moricière أن أُنقَل إلى الإسكندرية، دون التوقّف في وهران، أو في الجزائر، أو في أي مرفأ فرنسي. و ردًّا على هذا الطلب، فإنه لم يوافق على الأمر شفويا فقط، بل بعث إليّ بالتأمين الخطّي، ممضيا باسمه الفرنساوي، مختوما بخاتمه العربي، تضمن تلبية رغبتي..."(6)

و يؤكّد ذلك النقيب ج. بيشون J. Pichon في قوله، على لسان عبد القادر: "وبعد ! أنا لم أقع سجينا في يد الفرنسيين، بل سلّمت لهم نفسي

(6) Charles Henry CHURCHILL, La Vie d'Abd El Kader, ex-sultan des Arabes de l'Algérie, Londres, 1867, tra., intro. Et notes de Michel HABART, E.N.A.L., 4e éd. Alger, 1991, p. 281.

بمحض إرادتي [...] أنا الآن في عداد الموتى، ولا أفكر في شيء سوى في الذهاب إلى مكة والمدينة، لأعبد العليّ القدير فيهما حتى أُلاقيه."[7]

وهذا الأمر يقودنا إلى طرح سؤال: كم عدد الذين يعرفون بما فيه الكفاية، وبخاصة من الشباب، حياة أول ثوري معاصر لنا؟

يجب علينا اليوم أن نسعى في البحث عن ماضي شعبنا المجيد، وعن تاريخنا، وعن أصالتنا، وعن حقيقتنا بوسائلنا الخاصة، دونما عقدة، وبموضوعية. يجب علينا أن نمحّص النصوص والوثائق المريبة المُجترة من قِبَل فكر قطعي يتميّز به بعض المتخصصين في تاريخ الجزائر، والذين قد نجد عندهم، بسهولة، ما يثير الشك في حيادهم. ويجب علينا، بمعنًى آخر، أن نصفّي تاريخ بلادنا من الاستعمار. هذا التاريخ الذي كتب عنه محمد الشريف ساحلي قائلا: "فمنذ سنة 1830، أصبح تاريخ الجزائر حكرا على العِلم الفرنسي."[8]

أما بالنسبة إليّ، أنا الذي لست على الإطلاق مؤرِّخا، فقد حاولت، بأشد ما يكون الفضول، أن أتفحص هذا الأمر الذي هيَّأ عبد القادر لأن يكون أحد أبرز الشخصيات في تاريخ الجزائر المكافحة، هذا الذي حشد حوله، في 22 نوفمبر 1832، وهو ابن الأربع والعشرين ربيعا، رضا أكبر شيوخ القبائل والمرابطين والإخوان و الأتباع و جموعا من الناس، كي

(7) J. PICHON, Abdelkader, sa jeunesse, rôle politique et religieux, rôle militaire, sa captivité, sa mort (1807-1883), Henri Charles Lavauzelle, éd. Militaire, Paris, s.d. p. 167

(8) Mohamed Chérif SAHLI, Décoloniser l'histoire, éd. Maspéro, Cahiers libres 77, Paris, 1965.

ينتخبوه، بصفة ديمقراطية أميرا(9) عليهم أي "زعيما وقائدا، وعلى وجه الخصوص، أميرا، أو ضابطا كبيرا؛ أمير المؤمنين."(10). وهو في هذا المقام، وعلى العموم، "القائد الأعظم" لمقاومة الغزاة الفرنسيين.

لأجل هذا تمرّستُ على دراسة البيئة التي عاش فيها إلى غاية اعتلائه سُدّة الإمارة. فمن جهة، جمعت من معسكر معلومات عن عادات وتقاليد المنطقة، محاولاً إنشاء نص سردي قريب من الواقع. ومن جهة أخرى، جمعت معلومات من كتب قديمة لا تَذكُر إلا النزر القليل عن نمط حياة عائلة عبد القادر. ويجب أن أقرّ بأنني لم أكن محظوظا، في أغلب الأحيان، لأن ما جمعته عن هذا الشطر بالخصوص من حياة عبد القادر لم يكن وافرا كما تصورته من قبل. لعلّي، في هذا، لم أقصد المكان المناسب. وعلى كل حال....

المهمّ، أنه كان عليَّ أن أَطّلع على كتب كثيرة كي أعثر، هنا أو هنالك، على عنصر ما، من شأنه أن يكون بمثابة مفتاح صغير – وأنا على علم كبير بهشاشته– يعطيني وهما يَعِد بفتح باب الأمل، وبهروب نحو

---

(9) إن اسم عبد القادر وحده يذكّر بأسماء كلّ أولئك الذين شرّفوا التاريخ المديد للمقاومة في بلاد المغرب وفي الجزائر من أمثال: بومزراق، المقراني، بومعزة، سلمان الجلبي، عزيز بن شيخ الحدّاد، وغيرهم كثير. ويذكّرنا، على وجه خاص، بأسماء مليون ونصف المليون من شهداء حرب التحرير الوطني (1954–1962). ويذكّرنا اسمه أيضا بأسماء وطنيين كانوا قبله بعشرين قرنا من أمثال: ماسينيسا وبعده يوغرطه اللذين قاوما امبريالية مزدوجة، قرطاجية ورومانية.

(10) Charles-André JULIEN, Histoire de l'Algérie contemporaine, t. 1, La conquête et le début de la colonisation (1827-1871), 2e éd. PUF, Paris, 1979, P.590

استكشاف مغالّيق سرّ ما. وقد أضفى هذا الأمر الشيءَ الكثيرَ على حماستي ككاتبٍ يبحث عن "شيء عظيم"، كان لا ريب موجودا، وأكون أنا، بفضل معجزة ما، قادرا على أن أكتشفه، وأن أعرضه في شكل نص سردي أدبي، وليس في شكل وثيقة علمية، ويكون بمثابة شعار تذكاري ذي دلالة عظيمة – ولو كان هذا الأمر بالنسبة إلي فقط.

هذا هو إذاً الموضوع الجوهري لهذا "الاستذكار" الذي أقوم به في هذا الكتاب.

إننا لم نعرف عن عبد القادر إلا ذلك "المحارب"، وهذا بصرف النظر عن أشعاره، وعن أفكاره المكتوبة في مواضيع متنوِّعة جدا، وعن نصوصه الفلسفية (القليلة الذيوع)، وعن مراسلاته الغزيرة مع شخصيات فاعلة في عصره من سياسيين وعسكريين ورجال دين ورجال ثقافة من ذوي المكانات المرموقة، ومن دول عديدة. وكان هذا يندرج في نطاق محسوب بدقة من قِبَل بعض المؤلفين في مجال الأدب وكتابة السِيَر، وهم كثرة، وضعوا أنفسهم في خدمة الاستعمار والجيش الأفريقي، وكانوا دونما شك، يرون في الأمير ذلك "الأهلي الصالح" الذي بمقدوره "التمثُّل"، أو بمقدوره "الاندماج" كما يقال في وقتنا الحاضر !

في الواقـــع، كان هنالك، خلال هذه الحرب التي لا تشبهها حرب على الإطلاق، والتي هي في نظر الكونت موريس إيريسون ديريسون Maurice Irisson d'Hérisson في كتابه – La chasse à l'homme Guerre d'Algérie (1891): "اعتداء متواصل على النظام عن طريق النهب، واعتداء متواصـــل على التنظيم العسكري عن طريق ضراوة

المقاضاة والعقاب"، كان هنالك قلّة فقط من المؤلفين من كان لهم الفكرة السويّة (و التي كان من الممكن أن تكون اليوم أنفع للمؤرخ المحايد)، أو حس الملاحظة الدقيقة والثقافة الأساسية، أو فقط نفوذ البصر حتى يقوموا بإعداد وصف لمرحلة شباب ذاك الذي سيصبح أميرا في المستقبل، وذلك بتبيان هيئته الجسدية وتربيته وتكوينه ودراسته وطبعه وعاداته.(11)

وإننا لنجد، في بعض الأحيان، إحالات في الكتب والمؤلفات المتعلقة بالأمير عبد القادر، إلى عناوين تَعِد، بفضل العناوين الفرعية المتمِّمة لها، بإثراء عمل ما، كهذا الذي بين أيدينا مثلا. ولكن، عندما نحصل عليها، بعد جهد جهيد، فإننا نشتم منها، ومنذ قراءة الصفحات الأولى من الكتاب، رائحة طُعم شديد مرارة الطَعم، تجعل القارئ المطّلع متضايقا لتوّه. وإن مؤلِّفي كتابات كهذه، (من رجال أدب ومن عسكريين)، يخادعون قراءهم كما يخادع الباعة المتجولون البارعون في تنميق الكلام زبائنهم السُذَّج القابلين للتأثر، في سلعهم. فقد كان هؤلاء يسحرون قراءهم بما كان رائجا آنذاك - من نزعة فلكلورية ونزعة إغرابية ونزعة تصويرية مثيرة للإعجاب ومن أحاسيس ماجنة-، وبما كان متعلقا بترّهات تجرفها كل مخيلة جامحة، اكتشفت أفريقيا لحينها، وكل ما أُشرب قيمة حضارتها وحُكمها، رغم كونه حكما محدودا.

ومن بين هذه العناوين، يجدر بنا ذكر ما يلي، على سبيل المثال لا الحصر:

---

(11) بعد استقلال الجزائر، تمّ، بالتدريج، تغطية هذا العجز في المعلومات، ولكنّ الدرب مازال طويلا أمامنا.

- Histoire d'Abdelkader depuis sa naissance suivie du rapport de sa soumission à la France, auteur anonyme, Paris, 1848.
- Histoire privée d'Abdelkader depuis sa naissance jusqu'à sa soumission et son arrivée en France, par Raban, Paris, 1848.
- Abdelkader, sa jeunesse, rôle politique et religieux, rôle militaire, sa captivité, sa mort (1807-1883) par J. Pichon (capitaine 2e tirailleurs algériens), Paris, s.d.
- Histoire privée et politique d'Abdelkader renfermant des détails curieux sur sa famille, sa naissance, son mariage, son élévation au rang d'Émir, par A. de Lacroix, Paris, 1848.
- Abdelkader. Détail curieux sur sa vie et sa soumission de ce célèbre personnage, par R. Torra, Limoges, 1848.

إن المعلومات التي تُرِكت لنا عن عبد القادر من قِبَل أهله (ابن عمه الحسين بن علي بن علي طالب، وولديه الأمير محمد والأمير الهاشمي) وأصدقائه الكثيرين (أمثال كاتبه قدور بن رويله، أو رفيقه في سجن أمبواز Amboise محمد الشاذلي القسنطيني المسمّى باسم الشاذلي، ذلك الصوفي التونسي الذائع الصيت)، هي معلومات، في أغلب الأحيان محشوّة بتفاصيل سطحية، غير دقيقة، وغير كافية على الرغم من كونها تنمّ كلها عن حسن نية أصحابها.

وقد كتب عن عبد القادر معاصروه من الجزائر، ومن الدول المجاورة، أو الدول البعيدة التي زارها كمصر وتركيا (حيث كان يقيم في بروسّا التي غادرهـا بعد زلزال سنة 1855) وسوريا (حيث أقام في دمشق). وكتب عنه كتاب سيرته "الكلاسيكيون" من الغرب. هؤلاء الذين كانوا أحيانا يتّسِمون "بالتحفظ" الشديد، مثل أوجين دوماس Eugène Daumas، وأحيانا أخرى يتّسِمون "بالاطلاع المذهل"، مثل

الدبلوماسي والكولونيـــل الإنجليزي شارل هنري شرشل Charles Henry Churchill[12]. كما كتب عنه، على وجه الخصوص، مستعمرون يتميزون بصلابة الرأي بعض الشيء، مِن مؤرخين، وجنرالات، وقساوسة يُعنَون بالأدب (أمثال آزان Azan، ولاكروا Lacroix، وروش Roches، وبيليسيي Pélissier، وبيجو Bugeaud، ومانوتشي Manucci، وديبيش Dupuch، وفويو Veuillot، وداماسين Damascène، وكافينياك Cavaignac، وفارنيي Warnier، وسكوت Scott، وبيلمار Bellemare، ودو فرانس de France، ودوباي Debay، وكلوزول Clausolles، ولويس بيرتران Louis Bertrand..). هؤلاء جميعا، كتبوا عن عبد القادر شهادات أو كتابات سردية هي في أغلب الأحيان خاطئة، ناقصة، متناقضة، تشوبها صبغة الفلكلورية، أو تشوبها عاطفة متحمِّسة تحول دون كونها موضوعية بصفة تامة. ومع ذلك، فإننا قد نبقى أحيانا، بعد فترة مطاردة طويلة، مشدوهين أمام المعلومة التي نبحث عنها.

وكذلك، فإن لم يكن حديثي في هذا الكتاب الذي بين يديك مؤسَّسا في جوهره على التاريخ، فإنني لا أشك في خلوّه من الأساطير. زد

---

(12) تعرّض شارل هنري شرشل لسيرة الأمير عبد القادر في كتابه المذكور آنفا. ولكن، مهما كانت أهميتها، فإن هذه السيرة التي كتب تتطلّب تفحُّصا وبُعد نظر من قِبَل القارئ الجزائري، كون كاتب السيرة هذا "وبطله كانا صديقين حميمين". وإنه من غير الممكن، في الواقع، أن تكون "مرآة تامّة" تعكس بكل براءة "تاريخ" عبد القادر، وهذا إذا ما أخذنا بعين الاعتبار أن الكولونيل شرشل كان، في ذلك الوقت، وعن طريق كتاباته، وبخاصة عن طريق نشره لسيرة الأمير، يخدم ضمنيا السياسة الشرقية لإنجلترا. ولكن، هكذا يُكتب التاريخ!...

على هذا أن جمهور القراء يفضل، هو كذلك، "روايةً شيّقة على حكاية تاريخية مُملّة" لأنه، وكما يعرف الجميع، قد يوجد في بعض الأحيان الكثير من الحقائق في الأسطورة، ولا يوجد في الحكايات التاريخية، ولو كانت هذه الأخيرة أكثر صدقا...

فمن يكون عبد القادر إذًا؟

يعتقد الجنرال بول آزان، ذاك الذي كان يرغب في تأليف كتاب من شأنه أن يخدم مصالح الفاتحين، أن "عبد القادر لم يدخل ميدان السياسة عن طريق ظاهرة التولّد الذاتي، ذات صباح من سنة 1832، من على مشارف أبواب معسكر. وأن مجرى حياته المدهش، لم يحدث تَبَعا لصروف الحظ، لأن دور العائلة والمحيط والمعتقدات وما تُنظِّم هذه من علاقات، يُعدّ أمرا رئيسا بالنسبة إلى المسلم كما هو عند المسيحي، أو هو عند المسلم أكثر من ذلك."(13)

ويجب أن لا ننسى كذلك الإشارة، مقابل هذا، إلى موقف باتستين بوجولا Baptistin Poujoulat، ذلك البابوي المتطرّف، الذي انتقل إلى سوريا أثناء الاضطرابات الخطيرة التي حدثت سنة 1860. والمعروف، هو أن النزاع في هذه "الاضطرابات" التي حدثت بدايةً في لبنان ثم توسّعت حتى دمشق، كان دائرا أساسا بين المسيحيين المارونيين في حماية فرنسا، والمسلمين الدروز. وإن بوجولا نفســه، وهو أيضا العامل "من أجل

(13) Paul AZAN, L'Émir Abdelkader (1808-1883). Du fanatisme musulman au patriotisme français. Hachette, Paris, 1925.

مصلحة بلده"[14]، والذي "اندسّ بين أفراد الحملة الفرنسية، وكان حلمه الوحيد، على شاكلة أصدقائه السياسيين، هو أن تكون سوريا بلدا مُحتلا ومُنَصَّرا"[15]، كان قد تساءل قَبْلا، سنة 1847، بشأن عبد القادر قائلا: "يجب علينا أن نسائل أنفسنا كيف أن حياة شعب برمّته تركّزت، منذ 15 سنة، في شخص واحد؟ إن هذا الرجل، لا محالة، كان التعبير الأسمى والأشد حيوية عن شعبه، كان التجسيد الحي لمشاعره الأخلاقية والدينية. إن عبد القادر المهزوم أبدا بأسلحتنا، و الواقف أبدا، كان قويا قوّة المُعتقَد وغامضا غموض القَدَر. إن كل إحساس يتّخذ الإله وسيلةً وغاية، يسري في طاقته شيء ما لا يفنى." [16]

وأخيرا، فإنه مهما كانت هذه "اللُقيّات النفيسة التي عثرنا عليها"، وعرضناها هاهنا، شديدة الانفصال، ولا تفي كثيرا بالغرض، فإنها تحثّ على إماطة اللثام عن ذاك الأمر الذي هو، لا ريب، أساسي في بناء شخصية قوية، بارعة وخالدة، أي هي شخصية تاريخية و إنسانية الطبع، تماثل شخصية الأمير عبد القادر.

---

(14) Baptistin POUJOULAT, Lettres de Syrie, Paris, 1860.

(ينقد الكاتب بوجولا، في إحدى هذه الرسائل، شرشل نقدا لاذعا، متهما إياه بكونه أحد المتسبّبين في تلك المجازر. أنظر أيضا هابار في المقدّمة التي وضعها لكتاب شرشل ، ص 14)

(15)- Habart في المقدّمة التي وضعها لكتاب شرشل السالف الذكر، ص 14. انظر أيضا :
M. POUJOULAT, Études africaines, Récits et pensées d’un voyageur, Paris, 1861, 2e éd., t. II)

(16) M. POUJOULAT, Voyages en Algérie. Parallèle de Jugurtha et d’Abdelkader, Études africaines, t. II. Ch. XIV, Paris, 1847.

ولهذا، فإنه كان من الضروري وضع عشرين فصلا مرتباً ترتيبا منطقيا، أو بالأحرى طبيعياً، للتعريف بالمراحل المختلفة التي مرّت بها أطوار حياة عبد القادر في مرحلة الشباب، وهذا دون أن نرضخ، أثناء ذلك، إلى ما يوهمنا بأننا قلّنا كل شيء، وبأننا روينا الأحداث بطريقة علمية، وبأننا صوّبنا حقائق قطعية، وبأننا كنا، على وجه الخصوص، محايدين في الأمر.

وعلى امتداد هذه الفصول العشرين ذات العناوين الموحية، وُزِّعت الأحداث المهمة في أطوار حياة عبد القادر. فهذه الأحداث تساعد، بحقّ، على فهم هذه الأطوار. واستهللنا هذا النص السردي بالتذكير بأصول قبيلة بني هاشم، لأن هذا يحدد البيئة الاجتماعية لعائلة محي الدين، ثم بعد هذا يتوالى النص في شكل لوحات تصف الأحداث المتتالية والمهمة، ذات العلاقة بالشخوص وأفعالهم، في كل مجالات الحياة، في منطقة وهران، حيث ذكرنا ما يلي: محي الدين الوالد و دور زاويته؛ الوالدة السيدة زهرة، و طفولة عبد القادر وولادته وتربيته وختانه؛ تربية عبد القادر وتكوينه على يد والده ثم من خلال دراسته في أرزيو ووهران؛ تَنَبُّهه لمتناقضات تسيير البايلك ولمأساة البلد؛ المنفى الإجباري والمُثمّن بالحج مرتين إلى البقاع المقدسة والتفتح على آفاق أخرى؛ عودة عبد القادر إلى البلد تجعله، على ما يسود من اضطرابات شعبية، يكتشف الحب والزواج بابنة عمّه خيرة؛ الهجوم على مدينة الجزائر يتسبب أيضا في انهيار باي وهران الهَرِم وفي فوضى في كل مقاطعة وهران؛ القبائل الكبرى في غرب البلاد تنتظم ضد احتلال الفرنسيين لوهـــران؛ تألُّق عبد القادر في كل المعارك التي دارت رحاهـــا على أبواب وهران ضد الجنرال بوايي Boyer، وهذا تحت

إمرة والده الحاج محي الدين؛ محي الدين، بسبب كونه مُسنّا وعليلا، لا يقبل العرض بتولّي قيادة الجيوش لمحاربة الغزاة ويقترح ولده بدلا منه؛ وبعد عقد مجلس يضمّ شيوخ القبائل، نُودي بعبد القادر سلطانا؛ عبد القادر يقبل ذلك و يقرر حمل لقب الأمير فقط...

ولكن، قبل أن نصل إلى كل هذا، فلنبدأ الحكاية من البداية...

1

محي الدين، أب تسابيحه بالبندقية

فلنبدأ الحكاية إذاً من البداية و لنتساءل: ما هو نسب عبد القادر ؟

وكي يتسنّى لنا معرفة ذلك، نحاول، بادئ ذي بدء، التعريف بالبيئة الاجتماعية والثقافية التي سيولد بها، من بَعْدُ، والتعريف بوالده، ذلك الرجل الفذ الذي ينحدر من عائلة أشراف. إن هذه العائلة التي يرجع نسبها إلى الرسول[1]، استطاعت – تدريجيا، في المرحلة التاريخية قيد الدرس– أن تُجسّد نبل الدين وحب الوطن في أسمى معانيهما لدى سكان

(1) لقد ذكر عبد القادر نفسه شجرة نسبه، وأخذها عنه، باقتضاب، كتاب سيرته. وذكر ولده البكر، الأمير محمد، شجرة نسب العائلة، في الديوان الذي جمعه عن والده والموسوم "نزهة الخاطر في قريض الأمير عبد القادر". كان ذلك في القاهرة، سنة 1903. "هو عبد القادر، بن محي الدين، بن المصطفى، بن محمد، بن المختار، بن عبد القادر، بن أحمد، ، بن عبد القادر، بن أحمد، بن محمد، بن عبد القوي، بن علي، بن أحمد، بن عبد القوي، بن خالد، بن يوسف، بن أحمد، بن بشار، بن محمد، بن مسعود، بن طاووس، بن يعقوب، بن عبد القوي، بن أحمد، بن محمد، بن إدريس، بن إدريس، بن عبد الله، بن الحسن، بن الحسين، بن فاطمة، بنت محمد رسول الله، زوج علي بن أبي طالب، ابن عم النبيّ." انظر:
Henri PÉRÈS, Les Poésies d'Abd-el-kader…, op. cit., pp. 3-4.

مقاطعة وهران، ثم بعد ذلك لدى سكان المناطق المجاورة، وكل سكان البلاد.

وفي تحديده لشجرة نسبه، ختم عبد القادر ذلك بقوله: "أقام أجدادنا بالمدينة المنورة. وكان أول مهاجر منهم هو إدريس الأكبر الذي أصبح سلطانا على المغرب وأسس مدينة فاس. وبعد أن تزايد عدد ذريته، تفرّق خَلَفه. ولم تستقرّ عائلتنا في غريس، قرب معسكر، إلا في عهد جدي. وقد ذاع صيت أجدادي في الكتب و في التاريخ بفضل علمهم و تقواهم."(2)

وعلى الرغم من عزة الشباب، أو عزة المقاتل المقدام التي كانت تسكنه، صرّح عبد القادر، واضعًا هَمّه كله في قيمته كرجل فذ، قائلا: "على كل حال، لا تسألوا عن أصل المرء. اسألوا، بدلا من ذلك، عن حياته وعن مآثره وعن شجاعته وعن خصاله، تعرفوا حقيقته. فإذا ما كان الماء الذي تغرفون من النهر مريئا سائغا عذبا، فهذا دليل على أنه ينبع من منهل نقي."(3)

فعبد القادر كان إذاً أحد أبناء الرجل الشريف محي الدين الذي قَدِم أحدُ أسلافه المسمّى عبد القوي في القرن 18 من المغرب، (حيث استقرت عائلته قَبْلا بعد قدومها من المدينة المنوّرة)، ليجد في مقاطعة وهران، وبالضبط في سهل غريس الواسع المزدهر، القبيلةَ التي أعاد تشكيلها أحفاد

---

(2) Mahfoud KADDACHE, L'Émir Abdelkader, Collection «Art et culture», n° 7. éd. Ministère de l'Information et de la Culture, Alger, 1974, p. 10.

(3) Paul AZAN, Les débuts d'Abdelkader, B.S.G.O., t. 1921, p. 201 (نقلا عن: T. CHENNTOUF, L'Algérie politique 1930-1954, OPU, Alger, 2003, p. 16)

بني هاشم الذين ينتمون إلى إحدى كبريات العائلات القرشية العتيقة. وأقام عبد القوي وباقي أفراد الدُّوَّار (ويعني: دائرة. جَمْعُه دُوَاور ودُوَاوير، نسبةً إلى شكل الخيام التي كانت تُنصب مُرتّبةً ترتيبا طبيعيا في شكل دائرة)، في سهل غريس، وكان هو شيخ القبيلة وزعيمها.

فسهل غريس سهل مشتهر بحقول القمح والشعير والشوفان، وبقطعان الماشية صغيرها وكبيرها، وبمساحاته المترامية الأطراف من آس وعرعر و نسرين، تجري من خلالها جداول عديدة. وقد وصف أنطوان دو لاكروا هذا السهل، نقلا عن ملاحظات نيكولا مانوتشي، بقوله: "ففي مقاطعة وهران، وعلى جنوب شرق مدينة معسكر بحوالي أربعة فراسخ، يمتد [...] سهل غريس. يبدأ من واد الحديد، وينتهي بدواور كاشرو وسعيدة التي تحدّه من الجنوب والشرق [...] وبالإضافة إلى واد الحديد، يوجد واديان آخران، هما وادي الدردارة ووادي فكّان، في الجنوب، وفي الغرب. وتوجد أيضا سلسلتان جبليتان، إحداهما ممتدة من جهة شاقّةً السهل ومُشكّلةً خمس رواب ذات انحدار غير شديد، مُظلّلةً بأشجار زيتون برّي. وأكبر هذه الروابي هي كاشرو. هي مدفن مرابطي المقاطعة [...] أما البناءان الصغيران الأبيضان في شكل قبتين، وغير البعيدين أحدهما عن الآخر، واللذان يبدوان وكأنهما يتدحرجان من على جدار الجبل المائل، فهما ضريحا آخِر مرابطين من بني هاشم. وهما مزار يُحجّ إليه." (4)

(4) A. de LACROIX, Histoire privée et politique d'Abdelkader renfermant des détails curieux sur sa famille, sa naissance, son mariage, son élévation au rang d'Émir, ses faits militaires, etc., Chez Bureau, imprimeur, Paris, 1845, pp. 1-2. ⟶

وقد اندمـــج الجد الأكبر، عبد القـــوي، هو وعائلته بسرعة في قبيلة بني هاشم التي أصبح تعدادها، مع مرور الزمن، سبعة دواور، قوامها ما يقارب 300 خيمة، وبين 25000 إلى 30000 نسمة. وحَمَل الدُّوَّار، وهو المكان العـــادي حيث يقيم شيخ القبيلة، اسم القطنة. وكانت خيمة شيخ القبيلـــة تُعرف بأمارة وهي أنّ على رأسهـــا كُرة من نحاس مذهّبـــة منتهية بهلال.

وبعد مدّة من هذا، تمكّن مصطفى بن محمد، جدّ عبد القادر، من الإشراف على الطريقة الدينية الذائعة الصيت والمسماة الطريقة القادرية، بفضل اكتسابه المتدرّج "لسلطة واسعة على سكان المناطق المجاورة"[5]، وهذا في إطار المقاومة الدائمة للأتراك. وقد تكاثر مريدو هذه الطريقة في الجزائر أيضا، وأصبحت هي والطرق الدينية الأخرى (كالطريقة التيجانية والطريقة الرحمانية...) التي تنشط في البلاد، أحد عوامل مقاومة الهيمنة التركية، ثم الغزو الفرنسي فيما بعد. وهذا على الرغم من بعض الانحرافات السياسية والدينية الخطيرة التي لُوحظت في وقت سابق في السلوك المثير للقلق (من انشقاق وخيانة وغدر ورِدّة...) لدى بعض المريدين تجاه استبداد القوة الغازية، ولاسيما في ممارستهم المُشينة لشعائر الإسلام (مثل عبادة الأولياء الصالحين، والخرافات، والبدع

←(طُبع هذا الكتاب، بناءً على ملاحظات نيكولا مانوتشي، هذا الذي عايش عبد القادر مدة أربع سنوات، و ساهم في عملية تبادل أربعة أسرى فرنسيين.)

(5) M. WALSIN-ESTERHATZY, Notice sur le Makhzen d'Oran, Perrier, 1849, P. 1. يُذكر أن هذا المؤلف كان كولونيل، ومديرا للشؤون العربية في وهران

المذمومة،...). وفي القرن الموالي، أصبحت هذه الانحرافات محلّ إدانة ومحاربة من قِبَل حركة الإصلاح الإسلامية الجزائرية، وهذا بإيحاء من جمعية النهضة. هذه النهضة التي أعانت، فيما سبق، دولا عربية أخرى على العودة إلى أصولها.

وتجـــدر الإشارة إلى أن الوليّ الصالح محي الدين عبد القادر الجيلاني هو الذي أسس الطريقة القادرية في القرن 12 (470-561هـــ /1078-1166م). وقد وُلد هـــذا "القطب الصالح" للصوفية في جيلان، جنوب بحر قزويـــن. درس في شبابه ببغداد، و أصبح شيخا بها إلى أن وافته المنية. وقد نَسَب له مريدوه كرامات. كما أن ذيوع صيته كرجل تقيّ وكريم - وقد كـــان أهـــلا لذلك- جلب له عـــددا كبيرا من الأنصار. وبُنيت حول ضريحـــه زاوية احتفاءً بكونه وليّا للطريقة القادرية. وانتشر مذهبه، وذاع صيته، في المشـــرق وفي أفريقيا وفي المغرب. ومازالت مواعظه، وكتابه الموســـوم "فتوح الغيب"، تُمثّل، إلى يومنا، مصدر منهاج حياة لمريديه.

وبعد أن كوّن عائلة، قرّر محي الدين، فيما بعد، أن يقيم منزله غير بعيد عن كاشرو (المنطقة المسمّاة اليوم سيدي قادة بن مختار، على الطريق الوطني رقم 14)، وبالتحديد غربي معسكر بحوالي عشرين كيلومترا، في المكان المسمّى القطنة، التي يقول عنها المؤرخون بأنها "الموقع الزّاهي

والرائع"، والتي تقع على الضفة اليسرى لوادي الحَمَّام[6]. وهي تابعة لبايلك وهران.

وعن سبب إطلاق هذه التسمية على هذا الوادي، يسجّل العسكري والمؤرخ بيير مونتانيون Pierre Montagnon ما يلي: "وتُعزى تسمية هذا الوادي إلى منبعَي ماء ساخن (حَمَّام). وهي ظاهرة مألوفة في الجزائر، البلد المتميّز بنشاط زلزالي كثيف. ويوجد على جوانب هذين المنبعين آثار رومانية."[7] ويتابع هذا المؤلف وصفه للمكان، بهذا التعبير: "هذا الموقع لا ينقصه موطن جمال ذي طبيعة وعرة. فقد توسّع الوادي، حيث إن شعابه تقع في أقصى الشمال، سادّةً فجوة في اتجاه سهل الهبرا [نحو سافلة وادي الحمَّام]. وإنّ سلسلة المرتفعات التي تحاذيه من كلّ جهة، مُشرفةً على فجوات عمقها مئات الأمتار، تبدو ممدودةً، جرداءَ، بلون الطين الأحمر. أما المنحدرات، فهي كذلك جرداء مجوَّفة القيعان. وعلى أسطح هذه الجدران الموحشة، تشكّل الشعاب والوهاد أخاديد. فأحيانا، وعلى نتوء

---

(6) يَروي الحسين بن علي بن علي طالب بن سيدي المصطفى بن قادة بن مختار، ابن عم عبد القادر، وهو الذي كان سجينا لدى الفرنسيين، في البليدة، من سنة 1843 إلى سنة 1848 ما يلي: "وبعد أن غادر كاشرو، انتقل سيدي محي الدين مع عائلته إلى وادي الحمَّام، أسفل الجبل. وفي هذا المكان، شقّ قناة ماءٍ للريّ، وبنى منزلا للسكن ومسجدا يشبه مساجد المدينة. ويوجد، في فناء المنزل، خيام من وبر الجِمال ورحًى من أجل الطحين." وفي نهاية هذا السرد الطويل لحياة عبد القادر، نلحظ، كما سبق وأن لاحظ ديلبش Delpech ، مترجم النص العربي سنة 1876، "آمالا يُمنّي بها كل السكان الأصليين أنفسهم، إلى يومنا هذا. وهي آمال كادت أن تتحقّق سنة 1871." (Revue africaine, n° 119-120, septembre-novembre 1876).

(7) Pierre MONTAGNON, La Conquête de l'Algérie, les germes de la discorde, 1830-1871. éd. Pygmalion, Paris, 1986, note, p. 138.

صخريّ، تظهر المنصّة المكعّبة لقبّة ناصعة البياض كأنها فانوس في الأفق. وفي أحايين أخر، ينبئ الجذع المخضرّ لشجرة حَوَر عن ضفاف منبع ماء مستتر في تجويف أرضي.

حقًّا، إنّ الحياة والنباتات لا تتولّد من جديد إلاّ على ضفاف وادي الحمَّام، هذا المسيل الذي تتناوب فيه مجاري ماءٍ مُوحلة، وهذا تبعا للفصول. وعلى سهلة واسعة، في انعطاف مجرى النهر، تتربّع القطنة. ويقطن في هذا المكان خمسمائة عائلة، في مساكن من "حجر"، وفي أكواخ من طوب، وأيضا في بعض الخيام ذات ساريتين أو ثلاث. فالمكان يتعدّى كونه قرية. إذ منذ ثلاث قرون، يأتيه الناس من مناطق نائية رغبةً في التأمل الفكري وفي تعلّم مبادئ القرآن. وهناك توجد زاوية ذائعة الصيت، وما شيخها إلا ذاك المرابط الموقّر كثيرا، ألا وهو مدحي الدين* (هكذا)."[8] هنا إذاً، في القطنة، مسقط رأس من سيكون الأمير عبد القادر في المستقبل، اكتسب محي الدين بن مصطفى بن محمد بن مختار... شهرة كبيرة، شهرة رجل كريم، تقي و مثقف، شهرة هو فعلا أهل لها. و إن تميّزه بروح العدل والحرية، وعلاقاته الوطيدة والأخوية مع الشعب المؤمن وشيوخ الطرق الدينية في منطقة وهران، جعلت منه، شيئا فشيئا، رجلا معروفا ومحترما. "لقد كان محل تقدير الجميع، وموضع احترام عامّ، بفضل طيبته التي لا تنضب، وورعه النادر الوجود."[9] وبعد ذلك،

* هناك خلط كبير في كتابة بعض أسماء الأعلام باللغة الفرنسية. فمحي الدين، مثلا، بدلا من أن يُكتب هكذا Mohieddine فإنه يُكتب خطأ هكذا Mahi ed-Dine أي ماحي الدين، وشتان بين الذي يحيي الدين و الذي يمحوه!

(8) ID. Ibid., pp. 137-138
(9) J. PICHON, Abd el Kader, op. cit., p. 12.

حين آن الأوان، أصبح محي الدين يُشرف، بصفة طبيعية جدا، على مقادير الزاوية التي ورثها عن الأجداد. ويتصوّر هذا المؤرخ ذاتُه محي الدين "متدثّرا بجلابيته الطويلة، وهو يسيِّر ذويه، أفراد قبيلة بني هاشم القوية. ونسمعه، وقتَ الصلاة، وهو يرتّل سور القرآن بوقار."(10) (أما عبد القادر، فيقول عن والده، كما يسجّل ذلك بول آزان، أحد كُتّاب سيرته -و لعله يكون الأفضل توثيقا من غيره- بأنه كان "رجل دين [... وكانت] تسابيحه بالبندقية"(11)). وبالإضافة إلى هذا، فإن محي الدين ورث عن سلفه، أكثر من غيره، شهرةَ ذلك الرجل الصالح حيث إنه أصبح مُقَدّما، أي شيخا، للطريقة القادرية. و أجمعت قبائل الغرب على الإقرار له بهذه الخصلة الحميدة. هذه الخصلة التي ستتعزّز لصالحه، عندما تلتقي قبائل الغرب هذه بالباي حسن الهَرِم -ذاك الذي كان حينئذ شديد الحيرة أمام احتلال العساكر الفرنسيين لوهران، سائلاً محي الدينَ الحماية والملجأ في قطنته، ناسيًا الابتزاز الطويل الأمد الذي كانت تمارسه إدارته في حق السكان.(12)

(10) Pierre MONTAGNON, op. cit., p. 138.

(11) Paul AZAN, Les Débuts d'Abdelkader, B.S.G.O., op. cit., p. 198 (نقلا عن T. CHENNTOUF, L'Algérie politique 1930-1954, op. cit., p. 15)

(12) أنظر الفصل 16 من هذا الكتاب، 'نهاية عالَم قديم'.

2

الزاوية : مهد الوعي

في الزاوية، قرب سيدي قاده، هذه الزاوية التي أعاد لها محي الدين حيويتها ودورها المزدوج الديني والسياسي المستمَدّين من الرباط، كان يجتمع رجال الدين الوجهاء (المرابطون، الطُلبة، علماء أفذاذ في علوم القرآن)، وفي غالب الأحيان، تحت إدارته بصفته شيخ بني هاشم، وهذا بغرض توسيع آفاقهم العقدية والثقافية، وتبادل الأفكار حول المسائل ذات العلاقة بوضعية المنطقة وسكانها تحت إدارة الباي حسن. وكان الطلاب يرتادونها للتعلّم مجانا، وكان المعوزون يأتونها ليأخذوا الطعام لهم ولعائلاتهم. وكان المسافرون، وبخاصة منهم الزوّار الباحثين عن كل ما هو روحيّ، والذين يأتون لزيارة الضريح المفترض للولي الصالح، "ذاك الذي يوصل التيّار الرباني إلى المجتمع وإلى العالَم"[1]، يجدون في الزاوية طعاما يشد صُلبهم، ومأوى عند الاقتضاء يقضون فيه ليلهم.

(1) Émile DERMENGHEM, Vies des saints musulmans, éd. Baconnier, Alger, s.d., p. 7.

والفضل في هذا كله، يرجع إلى كرم شيخ الزاوية الذي كان لا يتردد في توزيع حصة كبيرة من محاصيله على المعوزين، في كل عام، و إلى الهبات التي تجمعها الزاوية من كثير من المحسنين.

وفي هذه الزاوية، كان هنالك شعور قوي جدا يتنامى بين مرتادي المكان والمواظبين على التعليم العام، الذي كان يُدرَّس في الزاوية تتمّةً للتربية الدينية، (والقائم على القراءة والكتابة والحساب والتاريخ ومبادئ التشريع الإسلامي...). هذا الشعور، هو الإحساس بالانتماء إلى تراب واحد مشترك بين مجموع قبائل المنطقة والمناطق الأخرى، وبالانتماء إلى شعب هو في طريقه إلى اكتشاف أو إعادة اكتشاف الضرورة المطلقة للتضامن والوحدة والأخلاق الاجتماعية والعدالة الاجتماعية والحرية، وكذا لأفضال كل منها.

وكان محي الدين، فضلا عن ذلك، يعتدّ، وهو مصيب فيما يقول، بكونه ابن هذه الأرض ذات الماضي المجيد، هذه الجزائر التي كانت مهدا لإحدى أكبر الحضارات في العالم. وكان الناس يتغنّون أيضا بالروح الإنسانية البطولية للعرب المسلمين، المُؤسِّسين القدامى لبلاد الأندلس. وكانوا لا يُعلِّمون جيل الشباب حب الحرية و الوطن أي "تراب" الوطن فحسب، بل كانوا يُعلِّموهم حب الإنسان أيضا، حيث المبدأ الأساسي فيه

هو احترام شخص الإنسان، الاحترام المؤسَّس على التسامح[2] والذي يظهر في احترام الوالدين و المعلمين و كبار السن.

وكان محي الدين، الرجل الذكي والمثقف والمولع بالعدالة، يرفض، باسم شعور مشترك بين مجموع المسلمين، أن يتقبّل هيمنة الأتراك. هذه الهيمنة التي كانت تهين الشعب ولا تضع في الحسبان الضرورات السياسية الوطنية. وتوخّيا منه للفعالية، كان يقوم سرّاً بعمل في أعماق الطبقات الاجتماعية، وهذا بغية إيقاظ وعيها السياسي والأخلاقي. وكان هذا العمل ينحصر بالخصوص في سكان البوادي الذين كانت معاناتهم من نظام الحكم الجائر المفروض من الإدارة التركية أشد.

وكان محي الدين يحلم، هو وكل من يحيطون به، بجزائر يكون فيها مفهوم الحرية واقعا ملموسا. وغالبا ما كان، في ساعات متأخرة من الليل، يتحادث مع وطنيِّين حول احتمال المطالبة بالحقوق الشرعية لصالح أولئك الذين أرهقتهم الضرائب، أولئك الذين تنغّص عيشهم الميليشيات التركية وتراقبهم دون انقطاع، أولئك الذين يعذّبهم الجبروت الممقوت لبعض شيوخ القبائل الذين حشدهم ممثلو السلطة المحتلة إلى جانبهم.

---

(2) إن أروع مثال على هذه الروح الإنسانية الفعّالة التي ورثها عبد القادر، هو موقفه خلال أحداث دمشق سنة 1860. حيث يذكر فرانك لوران Franck LAURENT أحداث هذه الواقعة الأليمة والعمل البطولي الذي قام به الأمير حيث قال: "فخلال الاضطرابات التي حدثت في لبنان، تلك التي دارت سنة 1860 بين المسلمين الدروز والمسيحيين المارونيين الذين كانوا في حماية فرنسا، أنذر [عبد القادر، المستقر آنئذٍ في دمشق] السلطات الفرنسية وفتح بيته للقناصل وإلى كل اللاجئين المسيحيين."

Franck LAURENT, Victor Hugo face à la conquête de l'Algérie, Maisonneuve & Larose, Paris, 2001, p. 35.

وكان بمقدور محي الدين أن يفهم، بفضل أفكارٍ كتلك التي كان يشعر بها في اعتكافه للصلاة وللتأمّل، سبب تعرّض تراب وطنه إلى حملات غزو أجنبية، وكيف أنه أن يكون بمأمن في وطنه إذا لم تتحقق، أولا، الوحدة والأخوة في الداخل. هذه الوحدة والأخوة اللتان كانتا محلّ هجوم من قِبَل المحتل التركي. وكان يستخبر المسافرين عن الأحداث التي كانت تهزّ بلاد الغرب، ويتساءل عن الآثار التي ستُخلّفها ويقع ضحيةً لها مرّة أخرى العالمُ العربي والأفريقي، ذلك أن بلدانا أخرى مثل العراق وسوريا ولبنان ومصر كانت خاضعة، هي أيضا، لاحتلالٍ على شاكلة الاحتلال الذي يخضع له وطنه هو.

وكان، وهو المتّصف ببعد النظر، منشغل البال بآثار السياسة الأوروبية، وآثار الانتفاضات غير المنظّمة التي كانت تقوم بها شعوب المغرب. وكانت إنجلترا وفرنسا كلتاهما تطمعان، ولأسباب مختلفة، في أراضي الدول الأفريقية، وبخاصة دول الشمال منها، حيث كانت الشعوب تتناوش فيما بينها، وهي في حالة اضطراب كبير يعود إلى الهيمنة التركية وإلى نوايا سلطان المغرب الغامضة.

أما من الجانب الآخر، فقد كان على داي الجزائر، المُستأجَر من قِبَل إنجلترا، أن يتفاهم مع سلطان المغرب مولاي بن سليمان، وهذا حتى يتمكن من إنقاذ سياسته في الاحتلال. وأرسل سلطان المغرب، هذا الداهية والماهر في التخطيط، فِرقاً عسكريّة إلى باي وهران محمد بن محمد المقلّش لقمع هجمات الوطنيين المتمرّدين في درقاوة. وحاول منذ سنة 1808، على أثر تقلّب السياسة الأوروبية، أن يستولي على واحات

الساورة وتوات وقورارة. وهذا طبعا أثار انتفاضة قبائل الغرب الجزائري التي كانت ترفض الانتماء إلى أيّة جهة، وأثار أيضا سخط حكومة الأتراك التي كان في نيتها دائما الحفاظ على هيمنتها على الأراضي الجزائرية.

وهكذا، أدرك محي الدين، مرّة واحدة، الواقع القائم أمامه، وهو أن وطنه محتل ومقسّم، وأنه عرضة لحملات غزو أخرى. فهل يأتي ذاك الزمان الذي ينتفض فيه الشعب الجزائري المتآخي والموحّد كي يكسر الأغلال التي تكبّله؟ والحال أن الشرط اللازم الذي كان دائما واجب التوفّر هو، قبل كل شيء، تعزيز جوّ الثقة و التفاهم بين جميع قبائل البلاد -مع إِحداثه حيث ينعدم - وهذا من أجل تشجيع الوحدة الشعبية، وتنظيم جيش وطني تكون البلاد في حاجة ماسة إليه.

وفي انتظار ذاك اليوم، كان محي الدين يداوم، لدى بني هاشم، على القيام بعمل نضالي كبير. كان يبذل كل ما في وسعه لإعادة الثقة، ولزرع روح الحماسة الرزينة في نفوس السكان. هذه الحماسة التي من شأنها أن تدعم زعماء المقاومة في الوقت اللازم. ولعلّه كان يتمنّى أن يكون ولداه، أو على الأقل أحدهما، من بين هؤلاء الرجال البارزين الذين كانوا يسكنون فكره. وما كان ابنه محمد سعيد ولا ابنه مصطفى ليشدّا انتباهه أو انتباه الوطنيين حينئذٍ لأنهما كانا لا يزالان صغيرين.

وكان الناس يأتون محي الدين، من كل مكان، يستشيرونه في أمورهم، ويطلبون مساعدته، أو يسألونه التوسّط لهم في المسائل التي تعترضهم فيها صعوبات مع إدارة البايلك. وكانت زاويته في دوّاره، وهو أحد سبعة دواوير في سهل غريس، تبدو محطة طبيعية بالنسبة إلى المسافر

والزائر، ومأوًى للفقير والمسنّ العديم الموارد. وكان محي الدين يحسن وفادة كل واحد منهم، ويجزل العطاء لهم. وكان، كدأبه، يغمر المعوزين بإحسانه، أوّلا، وذالك بغرفه بلا حساب من ممتلكاته العينية التي تمثّل منتجات محاصيل مختلفة من أراضيه الخاصة. ولم تنفكّ زاويته أيضا في أن تكون ملجأً للمحرومين المتابَعين من قِبَل قضاةٍ سريعي التنفيذ، أو لأولئك الذين يبتز عصبة باي وهران أموالهم.

وهكذا، وفي زمن مبكّر، أصبحت قطنة محي الدين، ذاك الدوّار بمسجده ومنازله (وهي خيام من وبر الإبل، وبعض البناءات من الحجارة) مكانا محترما ومقدّسا. وأصبح، بفضل إشعاعه الفكري، جمهورية صغيرة على وجه حقيق. وهذا ما كان يثير غيرة وسخط بعض الإقطاعيين الموَسوَسين من أصحاب المناصب العليا. وكان يثير أيضا، وعلى وجه الخصوص، الحذر لدى باي وهران.

ومهما كأن من أمر، فإن محي الدين كان مهتما بأسرته، و متابِعا لعمله بسكينة، علّ هذا العمل يصبح يوما ما... بذرة تنبئ بميلاد الدولة الجزائرية.

وكان محي الدين، شيخ بني هاشم، يقارب الخامسة و الأربعين من عمره في بداية الفترة التاريخية التي هي قيد اهتمامنا في هذا المؤلَّف. وكان له ثلاثة أطفال في حداثة السن: ولدان، أكبرهما محمد سعيد والثاني مصطفى (اللذان وُلدا من وريدة، زوجته الثانية)، وبنت صغيرة هي خديجة ذات السنتين، بنته من زُهرة، زوجته الثانية. أما عبد القادر، فميلاده يأتي سنتين بعد ميلاد خديجة.

والشيء الملاحَظ هو أنه كان لمحي الدين زوجات عديدات بالفعل. وقد وُلد له بعد أربع زيجات ستة أطفال: خمسة أولاد، وبنت واحدة. فزوجاته الأربع كنّ: وريدة بنت الميلود، زُهرة بنت اعمر بن دوبه، فاطمة بنت سي دحّو وخيرة بنت العوياد. وقد أنجبت له وريدة محمد سعيد ومصطفى، وأنجبت له زهرة خديجة وعبد القادر، وأنجبت له فاطمة الحسين، وأنجبت له خيرة المرتضي.

وكان الداعي إلى عقد هذه الزيجات هو إبرام تحالفات سياسية وقَبلية رشيدة، في زمن مضطرب وخطير، وكذلك الأعمال المترلية التي غالبا ما كانت شاقة ومرهقة. وكانت النساء يقمن، بالإضافة إلى هذا، بتهيئة الاستقبال في الزاوية التي كانت تجتذب، في كل موسم، جموعا غفيرة من الناس، على اختلاف ظروف حياتهم (فمنهم الضيوف المتميّزون، والضيوف البسطاء، والزوّار المحليون، والمسافرون، وأبناء السبيل، والخواص المعوزون)، ولاسيما أثناء الوجبات الجماعية (المسماة الزَرَد، مفردها زَردة)، المتعلقة بالأعياد الدينية الموسمية، أو الخاصة بالأولياء الصالحين (الزيارات والوَعْدات، مفردها وَعْدَة).

وهكذا، يمكننا تقدير أهمية البرنامج الديني المتَّبَع في الزاوية، والأهداف التي رسمها المُقَدَّم محي الدين لنفسه. ويمكننا أن نتصور جيدا الآثار الفضيلة المترقَّبَة، والتي تبدو للعيان بعد كل عمل تفانى فيه صاحبه وأخلص، في المجتمع، وفي السياسة، وفي الاقتصاد، وفي التآلف فيما بين القبائل، وفي موقف سكان الغرب الجزائري من السلطة المركزية لبايلك وهران.

3

الوالدة و الولد

لم تكن السيّدة زُهرة، والدة عبد القادر وزوجة محي الدين الثانية، والتي كانت لا شك أحب زوجاته إليه، تتجاوز الثامنة عشرة من عمرها عندما اقترنت به في زواجها الثاني[1].

وهي تنحدر من أولاد سي بن اعمر بن دوبه. وكانت تتميز بجمالها وورعها وذكائها وحبها للوطن. وكانت تتّسم، على وجه خاص، بروح مدنيّة، وبتضامنها مع نساء القطنة. وكان يُقال عنها إنها كانت، دون باقي نساءِ المنطقة، المرأة الأوسع ثقافة، بكل ما تحمل الكلمة من معانٍ وأبعاد. ولم يكن محي الدين ليواري فضل زوجته، إذ غالبا ما كان يستجير بنصائحها. وقد داومت على القيام بدور الناصحة، بجدارة كبيرة، حتى لولدها عبد القادر فيما بعد.

---

(1) كانت متزوجةً من قبل. وكان لها ولد، ولم يعش طويلا.

وكانت السيدة زهرة تبدي اهتماما بكل المشاكل الشخصية التي لم يكن يتردّد الكثير من الرجال والنساء في عرضها عليها. وكانت، بصورة عامة، تتعاطف مع كل الذين يقصدونها في مآسيهم. وقد شاهدها الناس، فيما بعد، على سبيل المثال، في تلمسان، وهي تُقنع السكان بالبقاء موحَّدين تحت راية ولدها الأمير عبد القادر، لأنه كان وحده القادر على حمايتهم من المخزن، الذي هو من بقايا الإدارة التركية المنهارة، ومن الحملة العسكرية الفرنسية في آنٍ واحد. ولم يكن محمد الشريف ساحلي، مؤلف كتاب "Décoloniser l'histoire" أي تصفية التاريخ من الاستعمار، ليمرّ، هكذا، دون أن يُبرز هذه التفاصيل التي تُشخّص السلوك الإنساني لهذه السيدة، صاحبة الخصال الحميدة، حيث قال: "وعند استقبالها مساجين سيدي إبراهيم، تحدّثت بلسان لائق جدا، حيث كانت عبارات المواساة تخفّف من حدّة تأنيبها. قالت: 'ماذا جئتم تفعلون في بلادنا؟ كانت بلادنا تنعم بالسكينة والازدهار، وقد رميتموها بالعواصف ومآسي الحرب...'"(2)

---

(2) ويضيف القبطان شميتز Schmitz ناقلا أوصافها، وقائلا:"كانت كلماتها الأخيرة كلها مؤاساة وأملا. وأحدثت في الأسرى انطباعا حيّا. فكلامها الذي كان يفيض عزة وحماسة، كان يكشف عن أمّ زعيم المسلمين المحبوب. وكان كل شيء في والدة عبد القادر يدعو إلى الاحترام. فصوتها كان ذا نغمة يميّزها التعاطف يُدني منها القلوب التي يمزّقها الألم. وكان للالة الزهرة مهمة أخرى تؤدّيها بسعادة وهي السهر على السجينات. فكلّما قدمت سجينة جديدة يتأسّى الأمير لحالها – بعد أن تخبره والدته بقدومها– ويقول متأسّفًا: هناك من الأسود من تكون فريسته من الحيوانات الضعيفة، وهناك من يهاجم الحيوانات الشرسة." انظر:
(M.C. SAHLI, Abdelkader, chevalier de la foi, éd. En-Nahdha, Alger, 1953)

وفي ملاحظاته، أكّد نيكولا مانوتشي، مُخبر بيجو المُعتمَد، والذي أسهم في عملية تبادل ثمانين سجينا فرنسيا، فطنةَ السيدة زهرة ورقّتها. هذه السيدة التي كانت تعتبرها السجينات بمثابة أمّ لهن، وذلك من فرط طيبتها.

وكذلك، حدث في أكتوبر من سنة 1852 أن لاحظ كثير من الأعيان الفرنسيين الحاضرين في قصر أمبواز - حيث كانت السيدة زهرة سجينة، هي وعائلتها وابنها الأمير وحاشيته - أن لويس بونابرت Louis Bonaparte، الذي بُويع بعدها بفترة قصيرة باسم نابليون الثالث Napoléon III، كان شديد الانبهار بالتميّز شديد الفضل لوالدة "السجين الشهير"، الذي أتاه ليطلق سراحه، إصلاحًا للحنث في اليمين لمختلف الحكومات الفرنسية زمن الغزو. وقد قَبِل ذاك الذي سيصبح نابليون الثالث، دونما تردّد، وتحت عين الأمير، أن يُبدي آيات التبجيل لأمّ تشعّ رفعةً وتواضعا. وكان ذلك يوم 10 أكتوبر 1852.

وبعد أن وضعت السيدة زهرة بنتا، هي خديجة، تمنّى محي الدين أن لا تبطئ زوجته في أن تنجب له ولدا، تترافد فيه القدرات الروحية و قوّة النفـــس التي تتميّز بها هذه المرأة الرائعـــة حقّا. وقد وُلد له هذا الولد عامين بعدئذ. وكان ذلك يوم الثلاثـــاء 15 رجب 1223 الموافـــق يوم الثلاثاء 6 سبتمبر 1808[3]. وأثناء مدّة الوضع كله، بقي محي الدين منتظرا

(3) Léon ROCHES, Trente deux ans à travers l'Islam (1832-1864), t. 1, éd. F. Didot, Paris, 1884, p. 140.→

الولادة، والقلق القاتل يتملّكه، وهو وراء الزريبة أي السياج ذو الأغصان الشائكة الذي يحمي الخيمة، حيث كانت زوجته تعاني آلام المخاض، وبجانبها القابلة و بعض النساء لمساعدتها.

وأخيرا، وضعت السيدة زهرة مولودًا ذكرًا في بيت محي الدين "في الكتنة (هكذا) التابعة لأبيه"[4] وبعدها مباشرة، زار الأبُ الأمَ مهنِّئًا وشاكرًا لها كل ما تحمّلته من آلام من أجل أن تنجب له ولدا. ثم ذهب إلى الزاوية ليحمد الله و يشكره، في صلوات طويلة، وليستقبل أقاربه الذين جاءوه يقدّمون له تهانيهم كما جرى عليه العرف والعادة. أما عن الأم السعيدة والمولود الجديد، فإنهما كانا محل رعاية نساء البيت حيث كانت بعضهن تتكفل بالصبي المقمَّط، وكانت أخريات يتكفلن بالنفساء التي كنّ يحضرن لها منقوعات بنباتات عطرية، وحساءات، وكل ما لذّ وطاب من طعام يُسمّى 'مَرغَنّات النّافس'، ويُقصد به "كل ما تُدلّل به النفساء". وكانت تساعد السيدةَ زهرة امرأةٌ أو امرأتان على الاعتناء بزينتها، حتى تحافظ على مظهرها الحسن.

كانت القطنة عاديًّا تتسم بالحركة، ثم انضاف إليها، بصورة مباغتة طبعا، هذا الشعور الرائع الذي انتشر في قبيلة بني هاشم، وكل بطونها المنحدرة من قبائل الغرّابة والشرّاقة.

← يذكر شرشل، م.ن. ص 47، أن مولده كان في شهر ماي من سنة 1807. و يذكر مترجم كتابه، مُلاحظًا، أن ذلك كان تحديدا في بداية سنة 1808. أما ممدوح حقّي، م.ن. ص 7، فيقول بكل بساطة: ولد الأمير عبد القادر عام 1807 م – 1222 هـ.

(4) Charles Henry CHURCHILL, op. cit., p. 47.

وبعد أن رأى محي الدين عائلته وقد ازداد عدد أفرادها بولد، فإنه آلى على نفسه أن يحيط هذا الولد بكامل رعايته وبكل وقته حتى يجعل منه، بفضل تجربته الثرية في ميدان الحياة الدينية و الاجتماعية والسياسية، رجلا يتميّز "برقّة القلب وبالبسالة في آن واحد" -الشيء الذي لم يتمكن من فعله مع ولديه محمد سعيد ومصطفى. وهكذا، ومنذ اللحظات الأولى، "كان الأب الحنون يلح باستمرار على أن يحمل الصبيَّ بين ذراعيه، وهو بَعدُ ما برح ثديَي أمه، ولم يعهد به إلى أيادٍ أخرى تُعنى برعايته، في أبسط أنواع الرعاية، إلا على مضض."(5)

تلقّت قبيلة بني هاشم الخبر السعيد إذاً، و أُقيمت الأفراح احتفاءً بولادة صبي نالت أمّه الشرف كلّه، وكذلك القابلة، التي يُطلق عليها اسم 'قطّاعة السُرَّة'، والتي ستحمل لقب 'جدّة' المولود الجديد، كما تقتضي العادات والتقاليد. وداومت النساء على هذا الجو الاحتفالي مدة ثلاثة أيام، دونما انقطاع، حيث غنّين و رقصن و أطلقن زغاريد فرحٍ بصوت ثاقب. وكانت هذه الأفراح الكبيرة مصحوبة بالغايطة (المزمار) والطبل والبَندير والقلال (طبل طويل) والدف والدربكّه والقصبة (الناي) والسنطير، وكذلك بالبارود الذي كان يُطلق من حين إلى آخر، في سلسلة طلقات جماعية، ببنادق من نوع الطَبنجات و ببنادق قديمة. وكان البارود يُطلِق سراح هتافات صاخبة، تفيض أملاً وحماسةً لطالما كانت حبيسة النفوس.

(5) ID. Ibid., p. 47.

وفي اليوم الثالث، حُضِّرت وجبة خاصة تُدعى 'جفنة المساكين'، وتمّ تقديمها للناس. وهي بمثابة 'سلاك الرّاس'، أي هي خلاص واضعة الوليد من الولادة. وهكذا، أُعطِي المعوزون المتجمّعون في الزاوية أطباقا كبيرة، مختلفة، مليئة بكسكسي ذي حبيبات جيدة التكوير، ومُمرّق بمرق أحمر مُشبع بالبهارات، ومُزدان بخضراوات و قطع لحم كبيرة.

وبعد الوجبة الكبيرة العامة في منتصف النهار، والتي جمعت حولها ضيوفا كثيرين (من أهل محي الدين، وأصدقائه، وأتباعه، وممثلي عائلات ثريّة كثيرة منتسبة إلى الزاوية، وأعيان المنطقة، وشيوخ كبار قبائل الغرب الجزائري أو موفدين عنهم)، قُدّمت للمدعوّين بعض الأطباق التقليدية الخاصة بمثل هذه المناسبات، مثل العصيدة والتقناطة[6] والمبسّلة[7] وأطباق أخرى خاصة بالمنطقة، وقُدِّمت كذلك القهوة و الشاي المنعنع.

وفي اليوم السابع من الولادة، المُسمَّى 'السبُوع' أو 'السابعة'، أُقيم حفل من أجل تسمية الصبي. وكانت التقاليد تقتضي طبعا أن يحمل المولود الجديد اسم وليّ الطريقة القادرية. وكان على محي الدين، والد الصبي، أن يتّخذ القرار في هذا الاختيار، فسمّاه "عبد القادر".

وكان اسم "عبد القادر" يتردّد على كل الألسنة، لأنه اسم يحمله النبـــلاء والأشراف، وهو مذكور عدّة مرات في سلسلة نسب شيخ قبيلة بني هاشـــم. وبما أن العادة المنتشرة آنذاك هو منح المولود الجديد اسما

(6) هي الأكلة المسماة في الجزائر العاصمة 'الطّمينة'.

(7) هي حلوى تُعدّ بالدقيق والبصل وتوابل أخرى خاصة بالمنطقة.

مزجيا، فإن عبد القادر مُنح اسما آخر هو ناصر الدين، غير أن الاستعمال المتكرّر أبقى على اسم "عبد القادر" فقط.

ففي اليـــوم السابع من الولادة، وطبقا للعادة، أصبح هذا الاسم المبجّل رسميا. وكان ترسيمه بتحضير وجبة كسكسي عائلي باذخة، اجتمع حولها أحباب زاوية القطنة والمتعاطفون معها، وكذا عدد كبير من المســـاكين وأبناء السبيل والزوّار. وفي نهاية الوجبة، اختير طالب، من بين أكبر طُلبة الزاوية سنّا، وأكثرهم علما، ليتلو الفاتحة، كي يبارك الله المولود الجديد. و"قدّم" الضيوف لهذا المولود هدايا معتبرة، عيناً أو نقداً، تُسمّى" 'الباروك'، وهي هِبة بسيطة تُعطى في المناسبات السعيدة كفأل خير."(8)

وهكذا، جرى كل شيء في جوّ يسوده الحبور الشديد، والورع القوي، في الزاوية لأن الولد الذَكَر المأمول قد وُلد...

ومرّت سنة، وبدأ الولد، وهو في خطواته الأولى، يستكشف المكان حيث يعيش. ثم بعدها ارتدى، في سن سابقة للعادة، أول برنس "حقيقي" له "يحاكي بياض الحليب الناصع" (وهو الرمز والتشبيه التمثيلي الذي تحدّث عنه الأمير عبد القادر المحارب في قوله: ""لا شيء يزيد في نصاعة برنس أبيض أفضل من الدم").

(8) Nour-Eddine M'HAMSADJI, Usages et rites alimentaires d'une contrée rurale d'Algérie (Aumale/Sour El Ghozlane - Sidi Aïssa), Annales de l'Institut d'Études Orientales, t. XIV, Alger, 1956, p. 288.

وعلى كل حال، فإن البرنس كان عادةً لباسا مميِّزا للذكور، ولا زال يعني إلى يومنا هذا، في بعض مناطقنا، في سنّ الولد هذه (بين سنّ الثامنة وسنّ العاشرة) أن مرتديه سيصبح رجلا في المستقبل.

والظن الغالب أنه في هذه الفترة الزمنية بالذات تمّ رسم وشم خفيف بين حاجبي الفتى عبد القادر يرمز إلى قبيلة بني هاشم، وهذا تبعا لعادة قديمة.

وما فتئ نموّ الولد عبد القادر في تزايد حتى حوالي السن الخامسة، وذلك حسب نظام علاقات دائمة مع محيطه الأُسريّ. وكان الولد يثبت وجوده بصورة تامة، في هذا المحيط الملائم لتطوّر كل الخصال الإنسانية، في مجتمعٍ يغار على نقاوة أخلاقه، مجتمعٍ متفتّح على الدراسة والرقيّ، مجتمعٍ موسوم بورع يشعّ نورا وسماحة. فمن هنا، و في هذا المحيط، بدأت تتأكّد لدى عبد القادر، منذ الطفولة، الآثار الأولى لعالَم سيكون عالَمَه، وسيكون مُجبرا على الدفاع عنه تارةً، وعلى محاربته تارةً، وعلى إعادة تشكيله تارةً أخرى، وهذا كي يوقظ فيه شعورا بقِيَم أخرى تعمل على إتمام تلك القيم التي كانت من قَبْلُ تعطي ضميره أبعادا نبيلة.

والحال أن عبد القادر بقي، بالأحرى، في رعاية السيدة زهرة لأنه من الطبيعي أن يحظى بالرعاية التامة من لدن والدته، زيادةً على كونه ضعيف البنية. ولعلّ العودة إلى ذكريات عبد القادر في صباه تُعطي التفسير الكامل لتلك العلاقة الوطيدة التي كانت تربطه بوالديه.

وهذا ما جعل أنطوان دو لاكروا يتصوّر ما يلي: "كان عبد القادر محلّ تفضيل لدى محي الدين. وكان أهلا لذلك على كل الأصعدة. وقد

اجتمع لديه، فضلا عن جدارة مبكِّرة وذكاء وقّاد، ورعٌ نادر، وحبٌ عميق لوالده، وحنانٌ فائق لوالدته. وكانت فضائل زهرة المؤثِّرة تثير إعجابه. وكان يحبها حبا كأنه عبادة، لم ينفصل عنه بعد ذلك أبدا."[(9)]

ومع مرور السنين، ساعده ميله الشديد إلى الحركة، وإلى الألعاب في الهواء الطلق، وإلى الحياة البسيطة في الريف، في تطوّر بنيته بشكل منسجم. وهذا لم يغيّر كثيرا في "طبعه الموسوم بخجل طبيعي كبير. وكان بإمكان التعبير القائل 'فلان يخاف من ظله' أن ينطبق على حالته حرفيا. وبعد تعاقب السنين، وعندما سطع نجمه كأشجع الشجعان -إذ إنه كان دائما الأول في الكرّ والأخير في الفرّ -، كان والده غير ما مرّة يتسلّى بإثارته، وهو في عنفوان الشباب وعزّته، عن ضعفه في صباه، وهذا من أجل أن يكون اندهاشه أكثر بذلك التغيّر المذهل!"[(10)]

وأصبح عبد القادر، فيما بعد، حسب معظم كُتّاب سيرته، "الرجل الأكثر مقاومة، وأفضل فارس في الجزائر كلها" ودونما منازع. وما كان هذا إلا بفضل طريقة عيش صارمة. وكان بوسعنا أن نقول عنه سنة 1841 إنه: "كان يفضِّل العيش في الخيمة، التي كان تؤويه خلال تنقلاته الدائمة، على العيش في مترل من حجر. كان زهده في العيش شديدا إلى درجة أنه كان يحدُث أن يكتفي بشرب الحليب فقط، بكميّات قليلة، وهذا مدّة ثلاثة أيام أو أربع. وكان بوسعه أن يتحمّل المسير على صهوة حصانه مدة يوم أو يومين، مكتفيا فقط بالروينة، وهي دقيق قمح مسلوق

(9) A. de FRANCE, op. cit., p. 17.
(10) ID., ibid., p, 47.

في ماء مملّح يُتناول من خُرج. وإذا كثرت القطعان وعزّت الحبوب، جعل طعامه مقتصرا على اللحم فقط. وكان لا يرضى بالاقتيات إلا من أجل العيش، وليس من أجل المتعة، حيث كان ينادي قائلا: 'كلّما أكلنا أقل، أصبحنا في صحّة أفضل' "(11)

ومع ذلك فإن حسّه المرهف في طفولته كان، شيئا فشيئا، يتلقّى من لدن والدته العناصرَ التي شكّلت طبعه، لتُظهر لنا، في وقت مبكّر جدا، النُبل في سلوكه وليس في شطحاته الشعرية الحماسية فقط، كما في قوله:

ركــبنا للــمكارم كلّ هــول ::: وخضنا أبحرا ولها زجــال

...

رفــعنا ثــوبنا عن كــلّ لــؤم ::: وأقــوالي تصدّقها الــفعال

...

ولو ندري بــماء المزن يــزري ::: لكان لنا على الظمأ احتمال

...

فــلا جــزعٌ و لا هــلعٌ مشينٌ ::: ومنا الغــدر أو كذب محال

ونحلُــم، إن جنى السفهاء يوما ::: ومن قبل السؤال لنا نوال(12)

وقــد أخذ عن أمه الخصال الإنسانية الحميــدة العديدة، وأقرّ له بها، في وقت لاحق، الكثيرُ من معاصريه (من أهله وأصدقائه وأصحابه وخصومــه وأعدائه). وبالطبع، بادل عبد القادر والدته هذا الحب

---

(11) ذكــر المؤلّــف هذا الكــلام، تعقيبًــا على كلام الترجمــان تــوستان دو ما نوار Toustain du MANOIR الذي رأى الأمير عبد القادر سنة 1841. انظر:
(Charles-André JULIEN, Histoire de l'Algérie contemporaine, t. I, op. cit., p. 181)
(12) Henri PÉRÈS, Les Poésies d'Abd-el-Kader, op. cit., pp. 17-18.
ممدوح حقّي، م. ن. ص ص 15-16

الأمومي الكامل، لأن تلك المحبة وذلك التبجيل اللذين كان يكنهما لها كانا بمثابة عبادة تقريبا، وذلك طوال حياته. فهو القائل: "لقد حظي معظم الرجال العظام تقريبا بأمهات عظيمات. ولعل هذا يعود إلى كون التنظيمات الإنسانية المشرقة لا تتشكّل إلا بانسجامٍ تام بين القوّة واللطافة."

ويصف ليون روش، وهو الذي عمل مدّة سنة (1838-1839) مترجما لدى الأمير عبد القادر في علاقاته مع العسكريين الفرنسيين، هذا الحب البَنَويّ الذي عبَّر عنه عبد القادر، في ظرف آخر معيّن، حيث كتب عنه قائلا: "كان علينا أن نُديم بقاءنا لبضعة أيام في مدينة تقدامت حينما قَدِم ساعٍ مُخبراً عبد القادر أن والدته، لالّة زهرة، مصابة بمرض خطير. فأعلن رحيله، دونما تردّد، لأنه كان مولعا بحب أمه. 'أنا لا أُجبر أحدا على اتّباعي'، قال عبد القادر، غير أن كل من يحيطون به أعدّوا العدّة لمرافقته. و امتطينا صهوات خيولنا، في الساعة الثالثة بعد الزوال، في وقت كان فيه الثلج لا زال يتساقط، وكان البرد قارسا. وانطلق الأدهم، حصان عبد القادر الأسود، يتبعه في عناءٍ موكب مكوّن ممّا يقارب الستين فارسا. ولا شيء كان ليوقف عبد القادر الذي كان ينادي في كل لحظة قائلا: "يا إلهي إأذن لي باللّحاق حتى أحظى ببركة أَمَتك'"[13]

(13) Léon ROCHES, Trente-deux ans à travers l'Islam (1832-1864), 2 vol., éd. Firmin Didot, Paris, 1884-1885.

4

دروس الصبا

عندما بلغ عبد القادر الخامسة من عمره، حسب دو لاكروا[1] أو السابعة حسب ديستايور شانترين d'Estailleur-Chanteraine[2]، أُقيم على شرفه حفل آخر دام ثلاثة أيام. كان ذاك حفل الختان.

واقتنع محي الدين، في هذه المرحلة الجديدة من الحياة ولده، بأن القَدَر لن يُخيّبه. لقد كان دائم التفكّر في ما يجري في وطنه. إذ وقعت أحداث سياسيـــة عديدة طوّرت الأذهـــان في قطنة بني هاشـــم، كما في كل أرجاء بايلك وهـــران. وبرزت مطالب قويّة، حتى بحمل السلاح ضد الأتراك. فهنا وهنالك، في القبائل، على هذه الأرض القديمة البطلة، تواصلت في الوقوف في وجه التعسّف إراداتٌ حقيقية تدفع كل مؤمن بها إلى مقاومة دائمة. وبدأت هذه الإرادات تظهر بعزم، أكثر من أي وقت مضى، عن طريق حمل السلاح. واشتهرت أكثر خلال السنوات 1814

(1) A. de LACROIX, op. cit., p. 11.
(2) Phillipe d'ESTAILLEUR-CHANTERAINE, Abd el-Kader, Lib. De France, 1931, p. 15.

و 1815 و 1816 و 1817. وكانت الجزائر، وباقي بلدان المغرب بصفة عامة، تصمد دائما أمام ضربات الإمبرياليين الموجِعة، هذه الضربات التي كانت تتلقاها في ثلاث مدن مرفئية كبيرة: الجزائر وتونس وطنجة.

وكان على الجزائريين، مثلا، أن يجابهوا التدخّل العسكري الإنجليزي- الهولندي الذي شُنّ تحت راية الأميرال إيكسماوث Exmouth قبالة الجزائر العاصمة سنة 1816[3]. وتصدّى التونسيون لهجمات فان كابلن Van Capellen. أما السلطان مولاي بن سليمان الذي كان مهدّدا هو أيضا، فقد أسرع للتصالح مع إنجلترا.

وأحدثت هذه الوقائع انشغالا لدى محي الدين، وعزّزت إرادتَه في خلق الظروف المناسبة لمشروعه، وهو توعية سكان الغرب الجزائري بالخطر المحدق بسواحل البلاد.

ولكن محي الدين كان يرغب، في هذه الفترة أيضا، و في جوّ يطبعه تلهّـــف شديد واستعدادات طويلة، في الاحتفال بختان ولده عبد القادر، في أعظم زينة ممكنـــة. واختار محي الدين لأجل هذه الغاية يوم الاثنين، ذلك أن العـــادة في الختـــان هو أن يُقام في مثل هذا اليوم المبارك، يوم مولد الرسول.

---

(3) كان قوام محاولة الاعتداء هذه "أسطول من 20 سفينة مسلّحة بـــ 560 مدفع. والتحق بهذا الأسطول 5 فرقاطات وحرّاقة هولندية، ولكن اللورد إيكسماوث أخفق، مثل سابقِيه، كالأميرال نيل Neal سنة 1824...." انظر:
(Gustave GAUTHEROT, La Conquête d'Alger, 1830, éd. Payot, 1929.)

وسمعت كل المنطقة بالخبر السعيد، وسارع كثير من الأصدقاء والأتباع إلى الحضور في اليوم الموعود ليُظهروا لمحي الدين تعاطفهم واحترامهـــم، وليُقدّموا للصغير المُختَتَن هدايا (عينية أو نقدية تُدعى التّاوسة) كما تنصّ على ذلك العـــادة، وتكون متناسبة مع ثروة كل واهب.

أما النساء فقد تخلّين عن النوم مدة ثلاثة أيام حتى يحضّرن الاحتفالات التي أردنها أن تكون في قمّة العظمة. وكنّ لا يتوقّفن عن الرقص، وعن إطلاق الزغاريد، وكأنهن تنادين بصوت عالٍ أملا عاما، لا يزال خفيّا ومبهما بالنسبة إليهن. وكان لا يعرف كنهَ هذا الأمل، تمام المعرفة، إلا شيخُ بني هاشم الذي هو بالطبع محل ثقتهنّ. وكانت 'التقاديم' (وهي أغان تقليدية خاصة بحفلات الختان) التي يردّدنها، والتي ما كان يُوقف تواصلَها إلا الزغاريدُ الحادة و الطويلة، بمثابة رسالة ينتشر صداها في سهل غريس كلّه، وفي ما وراء جبال بني شُقْران، وجبال سعيدة، وتصل قبائل بُرجيّة في الشرق، وحتى بني عامر شرّاقة وبني عامر غرّابة.

هذا، وكان الختان في ثالث يوم من الاحتفالات.

ومباشرةً بعد طعام الكسكسي الفاخر في منتصف النهار، و في حوالي الساعة الثالثـــة بعد الزوال[4]، سيق الولد عبد القادر إلى الجامع الذي يشكّل جزءا من الزاوية، في جوّ تطبعه أبّهة عظيمة. ووُضع الولد على صهوة حصان أشقر، ذي عُرف أسود، أُسرج ببذخ من أجل الحفل.

(4) A. de LACROIX, op. cit.

وكان لهذا الحصان غطاء سرجٍ من حرير أصفر، وغُطِّي ردفه بشليل من حرير أرجواني مطرّز ومزركش الحواشي. وأُلبس الحصانُ، الذي كانت عنقه مُحاطة بجلاجل تُصدر رنينا، قلادةً كبيرة مصنوعة من خيوط صوف متعدّدة الألوان، ثُبِّت على أطرافها تمائم تُبعد عين السوء وتقي من الأمراض. وكان هذا تبعا للعادة، وليس بدافعٍ من إيمان مفرط بقوّتها الوقائية. وقد تكفّل رجلان، كانا في خدمة محي الدين، بقيادة هذه المطية راجلَين، وهما يشعران بالاعتزاز و الفخر.

وطيلة المسير كلّه، كانت فرقة من رجال مرحين تعزف الألحان بآلات موسيقية قديمة ومختلفة، ترافق التقاديم المؤثرة التي كانت النساء يرددنها. وتكفّل رجال آخرون بإطلاق بارود كثيف، بحركات عجيبة، تتعالى بعده زغاريد قوية لنساء أخريات يطرن سرورا.

وكان وراء الطفل عبد القادر ستون طفلا من فقراء القبيلة، يتبعونه بتفاخر، ممتطين هم كذلك صهوات أحصنة تابعة لمحي الدين، مزركشة الجِلال بأبهة. فَهُم أترابه، وسيُختنون معه. كان من الممكن أن تكون هذه الجماعة من الفرسان الرائعين فأل خير، لو لم تكن الضمائر تجهل المستقبل، لأن هذه الجماعة كانت بمثابة تمثيل مسبّق لجيش عظيم لهذا الأمير المستقبلي... كانت هناك حشود هائلة - وهي في الواقع كل سكان القطنة- تحتفي، مُطلِقةً هتافات تفيض نشوة، بموكب هؤلاء الفرسان الصغار الشجعان، وهم في طريقهم إلى الجامع لأداء واجب إسلامي تقليدي!

وعند وصولهم إلى الجامع، سُلِّم هؤلاء الأطفال، الواحد تلو الآخر، إلى الحلاقين- الخاتنين التقليديين، بينما كان الطُلبة يدعون لهم بالبركة الإلهية، وذلك بترتيل آيات قرآنية وبتلاوة أدعية.

وكان عبد القادر، الطفل الشجاع، هو أوّل من خضع لتلك العملية الجراحية الصغيرة، دونما أن يذرف دمعة. وقد أمسكه أحد الطُلبة وعمّه، الرَّجُل الحازم عليّ بو طالب. وهما بمثابة "عرابَين" له. وبعد الانتهاء من عملية الختان، "وُضع ما بُتِر [من القلفة] في إناءٍ من طين وأُخذ إلى تخوم الملكية."[5] وبعدها أَلْقَى الولد على رأس خاتنه قطعة كبيرة من لحم معظّم مطبوخ. ولم يفعل ذلك ليشكره أو ليكافئه، بل "لينتقم منه". وقد أشار عليه رفاقه، "أولاد القطنة المشاكسون"، بفعل هذه الفعلة الماكرة في حقّ خاتنه رغبةً في المزاح. ورغم ذلك، استعاد الولد المُختَتَن صوابه بسرعة، وأعطى خاتنه قطعة ذهبية كان والده قد أودعها لديه من قَبْلُ. كان هذا بمثابة طريقة يشكر له فيها قيامه بعملية ناجحة. وهذا ما أدرّ على الصغير عبد القادر بركات الخاتن الشخصية، والتي تمليها عليه وظيفته. أمسك الرجل بالقطعة الذهبية، دونما تردّد، وغفر له دعابته غير اللائقة بأن ابتسم ملء ثغره، وردّد كلمات طيبة داعيا الله أن يتكفّله في جماعة المسلمين.

وتعالت الزغاريد من جديد في كل الأرجاء. وبعدها مباشرة، دوّت طلقـــات البنادق في جوّ تغمره السعادة العامة، مُحيِّية هذا الحدث

(5) Phillipe d'ESTAILLEUR-CHANTERAINE, op. cit., p. 18.

الاحتفالي وعودة الأطفال المُختَتَنين إلى الزاوية بعد أن أُعيد إركابهم برفق شديد على صهوات أحصنتهم.

وفي أثناء ذلك الوقت، حملت مجموعة من النساء جِفانا خشبية كبيرة على رؤوسهن تحتوي التراب الذي سقطت عليه القلفة المبتورة من كل طفل، عائدات إلى الموضع الذي استُخرج منه هذا التراب حتى يرجعنه إليه. وكنّ، طوال المسير، يردّدن 'التقاديم'[6]، في الإياب كما في الذهاب. وكانت إحداهن تلوِّح بعَلَم.

وكان شعور الأب بالطبع شعورا يعجز عنه الوصف. أما الأم المسرورة، السيدة زهرة، فكانت لا تقوى على ردّ دموع الفرح وهي تتلقّى، هي وزوجها، التهاني وإقراراتِ محبةِ الزوار الذين كانوا يسرعون، رجالا ونساءً، في الالتفاف حولهما وحول ولدهما، مُقدِّمين له، مرّةً أخرى، الواحد تلو الآخر، هدايا من كل نوع. ومرّت الأمسية كلها في جوّ يسوده الاحتفال والمرح الصبياني.

وفي اليوم الموالي، قام عبد القادر ورفقاؤه المُختَتَنون بعدّة جولات في القطنة، وهذا بغية تلقّي بركات الكبار، وإثارة غيرة الأطفال الذين لم يُختتنوا بعد.

---

(6) Nour-Eddine M'HAMSADJI, op. cit., pp. 289-290

إليك هذا النموذج من التقاديم:

يا محمد، يا عليّ، و الصلاة على النبيّ ::: و على الفارس و المجاهد، سيدنا عليّ

ختّن يا الـختّان، و ختن ما تخـاف ::: ختّن لي وليدي، و حطّوا على اللّحاف

ختّن يا الـختّان، و ختنـو يا سيـدو ::: باش يبـرى وليدي، و يروح لمسيدو

وبعد أيام قلائل، خرج عبد القادر للّعب من جديد مع رفقائه، مُبديا رغبة جامحة في الاجتماع بهم، وهذا دون أن يكون له إحساس واضح بأنه سيُدعى، في وقت قريب، من قِبَلهم وبمعيّتهم، إلى تحقيق حلم كبير يخصّ شعبه.

وبدأ محي الدين، منذ هذا الوقت بالذات، يبدي اهتماما أكبر بولده، بعد أن اكتشف لديه طبعا حازما، ورجولة حقيقية ناشئة. وأسرع إلى تنشئته، هو بدوره، تطبيقا لَمَثل شهير ذي مغزى عميق هو "دروس الصغَر كالنقش على الحجر، ودروس الكِبَر مثل أعشاش الطيور تندثر"، ولَمَثل آخر ذي حكمة بالغة وهو أن "الغصن الصغير يستقيم دون جهد كبير، أما الغصن الغليظ فلا يستقيم اعوجاجه أبدا."

وبدأ محي الدين بدعوة ابنه عبد القادر، بحنان، ليجالسه حتى يقاسمه طعامه ويعلّمه بعض مبادئ حسن الهيئة. وكان قصده من وراء ذلك هو إعداده ليتبوّأ مكانا له في مجتمع الرجال، و ليتقيّد بآداب المجاملات وحسن المجالسة.

ودرّبه، في الوقت ذاته، على الأعمال الصغيرة والمفيدة في الحقول، ولقّنه التمييز بين الأراضي الصالحة من غير الصالحة، وتركه يتعقّب الرعاة حتى يتعرّف على حياة الحيوانات، وأذاقه، شيئا فشيئا، طعم الصيد وركوب الخيل والتسديد. ولكنه ألحّ عليه، بوجه خاص، في أن يستمع للطُلبة حتى يطّلع على أهمية أن يكون الإنسان متعلّما، وبهذا ساعده بشكل غير محسوس على اكتشاف حياة من يحيطون به من الرجال. هذه الحياة التي ستكون حياته، في زمان قد سطّره له القَدَر من قَبْل.

لقد تعرّف الأب إذاً على بذور الخصال الحميدة في هذا الابن، في زمن مبكّر جدا، لذا كان يعلّمه القراءة والكتابة والحساب. ("لقد كانت قدرات الطفل العقلية تتميّز بنضج مبكّر غير عادي. وكان بمقدوره القراءة والكتابة، وهو في سن الخامسة."[7]. هذا ما أكّده شرشل، كاتب سيرته). وبورع شديد، جعله أبوه يحفظ سُوَرا عديدة من القرآن عن ظهر قلب. وبما أن الطفل كان يبدو متميّزا بذكاء حاد، وكان يستزيد في طلب العلم، فإن والده غالبا ما كان يفسّر له تفسيرا مفصّلا بعض الآيات و بعض الأحاديث. ولعلّه كان يركّز أكثر على حديث للنبي محمد صلّى الله عليه وسلّم، حديث مشهور رواه عنه أحد أصحابه وهو أبو هريرة رضي الله عنه، والذي يقول فيه: "سبعة يظّلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله... وشاب نشأ في عبادة الله..."[8]

كان الأب والابن يختليان، أحدهما بالآخر، لمدة ساعات، وهما يعلّقان على التعاليم الأخلاقية، وعلى أحكام الرجال العظام وأفكارهم، أو يفكران في قيمة المبادئ الدينية و معانيها. وكان الولد ميّالا إلى المحادثة، ولم يكن يتوقّف عن طرح الأسئلة، أسئلة كلها وجيهة. ولو لم يكن محي الدين يتمتع بحضور دائم في كل مكان، وبمستوى ثقافي عالٍ، لبقيت أسئلة كثيرة دون جـــواب. والحاصل أن عبد القادر كان يتساءل، بعد أن وجد في نفسه وعيا حديث العهد، كما يتساءل كل الأطفال اليقظين في مثل هذه

(7) Charles Henry CHURCHILL, op. cit., p. 47.

(8) البخاري، الصحيح، الباب 10، الفصل 36.

السن، "عن مستقبله، وعن المصير الذي ينتظره". وإن هذا الإحساس بالذات يندرج بصورة تامة ضمن التطور النفسي النادر للأطفال الأذكياء.

هذا، وإذا بثورة غضب عامّة تندلع في بايلك الغرب الجزائري، في حوالي سنة 1818. كان على هذه الثورة دعم عصيان الفلاحين في المغرب، ضد استبداد نظام الحكم. وتولّى بودريعه القيادة لدى بني زودامه، بينما تولّى الحاج محمد وعبد الله بن حوّى قيادة الجزائريين، ذوي الأصل الأندلسي، في تلمسان.

وما كان محي الدين، بطبيعة الحال، ليبقى في معزل عن هذا الأمر، وهو الممثل لقبيلة بني هاشم الشهيرة. بل كان يأمل، بفضل مساندته، في أن يجعل سلطة البايلك تفكر في العواقب، وفي أن يُسمِع إرادة الجزائريين للاستقلال. فانضوى إذاً تحت جناح المقاومة، بكل إيمانه، مستغلا تأثيره الديني، في محاولةٍ منه لتأليب قبائل الغرب الجزائري، في أول الأمر، ثم لتأسيس جيش جزائري محض يجابه الجيش التركي العسكراني الشرس.

وتمكن باي وهران، مع ذلك، من قمع تلك الانتفاضة، لبعض الوقت، بعد تلقيه الدعم من باي الجزائر. وأوقفت القبائل المتحالفة إطلاق النار، بعد أن تكبّدت خسائر كبيرة. وقد أورد أحد المحقّقين في التاريخ أن الباي حســـن، وفي ظروف أخرى خطيرة مثل هذه، "تجرّأ على التهجّم على العلمـــاء والأولياء الصالحين وسلالـــة الرســـول، وعلى الرعايا من غير المسلمين. وقد ظهر للعيان تعسّفه وطغيانه وقسوته. [...] وكان

يتصرّف تصرّف حاكم مستبدّ، متعجرف، ومتغطرس، حتى تزايدت قلاقله. وقد سفك دماء الناس، غير ما مرّة، ودونما أي سبب."(9)

وكتب محقّق آخر قائلا، بإجمال أكثر: "يجب أن نعرف أنه عندما تمكّنت سلطة الأتراك بقوّة في مدينة الجزائر، أصبح تعسفهم كبيرا، وغدرهم جسيما، وعنادهم في الشر عظيما، وكُثرت جرائمهم... وقد تناقلت الألسنة سرد هذه المفاسد على مرّ الأجيال، وسعى رجال العلم إلى تدوينها في كتاباتهم... وتضرّع السكان إلى الله بأن يضع حدا للشرور التي تسّاقط على رؤوسهم من جراء جور الأتراك."(10)

أما بالنسبة إلى محي الدين، فقد تعرّض هو كذلك للضرب من قِبَل جنود الباي، وأُلقي عليه القبض، وسُجن في دار العريش بوهران. وبشعوره إذّاك بأن حبسه سيطول، وهو منشغل بمصير تربية ابنه عبد القادر، قرّر أن يعهد به إلى صديقه أحمد بن طاهر، قاضي أرزيو (و نطقها الصحيح هو أَغزِيوْ)، المدينة المرفئية التي تقع شرقي وهران بحوالي الأربعين كيلومترا.

ويبدو أن محي الدين قد سُجن بالفعل مدة سنتين، في دار العريش، حيث تقرر إعدامه لولا التدخل المفاجئ لبدرة، زوجة الباي، هذه التي كانت تتصف بالورع الشديد، والتي كانت قد سمعت بشهرة محي الدين.

---

(9) M. BODIN, La Brève chronique du bey Hassan, BSGO, 1924, 1er trim. pp. 60-61 (نقلا عن: T. CHENNTOUF, Le Maghreb au ..., OPU, Alger, 2003, p. 91).
(10) ID., ibid.

أما فيما يخص أحمد بن طاهر، قاضي أرزيو، فإنه كان يشتهر بعلمه الغزير، وبمعرفته الواسعة بتطور أوروبا الغازية في مجال الأعمال، وفي حقل الأفكار الجديدة. والفعل، فإن هذا القاضي كان يقوم في أرزيو، المدينة الغنية جدا بالآثار القديمة وبمرفئها الشديد الأهمّية، بمعاملات تجارية عديدة، مُوثّقة، لها علاقة بتصدير الحبوب، وهذا بفضل مركزه في مجتمعٍ حيث سلطة المكانة هي الغالبة. وكان بذلك غالبا ما يجد نفسه في اتصال بتجارٍ أجانب كبار، استطاع أن يتعلم منهم الكثير عن الأعمال الأوروبية.

ولسوء الحظ، فإن أحمد بن طاهر، وليُعرف الأمر منذ هذه اللحظة، سيقوم، فيما بعد، بدور غير متوقَّع ومؤسف ضد الأمير عبد القادر. ففي الواقع، منذ بداية سنة 1833، لم يُرِد صهره، المسمّى المدني، الاعتراف بالأمير. وأفصح عن ذلك جهارا، وتفوّه بتهديدات خطيرة ضد شخص الأمير، وضد وحدة القبائل التي كان هذا الأخير يحاول تجسيدها. وقد عاقبه عبد القادر عقابا مرّا.

وفي شهر مارس من سنة 1833، قرر القاضي بن طاهر أن يثأر لصهره، وذلك بمهاجمته قبيلةً حليفة للأمير وهي الغرّابة، ولكنهم دحروه وسجنوه. وحاكمه محي الدين، وذلك في غياب ابنه الذي كان له إذّاك مشاغل في قبيلة أخرى حليفة هي قبيلة بني عامر، وحكم عليه بالإعدام.

وكان أمر أحمد بن طاهر، قاضي أرزيو، قد تأكّد من قَبْلُ، ودونما أدنى لبس، حيث أصبح منذ جانفي 1831 مموِّنا دائما بالمواد الغذائية لجنود الاحتلال الفرنسي في وهران.

5

مدرسة أرزيو و مدرسة وهران

اندهش قاضي أرزيو، أحمد بن طاهر، حينما اكتشف، منذ أول اتصال له بعبد القادر الشاب، ذكاءً وقادا يتمتّع به طفل في مثل هذه السن (حيث كان عمره حينئذ إحدى عشرة أو اثنتي عشرة سنة)، طفل يثير الاهتمام باستعداداته التي تُشجع معلّمه على المضي قُدُما في نوع التعليم الذي يريد أن يمنحه إياه.

وبدأ هذا الشيخ الهرم، آنئذ، في تعليمه مبادئ النحو الأولى وفق نحاة عديدين، من بينهم عليّ بن أبي طالب صاحب الإيعاز الشهير إلى أبي الأسود الدؤلي.(1)

(1) يقول الأمير عبد القادر:

وإن شئت نحوا، فانحنا تلق، ما له ::: غدا يذعن البصريّ، زهدا بما روى

ففي صدر البيت تلاعب بالألفاظ، يذكّر بالإيعاز الذي وجّهه عليّ بن أبي طالب لأبي الأسود الدؤليّ، وذلك في قوله: انح هذا النحو. (انظر: ممدوح حقّي، م.ن. ص 32 ؛
H. PÉRÈS, Les Poésies d'Abd-el-Kader…, op. cit., vers 18 et note 4, p. 27.)

وساعده على قراءة منظومات شعرية، وعلى دراسة العَروض بشواهد من أشعار ملحمية وغنائية. وقد تعلّق قلب التلميذ الصغير بها، ولعلّه لا ريب حفظ أبياتا لشعراء أعلام من أمثال ابن رشيق الحسن الذي ولد في المسيلة، وابن هانئ الذي عاش طويلا في هذه المدينة. ولقّنه معلّمه الرياضيات، وبخاصة الجبر حيث كان عبد القادر يبدو أكثر تألقا، والفَلَك والقوانين الفيزيائية والقضاء والفقه المالكي.[2]

ولقّن قاضي أرزيو التلميذ عبد القادر، بصبر وأناة وبطرق تربويّة، فلسفة أفلاطون (الذي كان من بين أهم مؤلفاته كتاب La philosophie de l'Islam 'فلسفة الإسلام')، والمنطق الأرسطي، وعلم اللاهوت والفلسفة الخاصّين بحجة الإسلام الإمام الغزالي في تربية الأولاد[3]، والفكـــر العربي والمغاربي بصورة عامة، وعالم الأعمال الأوروبي الذي كان يعرفه في أدقّ تفاصيله. ولهذا السبب، فإن معلّمه لم يهمـــل، فوق ذلك، تعليمه التاريخ والجغرافيا. بل إن هذا التعليم كان بالنسبة إلى عبد القادر وسيلة لاكتشاف أوطانٍ وشعوبٍ وثقافاتٍ وحضارات.

ودَرَس عبد القادر التاريخ، هذا الذي كان يأسره بوقائعه، عن طريق المسعودي الذي سافر كثيرا، وهو في السن العشرين، والذي كانت له معارف في كل فروع المعرفة تقريبا، وحتى في الفنون والموسيقى. وتعلّم

---

(2) نعرف أن الأميرَ، و هو المتصوّف، كان من أتباع المذهب المالكي كلّ حياته.

(3) Mohammed BEN CHENEB, Lettre sur l'éducation des enfants par Abou Hamed El-R'azzaly, in Revue Africaine, n° 45, Alger, 1901.

عبد القادر التاريخ أيضا عن طريق العلامة ابن خلدون، هذا الذي شغل وظائف متعدّدة، من بينها أنه كان مستشارا للسلطان عبد العزيز في تلمسان، منذ خمسة قرون خلت. وهذا ما أثار لدى هذا التلميذ الصغير الرغبةَ في أن يعرف عنه المزيد. ومن بين كتابات ابن خلدون التي أُعجب بها عبد القادر إعجابا كبيرا، و التي كان يحب أن يُفسَّر له معناها الفلسفي، هي تلك الكتابات ذات العلاقة بالميتافيزيقا، وبالفكر، وبالدين، وبالعلوم، وبقوانين التطور، وبالمجتمع، وبالتاريخ، وبالحضارة، وبقواعد النقد. كان هذا، دونما شك، كَمًّا معرفيا كبيرا يُعطى دفعة واحدة، ولكنه أرضى فكر عبد القادر الشاب. وهل كان سيرضيه القليل؟ لقد كان هذا الطفل، المبكِّر النضج والمتطلِّب للغاية، دائم الانشغال، تقريبا، كانشغال رجل راشد، بمعرفة ماضيه والإنجاز المُشرق لشعبه، وإنجاز الإنسانية.

وسيبرهن عبد القادر، بكل سهولة، عن هذا التعليم المُغذّى باستمرار، هذا العلم المُخزَّن، والمحفوظ بلا انقطاع، في دمشق التي كانت آخر مسكن له في الغربة وفي الحياة. ذكر شرشل في هذا الشأن ما يلي: "لقد أصبح عبد القادر محل اهتمام كبير بين العلماء وطبقات المثقفين. وكان أهـــلا لاحترامهم الكبير بفضل ثلاث خصال: كونه ينحدر من سلالة الرسول، وكونه من العلماء، وكونه زعيم حرب مقدّسة [...] وتفطّنوا بسرعة كبيرة إلى علوّ شأو علمه، وأظهروا إذاً رغبتهم في الاستفادة من دروسه. ودَعَوه أن يكون معلّما لهم [...] إن الأساس الأعظم في المناقشة هو القرآن والأحاديث، غير أن عبد القادر، وعلى

العكس من المعلمين العاديين الذين كان أكبر نشاطهم الفكري مُنصبّا في ملاحظات وتعليقات تمّ تكرارها كثيرا عن الكتب المقدّسة، أدهش تلامذته، وخلب ألبابهم باستشهادات مأخوذةٍ من كتب أفلاطون وأرسطو، وأحيانا من كتب مؤلفين غير معروفين كثيرا، ومختارةٍ من مكتبته الخاصة التي تعهّد بإعادة تكوينها أثناء إقامته في بروسّا."(4)

وفي الأخير، أتمّ القاضي أحمد بن طاهر التربية الفكرية لعبد القادر بتربية بدنية منهجيّة، في شكل تدريبات رياضية، وألعاب مهارةٍ تتطلّب الرشاقة والخفة والذكاء. وقد برع عبد القادر طبعا في الفروسية، وفي استعمال أسلحة الصيد وبعض أسلحة القتال. وكان والده بالتأكيد قد لقّنه، من قَبْلُ، دروسا في ركوب الخيل. وتمكّن عبد القادر بالفعل من اكتساب مهارة واعدة في ألعاب المسابقات، وهذا بفضل نصائح معلّمه أحمد بن طاهر، وبفضل التدريبات التي كان يقوم بها أمامه أو أمام مساعديه. ولم يستطع أحد من رفاقه الذين في سنّه، وحتى من الذين كانوا يكبرونــــه سنّا، أن يتغلّبوا عليه، مثلا، في سباق طويل المسافة، أو في صراعِ كوكبةٍ رائعة من الفرسان من أجل قضبان تُؤخذ نزعا من على الأرض.

ولكن، ألم يكن لهذه الألعاب "الساذجة" في مظهرها، والطبيعية بالنسبة إلى أي مراهق، بعض مظاهر التأثّر بالمعتقد – وبخاصة الديني– بطريقة غير مباشرة؟ ألم تكن هذه الألعاب، بفضل التدريب والمثابرة

(4) Charles Henry CHURCHILL, op. cit., p. 307.

والتحسين، حاسمةً في هذا النجاح الباهر الذي قد يعني الكثير بالنسبة إلى الآخرين، وليس بالنسبة إليه هو نفسه؟ لأنه هكذا، أو بسبب هذا، يولد الرجال العظام. فهم، يُشتمّ منهم في سن المراهقة، أو حتى في سن الطفولة، "رائحة الصالحين" المميَّزة، هذه التي يَستخفّ بها الكبار في الغالب، والتي بالإمكان اعتبارها، رغم كل هذا، وعدا بمستقبل زاهر.

وبما أن القاضي أحمد بن طاهر كان يعاني من صعوبات أكثر فأكثر، بسبب سنه المتقدّمة جدا، في مواصلة تكوين هذا الولد اليافع الذي يبلغ من العمر اثنتي عشرة سنة، و الذي يفيض نشاطا وحيوية، فقد أشار على محي الدين، بعد أن أُطلق سراحه من سجن دار العريش، بأن يرسل ولده إلى وهران لدى شخص -يُقال إنه "قريب" لهم- يُدعى حمدان بن عثمان خوجة. وإن هذا الرجل الغزير الثقافة، والعارف بعالَم الأعمال في أوروبا، بفضل ما قام به من أسفار، عرف كيف يُتِمّ تربية عبد القادر، الشاب الذي كان دائما مُفعما بطموح كبير، بغية السير في طريق الأمجاد، ونيل هذا الثناء الشعبي الكبير والشهير في حق "شجعان" القبيلة والقائل: "السيف دائما مسلول واليد دائما مبسوطة".

وفي انتظار الوقت المناسب للأخذ بنصيحة القاضي، أبقى محي الدين على ولده في الزاوية، وكافأه على دراسته الجيدة في مدرسة أرزيو. ويؤكد شرشل أن عبد القادر "كان، وهو في الثانية عشرة من عمره، 'طالبا' أي مفسّرا مُجازا للقرآن وللأحاديث (أحاديث الرسول محمد)،

وشارحا لتفاسير دينه الأكثر تقديرا."[5] وكانت هذه الوظيفة وظيفة هامة على المستوى الاجتماعي والديني، تنمّ عن طهارة خُلق الطالب وعن شجاعته وكرمه، وتُكسبه مراكز شرفٍ في القبيلة. وهي بالنسبة إلى عبد القادر، تُكسب مراكز شرفٍ في زاوية أبيه على وجه الخصوص.

كتب شرشل يقول أيضا: "وبعد عامين، تحصّل على لقب 'حافظ'، هذا اللقب المنشود بقوة، والمخصّص للذي يحفظ القرآن وأحكام تجويده عن ظهر قلب. وعُهد له، منذ ذلك الحين، قِسْم في الجامع العائلي، حيث كان يشرح المقاطع الأكثر صعوبة والأشد غموضا لدى مفسّري القرآن. وكان الهدف من طموحه الشبابي هو أن يصبح مرابطا عظيما، كما كان والده، هذا الأب الذي كان يُكنّ له حبا وإعجابا حماسيا يكاد يكون عبادة."[6]

ودخل عبد القادر سنه الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة. وإن المعلومات التي تركها لنا كُتّاب سيرته - أولئك الذين ادّعوا، مع ذلك، بأنهم كانوا يعرفونه حق المعرفة - ينقصها تفاصيل دقيقة عن أهمية بعض الوقائع ذات الصلة بتكوين شخصيته.

ولكننـــا، رغم ذلك، نعرف بأن عبد القادر عاش حياة مراهق متواضع وسويّ جدا. وزيادة على هذا، فإنه كان يعامل المتبجّحين بازدراء، مُطبِّقا المثل العربي الشهير القائل: "إذا قلت إن الأسد حمار،

(5) Charles Henry CHURCHILL, op. cit., p. 47.
(6) ID., ibid., pp. 47-48.

فاذهب إذًا وضع له رسنا." وكان يجتنب رفاق السوء، ويكره التبغ والمشروبات الكحولية و القمار.

وكان، من حيث البنية الجسدية، متوسط القامة وضامرا، و لكنه بالأحرى كان قويا. ثم إن الأمر الأساسي عند العرب ليس في المظهر. وقد أبدى أوجين دوماس، هذا الذي كان مهتما بنبل العرب، هذه الملاحظة الصائبة، في كتابه الذي ظهر سنة 1862 حيث قال: " فَهُم [العرب] يُعجَبون بنفس شديدة النشاط ولا يُعجَبون بالمظهر الخارجي لرَجُل عملاقٍ أو رياضي [...] فلا يهمهم كثيرا أن يكون المرء كبير الجسم أو صغيره. و إنّا لنسمعهم في غالب الأحيان، عندما يرون رجلا ضخما نتباهى به أمامهم، يردّدون عبارات تعجُّبية ذات صبغة حِكَمية قائلين: 'ماذا عساها أن تفعل لنا القامة! وماذا عساها أن تفعل لنا القوّة! فلننظر إلى القلب! لعل الذي أمامنا هو جلد أسد على ظهر بقرة!'."(7)

وفضلا عن هذا، فإن النضجَ الذي كان يميّز طبعه، و نظرتَه المشرقة (حيث كان -يقول بعضهم- أشهل العينين أي يخالط سوادهما زرقة)، كانا يوحيان إلى الكبار باحترامه، وإلى رفاقه بالإعجاب به. وهكذا، كان يغمره نشاط داخلي، سينمو ويقوى على الدّوام بفضل الأحداث الزمان.

---

(7) Eugène DAUMAS, Les Chevaux ..., op. cit., pp. 463-464.
(يذكر أ. دوماس، في الفصل التمهيدي من كتابه السالف الذكر قائلا:" كنت من 1835 إلى 1839، قنصلا لفرنسا في مدينة معسكر، قرب الأمير عبد القادر. ثم بعدها أصبحت مُكلفا بالأعمال في مقاطعة وهران، التي كان يحكمها آنذاك الجنرال دو لامورسيير. وفي الأخير، أصبحت مديرا للشؤون العربية في بلاد الجزائر، تحت حكم السيّد الماريشال دوق ديسلي (يعني، توماس بيجو)."

حينئذٍ، و بعد أن تأكد محي الدين من أن شخصية ولده كانت على مستوًى رفيع، انتهى بإرساله إلى المدرسة العمومية، المدرسة التي يديرها حمدان بن عثمان خوجة في وهران. وكانت هذه المدرسة تشتهر بنوعية التعليم العصري بها، حيث كانت تنتهج طريقة تشبه تلك التي كانت سائدة في فرنسا، في العصر نفسه، وكانت تُسمى méthode mutuelle أي المنهج التبادلي. وقوام هذه الطريقة أن يقدّم الأستاذ الدروس باستعمال السبورة في كل المواد (القرآن، الأحاديث، اللغة، الحساب، الجغرافيا،إلخ)، وأن يتأكّد المُمرِّنُ (أو المُعيد)، من بَعْدِه، من أن التلاميذ قد فهموا الدروس، وأنهم يتحسّنون في القراءة و الكتابة.

وكان يلتحق بهذه المدرسة أبناء المسؤولين الأتراك الكبار، وأبناء العائلات الجزائرية الثريّة فقط. وكان عبد القادر يذهب إلى هذه المدرسة بصُحبة أتباع والده الذين عيّنهم له. وكان يتلقّى هناك تعليما تحسينيا لكل الذي تعلّمه في مدرسة أرزيو، ولاسيما إجادة الحديث، وهذا مع توجيه أخصّ وأعمق نحو دراسة العلوم.

ومع ذلك، فإن أعظم تعليم تلقّاه أثناء إقامته بوهران هو، دونما شك، الاحتكاك بزملائه في القسم، وهم كلهم أبناء عائلات ثريّة كانت كلها تقريبا برجوازية وإقطاعية. وإن حسَّ الملاحظة لديه، وهو الآن أشدّ تمرّسا، وذكاءَه الذي أصبح أشدّ حدة، جعلاه يكتشف، أثناء زياراته لأرجاء المدينة، الفروق الكائنة بين الطبقات الاجتماعية، والإذلال الدائم الذي كان عليه أبناء الفقراء أو أولئك الذين ترفض عائلاتهم الرضوخ إلى القوانين الجائرة (أشباه القوانين!) لإدارة الباي.

وكان عبد القادر، بجعله هذا الواقع جزءًا منه، يسائل المظلومين، ونفسُه يتملّكها الحزن الشديد. وبدأ ينمو في نفسه شعور مجهول وغامض بالثورة. وكان إشعاع القوّة الشديدة التي بداخله ينعكس حتى على صفحة وجهه، الأحمر الأرجواني طورا، والشاحب طورا آخر. يا لتعاسة البلاد! يجب أن يكون هناك شجاعة ونكران للذات عظيمين حتى تتم مواجهة الوضع الإقطاعي الذي يتخبط فيه المجتمع الجزائري، وتتم مواجهة الطغاة من ميليشيات الأوجاق الذين هم "بؤرة" طبقة الجنود الأتراك المغلقة، وتتم مواجهة الوصوليين و محاسيب السلطة و هم مجموعة من القبائل ذات الامتيازات والتي تشكّل المخزن. كان هؤلاء كلهم يعيشون حياة رخاء ويضاعفون من ابتزازاتهم وحيلهم الدنيئة من أجل إشباع شهواتهم وحماية امتيازاتهم!

كان عبد القادر يشاهد يوميا، وفي صدره سخط مكتوم تُمليه عليه تربيته، موقفَ بعض خُدّام الباي الذين لا يعرف الحياء إليهم سبيلا، يُروِّضُون ضد إخوانهم من أجل بعض الامتيازات الدنيئة. أما الباي، وهو على رأس كل هؤلاء، فما كان يرغب أبدا في التقرّب من الشعب. هذا الذي كان يحتقره، ويستغلّه بصورة شنيعة، كي ينال رضا سيّده ومولاه، داي الجزائر، الذي كان بمقدوره أن يمنحه، بهذه الطريقة، المبلغ الجزافي المتّفق عليه، والمتمثّل في الضرائب المقدّمَة عادةً، أي أقصى ما يقدر عليه من نفقات، حتى يحافظ على منصبه.

وكـــان هذا معروفا تمام المعرفة، طبعا، لدى الضحايا المعذّبين الخاضعين للضـــرائب، وهم الرعيّة. ومن المؤكّد أنه ما كان ليخفى على

عبد القادر كذلك بأن باي وهران، وباي التيطري، وباي قسنطينة "كانوا يأتون جميعهم، كل عام، إلى الجزائر، يقضون أسبوعا كي يحضُرُوا، كل صباح، الجلسة التي يعقدها الداي. وكانوا يُحْضِرون معهم هدايا لمختلف الوزراء أثناء زياراتهم. وكانوا كذلك يُعطون الخزناجي هدايا رائعة. وكانت هباتهم تصل حتى إلى نساء الداي، ونساء الوزراء ونساء الضباط الكبار [...] وكان الباي يدفع إلى الداي مبلغا سنويا مقداره 165.772 فرنكا، وكان يجلب معه الشّهد والعسل والزبدة والأرزّ وحزامات مذهَّبة وبرانس وحللا عديدة."[8] وكان الداي يعطي الباي، مقابل ذلك، قفطانا، تلك الحلّة المشتهاة، رمز السلطة الممنوحة له، والتي تتوقّف مدّتها على نزوة عابرة من السيد المولى.

وكانت الفروق بين الطبقات تثير استنكار عبد القادر، إذ كان يعرف أن في المدن طبقة تتوهّج ثراءً، وتفوح منها رائحة الفجور. أما في الأرياف، فكان مُلاك العقارات يحرمون الفلاحين من حقوقهم. ولكنه، مع ذلك، كان يعرف بأنه في تلك المدن نفسها، وبخاصة في تلمسان، كان القسم الأعظم من السكان يحافظ على الإرث العربي- الأندلسي التليد، سالمًا مصونًا، من أجل إيصاله إلى الأجيال القادمة. وكان يعرف أن في الدواوير النائية قلّةً من الناس، قِلّة قليلة و لكنها عنيدة، كانت تحافظ على نقاوة الأخلاق، وتحمي أصالة القيم التي تربط الناس بأراضيهم، وهي في معارضة متواصلة للمحتل وخدّامه.

(8) P. EUDEL, Aperçu historique de l'Orfèvrerie algérienne, in Revue africaine, n° 45, Alger, 1901.

ولعل عبد القادر كان يرى، دونما شك، أنه رغم كل هذا، بقي هنالك شيء حي هو كرامة الشعب التي لم تتنازل عن شيء لصالح آماله. وكان كل عمل جائر، وكل إزعاج، وكل ابتزاز، يزيد في إذكاء عزمه على خلق ظروف حياةٍ أصيلة كان يتطلّع إليها أكثر فأكثر، ولو ألجأه هذا إلى حمل السلاح.

وكان لمصائب وهران، حيث انتقل عبد القادر للدراسة، وقع عنيف جدا في أعماق ذاته. وهران، هذه المدينة التي تمتزج فيها البناءات الإسبانية والعربية "المنهارة جزئيا"، بسبب صروف التاريخ، هذه المدينة التي أفقرها الزيادات المجحفة في الضرائب لفائدة البايلك، و أفقرها تصرفات ميليشيات الأوجاق السيئة والخطيرة مع السكان الأصليين المحرومين. هذه المدينة التعيسة، أثارت في نفسه شعورا بالقلق، وهو المراهق المتأثر بالعدل وبالاستقامة. وكان هناك أيضا الكثير من الإغراءات المنافية لتربيته ولمعتقده الديني، تزعزع السلام الذي يكتنف نفسه التي كانت قيد التكوين.

كتب بول آزان، عن فترة إقامة عبد القادر بهذه المدينة التي تقع في الغرب الجزائري، التعليق التالي: "إن المشهد الذي كان عبد القادر الشاب يراه بأم عينه في وهران صدم شعوره. فجنود الباي كانوا يغالون في التجاوزات، وسكان المدينة من الحَضَر كانوا يجهلون مبادئ القرآن، وكان المسيطرون الأتراك يعاملون العرب باحتقار. وكان الفارق مهولا بين المدينـــة الكبيرة المُلحدة المستخِفّة [...] وقطنة وادي الحَمَّام حيث اعتاد على نقاوة الأخـــلاق، وعلى حياة تتسم بالبساطة والورع. [وهذا ما

يُفسِّر، حسب الكاتب،] سبب الكراهية المقيتة التي أَكَنَّها للأتراك منذ ذلك الوقت. هؤلاء الأتراك الذين يعتبرهم كأعداء لله، ومضطَهِدي بني عرقه في الوقت نفسه."[9]

ومن هذا يظهر سبب حقد الباشا التركي على عبد القادر عند وصوله إلى مدينة بروسّا.

وبعد حوالي عام من الدراسة، لم يستطع عبد القادر تحمّل مشاهد كهذه، بل شعر فيها بالتقزّز، وترجّى أباه أن يأذن له بمغادرة وهران، وبالعودة إلى جانبه في القطنة.

وكان كذلك قد مضى على محي الدين زمن طويل لم ير فيه ولده، و لم يعرف بالتدقيق إلى أين وصل تكوينه، فأذن له إذاً بالعودة إلى زاويته في وادي الحَمَّام.

وتقدّم منه ولده، وقد كبر، ولكن وجهه المُشرق بعينين كبيرتين كان شاحبا. وتفحّصه والده طويلا، وهو يشعر بسعادة في أعماقه لأنه اكتشف في نظرة هذا المراهق نضجا نفسيا لم يكن يتجرّأ على تمنّيه من قبل. هذا النضج النفسي الذي لم يضعفه بُعده عن عائلته، وبخاصة عن والدته. وهذه القامة الممدودة الشامخة، حتى وإن كانت متوسِّطة، كانت توحي، قَبْلا، بإرادة خارقة في أن تضم بين جوانحها شخصية قوية وجاهزة.

(9) Paul AZAN, L'Émir Abdelkader (1808-1883). Op. cit., pp. 199-200, passim.

أما عبد القادر فقد كان مسرورا بالعودة إلى دفء العائلة حيث هناك أب يكفل له الرعاية التامة، وحياة آمنة مُسطَّرة للدراسة و للورع، و أخيرا هناك رقّة المصدر الأصلي "لطموحه الشبابي".

ولكن، أهذا فعلا ما كان يرغب فيه هذا الولد اليافع ذو الخمسة عشر أو الستة عشر ربيعا؟

6

الدين و الوطن

عاش عبد القادر، منذ عودته من وهران، دونما انقطاع، مع والده الذي أتمّ منحه التكوين الذي يجعل منه رجلا مُشبَعا بالقيم الأكثر إشعاعا بالحياة في تاريخ وطنه، رغم انحطاط القرون، و المصائب الحاليّة.

وكان على عبد القادر أن يعرف كل شيء تقريبا عن الحياة، وعن الناس. كان يتعلّم من ماضيه كيف يستخلص العبر وصور المجد حتى يتفهّم أكثر المطالب السياسية والاجتماعية للطبقات الشعبية، وحتى يدرك كنه هذا الاستنكار العام والشرعي الذي كان يثير غليان طبقة الفلاحين على وجه الخصوص، هنا وهناك في البايلك.

وكانت مواضيع النقاش في القبيلة لا تعدّ ولا تحصى. وكان يتمّ التطرّق إليها دائما في زاوية محي الدين، وبخاصة منها تلك التي كانت محل اهتمام جمهور عريض من الأتباع. ولأجل هذا، عادةً ما كانت الأحاديث وحتى الاجتماعات تجري بين صلاتي المغرب والعشاء. وكانت تمتد، في أغلب الأحيان، إلى أوقات متأخرة من الليل حيث كان الأتباع يشكّلون

حلقةً مستمعين إلى الخطيب المتطوّع ساعتَها والمنتمي إلى نخبة القبيلة أو إلى مرتادي الزاوية من القدامى.

ولكن كان لعبد القادر مع والده، أو بعض أصدقاء والده، محاورات في مواضيع مختلفة جدا تمسّ واقع الحال في العمق. وكانت نظرة كل متدخّل تتلقّى الاستحسان، ولم يكن أي أحد منهم يحرم نفسه، إذا ما أحس بالحاجة إلى ذلك، من حق متّفَق عليه ضمنيا وهو مناقشةُ قيمةِ ما قيل من كلام، بكل حريّة. ويمكننا أن نتصوّر هذه المجموعات الصغيرة من الأصدقاء، في مكان بعيد عن الأنظار، (أو هو بالأحرى مكان سريّ)، مجتمعين معا، مثل مجموعة مقاومين وطنيين سرّيين خلال الأعوام القاسية التي تمّ فيها التحضير لاندلاع الثورة المسلّحة (1954-1962)...

أما في الوقت الحالي، فإن مدار الحديث بين محي الدين وأتباعه هو اختلالات عصرهم، و التصرفات السيئة لإدارة البايلك الفاسدة وضباطها المرتشين، والخلافات التي أَحدثت بين القبائل أزمات عنيفة ومعقّدة، ووضع الحياة البائسة، حياة الرعية أي عامة الناس الذين هم دون نصير. وكانوا، بغيةَ دعم تدخّلاتهم بأمثلة محسوسة أو توسيع مجال أفكارهم، يغورون عميقا في أزمة الجزائر عبر التاريخ كي يُذكِّر بعضهم بعضا بالمعارك البطولية التي قادها سكانٌ ثائرون ومُوحَّدون من كل العصور، وكي يشرحوا أو يفسّروا التنظيم المُعدّ والوسائل المبتكَرة والمستعمَلة لصدّ الاعتداءات الكثيرة ومحاولات السيطرة من قِبَل الدول الإمبريالية القوية في أوروبا.

وفي خضمّ المناقشات الحماسية المحتدمة والمعزّزة بحجج دامغة، كان مفهوم "الوطن" يطفو على الألسنة نابعًا، في بعض الأحيان، من صميم القلب. وإن هذا المفهوم لم يكن بالطبع يعبّر عن مضمونه تعبيرا كاملا. هذا المضمون الذي ستكشف عنه في المستقبل المقاوماتُ الشعبية المعاصرة في وجه الغازي الأجنبي. ومع ذلك، فإنه كان في قلب كل فرد شيء ما، ينمو داخل دفق الحياة، مع دقات القلوب، والذي بقي شعورا قويا، مثل الأمل، رغم كونه شعورا مبهما لا يُدرك كنهُه.

وكان محي الدين، غير ما مرّة، يجد نفسه، فجأةً، وهو يشرح لولده ضرورة الكفاح من أجل التحرّر من نير الأتراك. وكان هذا الكفاح يتجسّد في الفكرة التي تكونت لديه عن الوضعية العامة للوطن حيث كان، من جهة، يرى الإقطاعيين الأتراك عائشين عيشة غزاة على أرض الجزائر، مُثقِلين كاهل الشعب بالضرائب، ومُشبعِينه أعمالا جائرة. وكان، من جهة أخرى، يرى بعض "جماعات" المخزن زارِعةً اليأس في النفوس، وواضعةً الناس المساكين أمام خيارين: إما الخضوع للباي دونما أيّ شرط، أو العيش في الخفاء.

وفضلا عن ذلك، فإن هذه المأساة المتواصلة منذ ثلاثة قرون تمّت حياكتها من قِبَل أوروبا الإقطاعيين و البرجوازيين، هذه التي لم تكن تعرف الإتحاد إلا في سبيل الاستئثار، بطريقةٍ مخادِعة، بإمبراطوريات في شتى أصقاع العالم، وذلك بسفكها دماء السكان الثائرين، وباقتيالها من عرق السكان المستعبَدين.

إن مفهوم الوطن سيتحوّل تدريجيا إلى مفهوم "القومية". وسيبرز هذا المفهوم، أخيرا، في لغة الأمير الحربية، "وهو المسلم المقتنع، الواضع دينه ببراعة في خدمة أهدافه الطموحة"[1]، عندما ينادي، من أجلها، لجهاد الحملة العسكرية الفرنسية التي غزت بلاده.

ففي سنة 1835، عندما توجّه بالحديث إلى موسى بن عليّ الحسين، شيخ قبيلة درقاوة، قبل أن يدمِّر حَرْكَته أي جماعاته المسلَّحة، كان عبد القادر دقيقا في كلامه، حسب ما ذكر عنه ابنه الأكبر محمد في كتابه الذي كرّسه لديوان والده، حيث قال: "لقد حباه الله بالسلطة لكي يدافع عن الدين والوطن ويحميهما."[2] وفي هذا الكتاب، يؤكّد ولده كذلك بأن الأمير كان، فيما بعد، ينادي السكان إلى الجهاد، الجهاد بمعناه الشامل للدفاع عن الدين والوطن. ولعل مفهوم "الوطن" هذا مستوحًى مباشرة (زمان تنظيم الأمير للمقاومة) من مفهوم "الوطن" بمعنى "أرض" أو "إقليم"، والمقصود منها عند البايلك هو "عدد معيّن من المقاطعات الإقليمية، أي الأوطان المشكَّلة غالبا من عدّة قبائل."[3]

تلك إذاً كانت الأوقات التي يحبها عبد القادر. فتارة يجثو على ركبتيه ويجلس على ظهر قدميه، وتارة أخرى ينصب رجله اليمنى ويجلس على

(1) Georges YVER, L'Afrique du Nord française, in L'Afrique du Nord française dans l'Histoire, ed. Archat, Lyons-Paris, 1937 et 1955, p. 242.

(2) محمد بن عبد القادر، تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر، الإسكندرية، 1903. انظر أيضا: ممدوح حقي، م. ن.

(3) Charles-André JULIEN, op. cit., t I, p. 4.

اليسرى (وهي وضعية جلوس من السنة)[4] مُصغيًا إلى والده بذهن حادّ، ودونما كلل، منتظرًا اليوم الذي يتمكن فيه، هو كذلك، من الإسهام في المقاومة من أجل الوطن. وهذا ما حدا بنقيبٍ فرنسي من الغازين أن يكتب سنة 1845 ما يلي: "كان عبد القادر، قبل سنتي 1837 و 1842، يكافح من أجل تشكيل قومية عربية، وإقامة سلطة ذات سيادة. أما اليوم [...] فإنه لا ينازعنا في هذه السلطة الآنية فقط، بل إنه لا يرغب في أن تبقى السرائر والاعتقادات تحت تأثير سلطة مسيحية."[5]

ومنذ عهد غير بعيد منا، كتب جيلبير مينيي Gilbert Meynier، في دراسته لمفهوم 'الوطن patrie' مقارنة بمفهوم 'الأمّة nation'، وهذا في إطار المقاومة الجزائرية (1954-1962)، قائلا: "إن فرض إطار استعماري، فريدٍ وصارم، أدّى إلى تكوين فكرة الحدود الإقليمية، هذه الفكرة التي اشتركت تدريجيا مع فكرة وطنٍ موسّع [...] ففي الجزائر، تُعَدّ "الجزائر" كل ما ليس المغرب الأقصى، وكل ما ليس تونس. و قد تحدث الأمير عبد القادر، في رسالة شهيرة له إلى علماء فاس، عن وطن الجزائر."[6]

ومع مرور السنين، أصبح اسم "عبد القادر بن سيدي محي الدين من زاوية القادرية" اسما معروفا في المقاطعة، وبدأ الرأي العام يُعجَب بالخصال

---

(4) أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، ج 2، العادات، القاهرة، د.ت.

(5) De NEVEU, Les Khouans. Les ordres religieux chez les musulmans, 2e éd., 1846.

(6) Gilbert MEYNIER, Histoire intérieure du FLN, 1954-1962, rééd., Casbah-éditions, Alger, 2003, p. 243. انظرْ أيضا:
J. BERQUE, Maghreb, histoire et société, Duculot-SNED, 1974, pp. 65-81.

الروحية الحميدة لهذا الشاب الذي كان مولعا أيضا بالعدالة الاجتماعية، وبالحرية، وكان يعرف كيف يميّز بين "المظهر الخارجي والواقع".

وكان عبد القادر يتمتّع فعلا بروح نشطة وواقعية، وبموقف منتقد حيـال كل معرفة. واتّخذ غايةً، لم يحد عن السعي وراءها أبدا، وهي معرفة الواقـع، وهذا حتى يتسنّى له أن يكون مُنصفا ومتسامحا. وهكذا، كـان له مبدأٌ، يتجلّى من موقفـه وتفكيره، وهو تطبيق القوانين الأساسية للتصوّف الحقيقي الذي انضوى تحت رايته عن طريق دراسته لكتب "البسطاء والباحثين عن الله". ومن بين هؤلاء، يجب أن لا نسهو عن ذكر الغزالي "المتصوّف المفعم بالرشاد" والذي كتب قائلا: "فمن استقام مع الله، وعاش بين الناس بسلام، وعاملهم برأفة، فذاك هو الصوفي حقا."[7]

ولم يكن عبد القادر ليبقى بارد العاطفة تجاه هذا الشكل من التصوف الذائع الانتشار في كلّ الشمال الأفريقي. وإن مبدأ فلسفة الغزالي يرتكز أساسا على "البحث عن اليقين وعن الحقيقة"، ويتوجّه بالضبط إلى "المُريد" الذي باستطاعة عبد القادر أن يكونه. وهذا المبدأ الفلسفي مُجمّع في الكُتيِّب الشهير "أيها الولد". وعُبِّر الغزالي عن هذا المبدأ بكلام فيه حكمة تربوية متوجّهة إلى "المُريد" يقول فيها: "أيها الولد، العلم بلا عمل جنون، والعمل بغير علم لا يكون."[8]

---

(7) الغزالي، م.ن.

(8) أبو حامد الغزالي، أيها الولد، بيروت، 1959، ص 18.

وبدأ الناس يعتادون، شيئا فشيئا، على رؤية عبد القادر بجانب والده، أثناء المناقشات السياسية والدينية والتبادلات الثقافية. بل وكانوا في بعض الأحيان يفضّلون أن يكونوا على صلة به، هو نفسه، بدلا من "محي الدين، شيخ الزاوية". والسبب في ذلك، كما تقول ماري دير Marie d'Aire (المولودة: بواسوني Boissonnet)، هو أن "عبد القادر الذي يتمتّع برجاحة عقل غير مألوفة، وبنظرة واثقة و سريعة، يُبدي بُعد نظر غير عادي سواءً في نظراته الفلسفية، أو في تأمّلاته العامة عن العلم."(9)

وإن هذا التطوّر الفكري الرائع لعبد القادر، فضلا عن خصاله الأخرى التي كانت تُنبئ بعبقريته الشخصية، كان يُظهر، بطريقة قاطعة، بأن أخويه محمد سعيد (الأخ الأكبر) ومصطفى (الأخ الثاني) "لم يكن لهما معه أي تشابه في الطبع. فعلي الرغم من أن محمد سعيد كان يتّسم بأخلاق بسيطة، وبتعليم متين جدا، وبقلب طيب، إلا أنه كان يقابل الناس ببرودة، وكان هادئ الطبع متحفّظا. أما مصطفى، فقد كان على النقيض تماما من أخويه، وعلى جميع الأصعدة."(10)

---

(9) Marie d'AIRE, née BOISSONNET, Abd el Kader, quelques documents nouveaux lus et approuvés par l'Officier en mission auprès de l'Émir, imp. Yver & Tellier, Amiens, 1900.

(كان البارون ل. بواسوني L. Boissonnet ، وهو برتبة قائد سرية مشاة، القائد الأعلى لقصر أمبواز، في فرنسا، حيث كان الأمير أسيرا.)

(10) A. de LACROIX, op. cit., passim.

7

"... واتخذ من السرج عرشا"

اكتشف عبد القادر، من جهة أخرى، في الفروسية النشاط الرياضي الحسن. وكان يمارسها كهواية لها علاقة بالمرح واللّعب، وهذا مع تمكّنه من أن يستوفي شروط هذا المطلب ذي الصلة بالمكانة الاجتماعية، والذي يُتقيّد به تقيّدا دقيقا في الزاوية وفي المنطقة حيث كان الناس ينادون قائلين: "في هذا العالم، يبدأ الشرف بالرِكاب لينتهي بالسرج." وهكذا، تمكّن من التوفيق بين "الشّرفَين": شرف الدين الذي يُجسّده المرابط ذو الوعي الروحي الكبير، وشرف السيف الذي يُجسّده الجَيّاد، النبيل، المقدام، الذي تكمن قوّته القتالية في ساعده - ويُقال له 'بن ذراعو' أي "ابن ذراعه'- وفي شجاعته، هذه الخصلة التي هي في أعمق أعماقه.

وفيما يلي مقطع طويل، ولكنه يوسّع معارفنا، كَتَبه شرشل عن هذا الموضـــوع حيث قال: "وتميّز هذا الشاب عن رفاقه، وهو في السابعة عشرة من عمره، بقوّته ورشاقته. وكان جســـده المتناسق تمام التناسق وهيئته الأنيقـــة - حيث كانت قامته حوالي خمسة أقدام وستة بوصات

[حوالي 1 متر و68]- وبنيته القويّة وصدره العريض والعميق، كانت هذه كلها تشهد بأن هذا الصرح مرصودٌ لنشاط صاحبُه لا يَملّ، وبمقدوره تحمّل أقصى التعب.

ولم يكن له نظير في الفروسية، حيث إنه لم يكن فارسا مفعما بالرشاقة فقط، بل كان محل إعجاب كل الذين يعرفونه، بسبب تحكّمه المذهل في أعمال الفروسية الباهرة التي تتطلب النظرة الثاقبة، واليد الشديدة، والاستهلاك العظيم للطاقة العضلية. وهكذا، كان يقوم بألعاب الفروسية، مُمسكًا الزمام بيدٍ واحدة، ومرتكزًا على كَفَل الحصان، وملامسًا كتفه بصدره. وكان كذلك يجعل حصانه يركض بسرعة ثم يستلّ رجليه من الرِّكاب، وينتصب واقفا على السرج، ويطلق النار على هدفه بدقّة متناهية. وكان [حصانه] العربي المدرّب جيدا، وبلمسة دقيقة وماهرة تصدر عنه، ينثني على ركبتيه أو يقوم بالإقعاء، حيث يقف على قائمتيه الخلفيتين ويرفع قائمتيه الأماميتين في الهواء، أو يقوم بقفزة يجعل فيها قائمتيه الخلفيتين تحت بطنه، أو يقوم بشقلبة. وكان يثب ويقفز كالغزال.

ولكن هذا الشاب تألق نجمه في ميدان السباق تألقا كبيرا. وكانت هذه الأُلهوّة المثيرة للعاطفة والاهتمام رياضتَه المفضّلة. هذه الأُلهوّة التي تمارسها طبقة النبلاء في الجزائر، بحماسة لا يفوقها أبدا هواة سباق الخيل عندنا الأكثر حماسة [الكاتب عقيد إنجليزي]. وكان يستقطب أنظار كل المشاهدين، وهو على صهوة فرس سباق شديد السواد - (هذا اللون

المفضّل لديه، على وجه الخصوص، لأنه عادةً ما يُصاحب في الحصان خصالا حميدة تتعلّق بالفروسية، ولأنه يُظهر بياض برنسه إظهارا كبيرا)-.

كان لباسه بسيطا للغاية. وكانت أسلحته فقط هي التي تُظهر شيئا من الترف، حيث كانت بندقيته التونسية الطويلة مرصّعة بالفضة، ومسدساته مرصّعة بالصَدف والمرجان، وغمد سيفه الدّمشقي من فضة منقوشة. وكانت هذه العُدّة الرائعة - بالإضافة إلى مواهب عدّة منحته الطبيعة إيّاها- تُضفي على شخصه سحرا يصعب التعبير عنه.

كان جهه، وهو من النوع التقليدي الأشدّ صفاءً، فاتنا للغاية، بجمال مُعبّر يكاد يكون أنثويا. فأنفه - ذو الحجم المتوسط والمرسوم بدقّة - كان مزيجا رائعا بين النمط الإغريقي والنمط الروماني. وشفتاه المنحوتتان بمهارة، والمُسترقّتان قليلا، كانتا تنمان، في الوقت نفسه، عن تحفظ مفعم بالشرف، وعن حزم شديد في الطبع. وتحت جبينه العريض الأبيض كالرخام، كانت عيناه الكبيرتان والمتألقتان، ذات اللون الرمادي المُحْمَرّ، تشعّان بعذوبة تطبعها الكآبة، أو تَبرُقان، في بعض الأحيان، بألق الذكاء والعبقريّة.

وعندما ينطلق السباق، فإن هيئته بكاملها، وحركاته جميعها، تشهد له برباطة جأش عالية، وبتحكّم شديد في النفس. وكان يتعدّى خط الوصول وحده، في أغلب الأحيان، متجاوزا منافسيه الكثيرين، وهذا وسط هتافات تشجيع وتصفيقات وصيحات متحمّسة لمئات الأصوات النسائية المُطلِقة للزغاريد، هذه الأصوات الحادّة الثاقبة المعبّرة عن الفرح

والترحيب لدى العرب، والّتي تَعرف جيّدا كيف تثير قلوب المحاربين المنتصرين.

وهكذا، وفي فترات أخرى من حياته، حين شن غارات عجيبة أذهلت أعداءه وحيّرهم، مُمضيا أسابيع عديدة دون أن ينام في مترل، أو دون أن يضع سيفه جانبا، قيل عنه، وهو أهل لذاك، بأن 'اتخذ من السرج عرشا'."[1]

ولترد على هذا ما كان يذكره الناس عن الأمير عندما جعل من معسكر[2] عاصمة للجزائر المكافحة سنة 1832، وهم يعدّدون بفخر مواهب الفارس الكامل الذي كانه، وهذا في قولهم: "عبد القادر، وما أدراك ما عبد القادر! هو قادر على أن يشبك مهمازيه على حَقَوَي حصانه!". وكُتب عنه أيضا أنه "كان الأفضل من بين أوائل الفرسان في العالم."[3]

وقد عرض الجنرال أوجين دوماس، على وجه خاص ومفصّل في كتابه: Les Chevaux du Sahara et les mœurs du désert أي، 'أحصنة الصحراء وطِباع البيداء'، هذا الحب وهذه المعرفة العميقة بالحصان، اللتين أقرّ بهما كل الناس لعبد القادر. ففي هذا الكتاب، يعيد

---

(1) Charles Henry CHURCHILL, op. cit., pp. 48-49.

(2) يَرُدّ ج. بيشون، في كتابه السالف الذكر، أصل كلمة 'معسكر' إلى لفظتين تمّ مزجهما وتركيبها، وهما: أم + العسكر.' والواقع أن أصل الكلمة يعود إلى لفظة 'مُعسكر' التي تعني المكان الذي يعسكر به الجنود. وللإشارة ، فإن الباي محمد الكبير جعل من معسكر عاصمة للغرب من سنة 1704 إلى سنة 1792، وذلك قبل أن ينتقل للسكن بوهران (التي كانت محتلةً من قبَل الأسبان).

(3) Marie d'AIRE, op. cit., passim.

المؤلف نشر رسالة أرسلها له الأمير، من دمشق، ومؤرّخة في نهاية شهر أوت من سنة 1857، ردّا على أسئلة كان المؤلف قد طرحها عليه عن أصل الخيول العربية. وقد ختم الجنرال الفرنسي - ولنلاحظ الدقّة في أسلوبه وفي حُكمه - بما يلي: "عند قراءتنا هذه الوثيقة العجيبة، بإمكاننا، يقيناً، أن نلحظ هذه المجموعة الطريفة من الأحداث الأسطورية، والمفاهيم ذات الصلة بالعلوم الطبيعية، صحيحةً في موضع، و خرافيةً في موضع آخر، على طريقة بلينُس [الأكبر] وأرسطو، والكل تحت سطوة أفكار دينية. إنه التاريخ كما يكتبه أهل المشرق، ومعهم عرب المغرب. إذ إن هؤلاء وأولئك، الموضوعِين إلى حد الآن خارج قانون التطور، و خارج الحركة الفكرية التي تتمّ في أوروبا، بالحبس الإرادي أو القسري، مازالوا -فيما يخص حقل العلوم والآداب- قابعين في المكان الذي تركهم فيه آباؤهم البغداديون أو الغرناطيون.

والحال أنّ الشيء المُلفت للنظر، هو أنه كلما كان العربي عالِما، كانت الصفحات التي يكتبُ موسومةً بهذه الغرابة التي هي في حاجة، بالنسبة إلى قارئٍ معتادٍ على وضوح طريقتنا الأوروبية، إلى أن تُستفرَغ من هذا الغموض الشعري، وأن تُفسَّر حتى تسمو إلى دقّة وثيقة لها قيمة تاريخية أو علمية، بالمعنى الذي نعطيه لهذه الكلمات."[4]

وفي هذا الكتاب نفسه، سجّل دوماس لدى العرب مجموعة من الأمثال "توجِب على المسلمين حُب الحصان كأنه فريضة دينية... وتميل

(4) Eugène DAUMAS, op. cit., pp. 17-18.

كلها إلى هدف واحد ألا وهو مماثلة الرجل بحصانه." وهذه الحالة تنطبق تماما على حالة عبد القادر، كما رأينا آنفا.

وعن هذه الأمثال الفريدة التي يردّدها العرب، فلنحفظ هذا المثل الذي هو، في رأينا، من بين الأمثال الأكثر جمالا والأشدّ إثارة للدهشة، والذي يقول: "الحصان يصلّي ثلاث مرات في اليوم. ففي الصباح يقول: 'يا رب! اجعلني عزيزا على سيّدي'. وفي منتصف النهار يقول: 'أحسِن إلى سيّدي كي يُحسِن إليّ'. و في المساء يقول: 'اجعله يفوز بالجنة، وهو على صهوتي'."

والأمر هنا يتعلّق بحصان القتال، "شارب الهواء بن شارب الهواء". فالقُدرة التنفسيّة مهمة في سباق طويل المسافة. ولهذا السبب يجب أن تكون مناخير الحصان عريضة، مثلما أوضح الأمير ذلك للجنرال دوماس في قوله: "فمنخاراه كلاهما يشبهان عرين الأسد، والريح تخرج منهما عندما يكون في حالة لَهَث." وقيل إن هذه السلالة من الأحصنة خُلقت "مع الريح، رمز السرعة"، وإن حصان السباق الذي نتج عنهما يكون "في المعارك، الأولَ في الهجوم على العدوّ؛ و بعد النصر، الأولَ في الغارة؛ وفي حالة الهزيمة، الأولَ في مأمن من الخطر."

وقام كاتب سيرة آخر من المتأخّرين بإعداد قائمة يرصد فيها بإعجابِ خبيرٍ مُطّلِع "مناقب فترة شباب" عبد القادر، وهو تعداد لا يدّعي صاحبه بأنه شامل حيث قال، وبالحرف الواحد: "لم يكن أحد يعرف أفضل منه كيف يختار بثقة تامة المرعى الصالح، ولا كيف يعيّن المساحة التي يجب أن تزرع، ولا مناقشة سعر الأنعام أو الصوف أو

البذور. و لم يكن أحد يعرف أفضل منه إلى أي حدّ يجب أن تُحمّل البغال أو الجِمال، ولا أي المراحل التي يمكنهم القيام بها دون إحداث ضرر. و لم يكن أحد يبدو أفضل معرفةً منه بالدروب، والمسالك المختصَرة، والشعاب، ومنابع المياه... و لم يكن ليُوجَد في الإقليم كله فارس أشدّ جسارة، ولا صياد أشد براعة، ولا رامٍ أشد مهارة منه. كان يحب الخيول المضطرمة نشاطًا، والسروج الفاخرة، والأسلحة الجميلة، وهي في قبضة يده، والصقور ذات السرعة الخاطفة، والكلاب السلوقيّة التي تلاعب الأرانب البرية في السباق المحتدم، أو تلك التي تعدو عدوا جهنميا على خطى الغزال. و كانت تروق له الجولات الخاطفة، و التنزهات في الأماكن النائية، و ألعاب الفروسية. كما كان يروق له البقاء طويلا في مكامن الصيد القارّة، تحت ضوء النجوم، من صلاة العصر إلى صلاة الفجر. وكان الذين هم أقل منه يعجبون به، وكان أنداده يحترمونه، وكان الشيوخ، وهم يهزّون رؤوسهم برضًا، يستَبْقون لهذا الشاب الورع المقدام والرزين تسامحهم."(5)

ولنختم هذا الفصل، الذي هو إلى حدّ الآن طويل، كما يليق، بذكر مقتطفات من ثلاث قصائد مختارة من بين الكثير الكثير من قصائد الأمير عبد القادر، وهو يزرع الحماسة في حصانه المُعَدّ للقتال.

ففي القصيدة الأولى، والتي يمدح فيها حياة البداوة، انتهى إلى إظهار الإجلال للحصان، "شارب الهواء" حيث قال:

(5) Joseph Le GRAS, Abdelkader, éd. Berger-Levrault, Paris, 1929.

"فخيلنا دائما للحرب مسرَّجـــة ::: من استغاث بنا بشِّـــره بالظـــفر
نـــحن الملوك فلا تعدل بنا أحدا ::: وأيّ عيش لمن قد بات في خفر؟
عــــدوّنا ما له ملجـــأ و لا وزر ::: وعندنا عاديات السّبق والظفر"(6)

وفي القصيدة الملحمية الثانية، ذات الأربع والأربعين بيتا، والتي سنقتطف منها بعض الأبيات فقط، تحدّث عبد القادر عن مآثره القتالية، وهو على صهوة حصانه الأشقر، أثناء معركة كانت تحت إمرة أبيه في منطقـــة خنق النطاح، وفي برج رأس العين، في ضواحي وهران، يوم 03 ماي 1832. وقد اختارت القبائل المجاورة لمدينة معسكر محي الدين، شيخ قبيلة بني هاشم، لكي "يضع حدّا للمنازعات التي كانت مصدر اضطراب بتلمسان". وكان السلطانُ المغربي مولاي عبد الرحمان، الذي تحادث مع الفرنسيين في مسألة احتلالهم بايلك الغرب، قد عيّنه من قَبْلُ خليفةً في هذه المدينة، خَلَفاً لممثّله الشريف محمد بن العُمري، شيخ قبيلة بني حسان في منطقة القنيطرة.

وفي إستراتيجيته العسكرية التي كان يرمي من ورائها إلى عزل مركز البايلك، "قام [محي الدين] بهجمات عنيفة على وهران (من 03 إلى 08 ماي 1832)."(٧) شاركه فيها عبد القادر.

وفيما يلي المقتطفات الشعرية موضوع حديثنا:

---

(6) ممدوح حقي، م.ن. ص 26 ؛ انظر أيضا: Henri PÉRÈS, op. cit., p. 38.
(7) Charles-André JULIEN, op. cit., p. 96.

"...

"و عزّ جِيادا، جــاد بالـــنّفس كرّها :: و قد أشرفت -ممّا عراها- على التوى

ألا كم جرت، طُلقا بنا، تحت غيهب : و خاضت بحار الآل، من شدّة الجوى!

و كم من مفازات، يضل بها القطا :::: قطعت بها و الذئب، من هولها، عوى

و قد أصبحت مثل الـــقسيّ ضوامرا ::: و تلك سهام للعدى، وقـــعها شوى

إلى أن بدت نيـــران أعلامنا لـــها ::::::: و في ضوء نيران الكرام، لها صوى

و لاســيّما أهـــل السيادة مثلنا :::::: بنو الشرف المحض المصان عن الهوى"

...

فإن شئت علما، تلقَني خير عالم ::: و في الروع، أخباري غدت توهن القوى

...

و نحن سقينا البيض في كل معرك :::: دماء العدا. و السّمر، أسعرت الجوى

ألم تــر في "خنق النطاح" نطاحنا :::: غـــداة التقينا، كم شجاع لهم لوى؟

...

و أشقـــر تحتي، كلّــمته رماحهم ::: ثمان. و لم يشك الجوى. بل و ما التوى

...

فما ارتدّ من وقــع الســهام عنانه ::: إلى أن أتـــاه الفوز، راغم من عـــوى

و من بينهم، حمـــلته، حين قد قضى ::: و كم رمية كالنجم، من أفقه هوى

و يوم قضى تحتي جوادي برمية ::: و بي أحدقوا، لولا أولوا البأس و القوى[8]

---

(8) ممدوح حقي، م.ن. ص 28 ؛ انظر أيضا: Henri PÉRÈS, op. cit., pp. 4-10.

أما القصيدة الثالثة فهي التي توجّه بها إلى أم البنين، زوجته. وبما أنها عاتبته على طول غيابه، فإنه يعرض لها فيها الأسباب، مُحتفيًا في الوقت نفسه بحصانه، حصان القتال، وبرفاقه في الكفاح حيث يقول:

تسـائلني أم الـبنين، و إنـها ::: لأعـلم، مَن تحت السماء، بأحوالي
ألم تعلمي يا ربّة الـخدر أنـي ::: أُجلّي هموم القوم في يـوم تجوالي
وأغشى مضيق الموت، لا متهيِّبا ::: وأحمي نساء الحي في يوم تهوال
يثقن النسا بي، حيثما كنت حاضرا ::: ولا تثقن في زوجها ذات خلخال
أمير، إذا ما كان جـيشي مقبلا ::: وموقد نار الحرب، إذا لم يكن صالي
...
وبي تُتَّقى، يوم الطعان، فوارس ::: تـخالينهم في الحرب أمـثال أشبال
اذا ما اشتكت خيلي الجراح تحمحما:: أقول لها: صبرا كصبري وإجمالي
...
وعني سلي جيش الفرنسيس تعلمي ::: بأن مناياهم بـسيفي وعسّـالي
سلي الليل عني، كم شققت أديمه ::: على ضامر الجـنبين، معتدلٍ عـال
سلي البيد عني والمفـاوز والرّبى ::: وسهلا وحزنا، كم طويت بترحالى

ولنستشهد في الأخير، ودائما بصدد حديثنا عن الحصان، بهذه الملاحظات الحصيفة ذات الصور البيانية الراقية للشاعر المجاهد عبد القادر حيث يقول:"فذيله يجب أن يكون كثّا حتى منبته، وهذا كي يغطي الفراغ الذي بين قائمتيه: 'فالذيل يشبه لحاف العروس'. ويجب على عين الفرس أن تكون مائلة كأنه ينظر بها إلى أنفه، كعين الأحول: 'وهو في هذا يشبه

حسناء ذات دلال تتطلّع باشتهاء من وراء بُرقُعها. فعين الفرس، وهي في اتجاه الزاوية، تنفذ من شعر عرفه الذي يغطّي جبينه كالبرقع.' [....] وعندما يعدو فرسي نحو هدف ما، فإنه يُصدِر صوتا يشبه رفرفة الأجنحة. أما حمحمته، فتشبه صوت العِندليب المُحزِن. [....] وهو في أناقته، كمثل صورة مرسومة في قصر، بل هو عظيم كما القصر نفسه."(9)

(9) Eugène DAUMAS, op. cit., pp. 68-69.

8

عوامل نهضة وطنية

كانت سنة 1825 نذير اضطرابات كبيرة في المنطقة كلها، وبخاصة من جهة الحدود الغربية ومن جهة مدينة وهران.

وكانت معظم القبائل في أقصى حالات الحماسة القتالية، وهي تُعِدّ أسلحتها، وتتساءل فيما بينها، وتتناقش، وتعلّق على إشاعة مفادها أن هناك مواجهة عامة تُدبَّر في الخفاء.

وكان العديد من شيوخ الطوائف الدينية يتحدثون عن الجهاد، هذه الكلمة الربانية التي تتكرر كلما حلّت المصائب. هي صرخة حرب عادلة، الكلمة الموقظة للضمائر، والمؤجِّجة لبؤر الوطنية. كانت هذه الكلمة تُردّد في كل مكان. وكانت، بكل ما تحمل من معنًى إيماني، تهزّ نفوس "الطبقة الأرستقراطية الدينية" التي كان يبدو عليها الرغبة في المشاركة في الأمر، لأجل وحدة أخوية، وسياسية تقف في وجه أعداء الجزائريين. وذاعت الفكرة في قبائل وسط البايلك. هذه القبائل التي حملت، هي بدورها، صدى هذه الفكرة بعيدا، وبشكل واسع، إلى قبائل بني عامر، وقبائل

شرّاقة، وقبائل فليته، و قبائل بُرجيّة، وقبائل غرّابة، وإلى قبائل أخرى تقل عنها أهميّة.

فقبيلة بني هاشم[1] المتفرّعة إلى بني هاشم غرّابة وبني هاشم شرّاقة، والمُمثّلة لأقدم قبيلة عراقةً وأكثرها أهميّة، وقبيلة بني غرّابة (وهي قبائل جنوب-غرب وهران)، وقبيلة بني عامر (بفرعيها بني عامر غرّابة، وبني عامر شرّاقة)، كل هذه القبائل أجمعت أمرها بينها، طوعا أو كرها، وذلك بتأثير من أتباع الطريقة القادرية الذين كانوا كلهم مُوالين لمحي الدين. وسيكون لهذه الطريقة الدينية دور المحفّز السياسي، وذلك بفضل تأثير تنظيمها في الأراضي الشاسعة، في الغرب الجزائري، و في الحدود من الجهتين بين الجزائر والمغرب.

ولكن بدا هنالك التردّد المتواصل في صفوف القبائل، لأنه لم تكن لها المصلحة نفسها في قتال سلطة البايلك، وكانت كل واحدة تسعى لأن تكون الزعامة في صالحها فقط. ومع ذلك، فإن معارضة بني هاشم لباي وهران هي، من الناحية التاريخية، المعارضة الأقدم، والأقوى، والأكثر ثبوتا، دون منازع.

والفرصة سانحة الآن لإعطاء ملخّص عن "المجموعات الثلاث ذات القرابة"، "عشيّةَ" تقلّب قادم للأوضاع، هذا الذي ستعرفه الجزائر كلها مع الحملة العسكرية الفرنسية سنة 1830، وعن آثاره في الغرب الجزائري.

---

(1) أنظر الهامش 1 من الفصل 19 ؛ وأنظر توزيع هذه القبائل في الحيّز الجغرافي وسط-غرب مقاطعة وهران، على الخريطة المُرفقة.

ومن بين هذه آثاره المباشرة، يقتضي الأمر منّا ذكر ما يلي مسبّقا: عجز الباي حسن، الهَرِم، والرعديد، عن حماية وهران من الغازي الفرنسي؛ ثورة قبائل وسط الغرب الجزائري في أعقاب هذا الغزو؛ احتلال جنود سلطان المغرب عبد الرحمان لتلمسان، استجابةً لنداء السكان الحَضَر في هذه المدينة المهدّدة باستعمار خارجي وشيك، وهذا إثر الرحيل المفاجئ للباي حسن إلى المنفى؛ تنصيب سلطان المغرب لخليفته في هذه المدينة، وهو ابن عمّه، وصهره الحديث السن، مولاي علي بن سليمان، تحت وصاية القائد إدريس من وجدة. وكان قرار هذا التنصيب بمثابة ردّين: أوّلهما هو الرّد على المطامع المتحمَّس فيها للغاية، حتى لا نقول الشخصية جدا، للجنرال كلوزيل Clauzel في تلمسان، وثانيهما هو الردّ على التشجيع الذي تلقّاه من الطريقتين الدينيتين اللتين تحالفتا معه، منذ وقت قريب جدا، وهما طريقة درقاوة في الونشريس وفي الجهة الجنوبية لإقليم التيطري، والطريقة التيجانية المستقِرّة منذ سنة 1815 في مدينة عين ماضي التي تبعد عن مدينة الأغواط بحوالي 70 كلم جنوباً. وكان الغرض من هذا كله هو التصدّي للحماس العسكري لهذا الجنرال الفرنسي.

وها هو ذا الملخّص، الذي ألمعنا إليه آنفا، عن "المجموعات الثلاثة ذات القرابة". وهو ملخص يحدّد موضع كل العناصر الفاعلة في التحالف، مع التذكير بدوافع كل منها: "شارك [بنو هاشم] في القرنين الثامن العشر والتاسع عشر في كل المحاولات المناهضة لبايلك الغرب، وعلى وجه خاص في أشهرهـا، وهي تلك التي وقعت سنة 1826، وهذا بتحالف مع

التيجاني و عين مهدي* (هكذا). أما بنو عامر، الذين كانوا قديما في اتصال مع الأسبان، فقد كانوا محل اشتباه لدى البايلك لمشاركتهم في مقاومات التيجاني للبايلك. وقد كان بين ظهرانيهم المُرابطَان بن عرّاش وبن شريف اللذان داهمهما محمد المقلّش، شقيق الباي عصمان، المكلّف بإحلال النظام في المقاطعة التي كانت آنذاك في أوج الثورة. والتحق محمد المقلّش بالقبيلة القوية التي ثارت في يوم تسوّق مخلّفةً أكثر من 600 قتيل. وعلى العكس من ذلك، فإن بني غرّابة كانوا تابعين للمخزن ووجدوا أنفسهم، نتيجة لذلك، في مقام مختلف عن بني هاشم و بني غرّابة الذين في سهل غريس"(2)

كان عبد القادر، سنة 1825، شابا في السابعة عشرة من عمره. وكانت له بنية حسنة الاتساق. وكانت نشاطاته الاجتماعية والثقافية والدينية تحمل مُرتادي الزاوية، صغارا وكبارا، وكل محيطه العائلي، ولاسيما أخويه غير الشقيقين محمد سعيد و مصطفى ابني وريدة، زوجة محي الدين الأولى، كانت تحملهم جميعا على الإعجاب به على الدّوام. وكانت الدراسات القرآنية تشغل كل حياة محمد سعيد ذي الأخلاق البسيطة، والقلب الطيب. أما مصطفى، فلم يكن يبدو عليه أبدا أي طبع مميّز. ولم يُكرَّس لهما أي مؤلّف مُهمّ في إنتاج المؤرخين الرسميين القدامى عن هذه العائلة الكبيرة، عائلة شيخ قبيلة بني هاشم في "الغرب الجزائري".

أما الشهرة التي حضي بها أخوهما الصغير، غير الشقيق، عبد القادر، والتي كانت في أوج "مرحلة تحوّلها إلى حدث تاريخي"، فقد جعلت منه،

---

* هنا أيضا خلط في كتابة اسم مدينة عين ماضي Aïn Mâdhî' التي تُكتب خطأ هكذا Ain Mahdi' أي عين مهدي.

(2) T. CHENNTOUF, L'Algérie politique, 1830-1954, op. cit., pp. 12-13.

وعلى العكس منهما، بطلا أسطوريا في ريعان الشباب. ورَسَخت هذه الأسطورة -بسبب توافقها مع مطامح السكان- عميقا في النفوس، حتى إنها مازالت إلى يومنا هذا تطبع تاريخ الرجل عبد القادر.

وإنه في خضم هذا الواقع الموسوم بالأحداث اليومية المثيرة للقلق والمُنقِذة في الوقت ذاته، كانت هناك أخبار تنتشر، شيئا فشيئا، مفادها أن الغرب الجزائري سيعرف في وقت قريب مسؤولا شابا تُسمّى أمه زُهرة. وكان الناس، من قَبْلُ، قد عيّنوا القطنة على وجه التحديد مَوقِعاً لحدوث هذا الأمر. وتناقل هذه التنبؤات السكانُ، السكانُ التعساء من جرّاء تجاوزات الأوجاق، وبخاصة منهم سكان الأرياف، المتعطّشين للعدل والشرف. وانتشرت بسرعة، وهي تملأ المنطقة كلها أملا. هذه المنطقة التي لم تعد ترى نهاية لآلامها، والتي بدأت تستسلم لروح الهزيمة.

وهكذا كانت تتطور، حتماً، عوامل إثبات وجودٍ وطني. صحيح أنها كانت تتطور في حالة من الأسى، ولكنها كانت تتطور أيضا في حالة من الشرف. وكانت حالة إثبات الوجود هذه، بالتوازي مع تطور الوضعية السياسية والاجتماعية، تجد ضمانات ازدهارها ونجاحها لدى رجل عادل ومثقف، كما لدى شعب هو في صراع مستمر مع الاستعباد الأجنبي وتهديدات المستقبل المحجوبة نوعا ما.

وكان هذا الشعور الشعبي يشغل بال الباي حسين، الذي كان منذ مدة طويلة يُبدي احتراسا من عائلة بني هاشم التي ما انفك عدد أتباعها السياسيين والدينيين يتزايد. وكان قلق الباي كبيرا جدا كون الطرف الآخر، أي بني هاشم المُؤيَّدين بأفكار مستوحاة من الواقع ومطروقة

بالتفصيل في زاوية محي الدين، كان يبدو أكثر اطّلاعا على سلطة الأتراك المتزعزعة، وعلى المناورات الدولية ضد شمال أفريقيا.

وكان الناس، بالفعل، يعرفون أن العلاقات ما انفكت تتوتّر في سنة 1824 بين دولة فرنسية تستعدّ منذ زمن طويل للغزو وتبرّره دونما أي شعور بالحرج، وبين داي الجزائر، وهو على رأس سلطة ضعيفة ومنهارة. وذاعت شائعة مفادها أن الداي أمر بحجز "سفينتين بابويتين"، وهذا بعدما اشتدّ غيظه من عدم تسديد ثمن القمح الذي تسلّمته حكومة المديرين (النظام الذي حكم فرنسا من سنة 1795 إلى سنة 1799)، وكذا من الوعود الكاذبة للحكومات المتعاقبة. وقد طفح الكيل، إذ لم تكن فرنسا تتوقف عن الإيهام، بكل وضوح، بأنها نسيت أن تسدّد ثمن الصفقة التجارية!

وقد ذامت "قضية القمح" المريبة هذه مُدّةَ ما يقارب الثلاثين سنة، وذلك بسبب دهاء وعدم أمانة "بعض الساسة الباريسيين (وعلى رأسهم تاليران Talleyrand)، ورجال مال يهود من أصل جزائري-ليفورنوي (بكري و بوشناق) كانت تتوقف عليهم ماليّة الداي، وقنصلٍ فرنسي (دوفال Deval) كان يحظى بسمعة سيئة جدا في كل المحيط الدبلوماسي والتجاري في البحر الأبيض المتوسّط."(3)

والحال أنه كان لفرنسا تصرّف فوري إزاء "هذا الحجز"، حجز السفينتين، حيث حَوَّلَت حُكرة الأرض التجارية التابعة لها في مدينة القالة،

---

(3) Franck LAURENT, Victor Hugo face à la conquête de l'Algérie, op. cit., p. 124.

بالقرب من مدينة عنابة، إلى مركز اعتداء. وبما أنها كانت متيقّنة من أنّ لها كل الحق، فقد احتجت بشدّة حتى إنها أرسلت يوم 29 أكتوبر 1824 الفرقاطة المسماة لاڤالاتي La Galathée للمطالبة بتقديم اعتذارات لها. وكان على الداي، المغتاظ جدا، أن يطلق سراح الأسرى، بوساطة من قنصل نابولي بدلا من القنصل الفرنسي. وأرسل إلى باريس احتجاجات شديدة اللهجة.

"وبقيت المسألة دون تسوية حتى سنة 1827، ونفد معها صبر الداي حسين. وفي مقابلة بدا أثناءها غيرَ لبق و سيئَ النية على وجه خاص، تلقّى القنصل دوفال جزاءَ ذلك "ضربةَ مروحةٍ" من سيّد الجزائر. ورغم أن كل الذين كانوا على علم بالأمر لم يحملوا أبدا سخط القنصل محمل تهويل، إلا أن فرنسا قررت قطع العلاقات الدبلوماسية التي لطالما كانت جيدة، لا بل وكانت حتى ممتازة."(4)

وهكذا إذاً ترسّخت "قضية القمح غير مدفوع الثمن" عن طريق "ضربة المروحة" التي حدثت في 29 أفريل 1827، وكانت بمثابة استهلال غريب للمسألة. وهكذا انقطعت العلاقات الدبلوماسية بين السلطتين.

وقرّر الفرنسيون، ومعهم أيضا الأمير جول دو بولينياك Jules de Polignac الذي كان يحلم "بمشروع عظيم"، والذي كان في سدّة الحكم زمن الملك شارل العاشر Charles X، إرسال حملة عسكرية إلى الجزائر وهذا بعد أن فشل الحصار البحري الذي اتخذوه "كحلّ

(4) ID., ibid., p. 124.

مؤقت". وكان الإنزال في منطقة سيدي فرج يوم 14 جوان 1830. واستولى الجيش الفرنسي الرّدعي على الجزائر العاصمة يوم 05 جويلية، مبتدئا بذلك خاتمةَ قضية مأساوية بقيت مفتوحة حتى يوم 05 جويلية 1962.

وكان من المعروف أيضا، في قبيلة بني هاشم، أن إنجلترا "الدائمة الاهتمام بالدول البربرية" كانت في العصر نفسه، وهي في حضرة زبائن في عجلة من أمرهم وهم "تجار القمح الجزائري"، تبحث عن مواقع لتقوية تأثيرها في البحر الأبيض المتوسط. وكانت قبيلة بني هاشم على علم كذلك بأن بعض الدول الأوروبية التي كانت تمثّل "الدول الأكثر اهتماما"، وحتى الولايات المتحدة، كان لها أطماع في السواحل الجزائرية "لكي تضمن أمن الملاحة"، ولكي تضع حدا للذي اصطُلح على تسميته "القرصنة" التي هي مجموع العمليات الحربية التي كان يقوم بها القراصنة في البحر الأبيض المتوسط في القرنين السابع عشر والثامن عشر.

والحالة هذه، تعرّضت معسكر لهجمات أحمد التيجاني، وهو المقاوم الوطني والشيخ القوي للطريقة التيجانية في الجنوب. جاءها من مدينته، عين ماضي، وقد أمدّه بالمعونة العسكرية عليّ بو طالب، شقيق محي الدين. ولكن الإمدادات التي أرسلها داي الجزائر للباي تمكّنت من بسط السيطرة على معسكر من جديد (1827). و قُتل تيجاني في المعركة، وتمكّن عليّ بو طالب من الفرار. وسارع باي وهران، وهو في سَوْرة الغضب وتتملّكه مشاعر الريبة، إلى محي الدين متّهِمًا إياه بتشجيعه لهذه الغارة.

ولكن محي الدين، الرجل الفطن والرزين، لم يردّ على هذا الاتهام. بل فضّل، كعادته، أن يجمع عائلته وبعضا من أصحابه الثقاة، وأن يبوح لهم بسرّ كان حبيس قلبه، وهو الذهاب إلى عرفات لأداء الحج. وأفهمهم ذلك بكل حكمة. وحتى يتفادى أية مواجهة مع الباي، مُبعِداً من ذهنه على الفور فكرة أنه سيرأف به، فإنه قدّر أن الحج إلى البقاع المقدّسة، والذي لطالما تأخّر بسبب مسؤولياته المتعدّدة في زاويته، وبسبب الوضع الذي بقي دون تغيير في المنطقة، هو الذي سيبعده، لفترة من الزمن، عن عدوّ أزرق. وبما أن سنّه كانت تقارب الخمسين، فقد فكّر بأنه يمكنه الآن أن يجيز لنفسه القيام بسفر فكّر فيه طوال حياته، سفر يطمح إليه، في أي وقت من حياته، كلُّ مسلم يستوفي الشروط الضرورية والكافية لأداء هذه الفريضة الدينية، عمود الإسلام الخامس، ألا وهي الحج.

وها قد حان هذا الوقت بالنسبة إلى محي الدين...

9

المنفى، أمل في الحياة !

وبعدئذٍ، أعلن محي الدين في الناس سفره الوشيك إلى مكّة، وأنه عزم على أن يصحب عبد القادر معه حتى يعرّفه بالدنيا. كان يرغب في إتمام تكوين ولده المفضّل - ولد المستقبل العظيم - وفي تطوير أفكاره، وفي الرفع من هيبته حين عودته إلى وطنه حاملا لقب "الحاج". هذا اللقب الذي سيسهم في ترسيخ طبع هذا الرجل الذي سيصبح الرجل المعاصر ذا الشأن الكبير، والذي كان محي الدين يتصوّره في قرارة نفسه، كلما طرأت أحداث في مكان ما، في البايلك، تقضّ مضجع مجتمع القطنة المسالم. وفرح عبد القادر بهذا القرار، وكانت أمه السيدة زهرة أشد فرحا إذ شرعت، من حينها، في الإعداد لهذا السفر. وقد أبهج هذا الاختيار، المستحَق والذي يَعِد بالكثير، العائلة ومُرتادي زاوية بني هاشم. وآن لعبد القادر أن يطمح إلى إكبار كهذا، لأن دراسته جعلت منه شابا واسع الاطّـلاع على كل شيء يمس العقل أو المجتمع. وكان متعلّما، مُلمّا بالقرآن والسنة، مصدري الشريعة الإسلامية. ولم يكن هذان المصدران

لِيُضلّاه عن حقائق العالَم، أو يجعلاه يحيا حياة متزمِّت، متبجِّح، وجاهل بتطور الأزمنة، بل قد زوّداه برحابة عقل ذات صلة بشخصية الرجل الطيب القلب والذكي الذي كانه.

والواقع أن أصحاب العقول القوية، الرزينة والفاضلة، هم وحدهم، أهلٌ لأن يكونوا مزوَّدين بطريقة كهذه، وهذا حتى يتمكنوا من إشاعة ثقافة شعبهم الكُبيرة والحقيقية، ومن تقوية الشعور الفردي والجماعي لدى الجماهير الشعبية، ومن الاستجابة لمطالب صارمة، أخلاقية وسياسية راهنة. وقد كان عبد القادر، في حياته اليومية، يتحقق مرات عديدة من معاني أحاديث مثل هذا الذي رواه المقدام والذي يفصّل معنى الاجتهاد: "ما أكل أحد طعامًا قط خيرًا من أن يأكل من عمل يده."

ونجد في حياة الأمير، فضلا عن ذلك، أربع فضائل أساسية، تتردّد باستمرار، وقد ذكرها في مناسبات عدّة، وهي: العقل والعدل والشجاعة والعفّة. والمقصود بالعفة هو قوّة الشهوة المُؤدَّبة بتأديب العقل والشرع. وبعد هذا، حدّد الأمير فكرته بالتدقيق، ودونما مواربة في الكلام، في هذه الخلاصة: "ومن تعرّى عن هذه الأربعة كلها، واتّصف بأضدادها، استحقّ أن يُخرج من بين العِباد و يُطرد من البلاد."[(1)]

(1) 'ABD-AL-QÂDIR, Dhikrâ l'akîl wa tanbîh al-ghâfil, Beyrouth, s.d. et Le livre d'Abd-el-Kader intitulé «Pappel à l'intelligent, avis à l'indifférent», considérations philosophiques, religieuses, historiques, etc., par l'émir ABD-EL-KADER , traduit avec l'autorisation de l'auteur sur le manuscrit original de la Bibliothèque impériale, par Gustave DUGAS, Paris, Duprat, 1858, XXV, 370 p.

وكان صدق إيمانه القـــوي، وقدرته الإبداعية الشخصية، يَظهَران جليًا في علاقاته بأترابه من الشبـــاب، وبرفاقه، وبرجال العلم. وكان يزاوج بين القـــول والعمل المستوحى من تأملاته. ولا شك في أن الحديث الذي رواه أبو سعد الخدري كان بمثابة منهج له: "من رأى منكم منكرا فليغيّره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان."

وبالطبع، كانت التربية التي حاول والده منحه إياها، والتي أعانه فيها كل الأشخاص الذين يحيطون به، وبخاصة أمه مذ كان في المهد، كانت عاملا مساعدا له كثيرا في فهم الناس، باهتمام، وفي مشاطرهم أحلامهم وهمومهم، وساعدته مساعدة أكيدة في تكوين نفسه.

ويبدو على الشاب عبد القادر الآن، وفي خبايا نفسه شيء كمثل هزهزة فكرية تامة الإعداد، الرغبةُ في الاندفاع نحو مصير يصبح بفضل سفر طويل كهذا، سفر بغرض الدراسة عبر بلدان مختلفة، وينتهي بالحج إلى مكة، بمثابة مهمة يجب القيام بها، مهمته هو بعد أن أصبح رجلا.

وشغل هذا الحدث الناس المغمورين سعادةً في القطنة، وهم يقومون باستعدادات كبيرة. وحان موعد الرحيل المهيب نحو مكة. وتجمّع الناس زرافات أمام الزاوية، والتفّوا حول محي الدين، شيخ قبيلة بني هاشم، وولده عبد القادر متمنّين لهم سفرا سعيدا وإقامة طيّبة في البقاع المقدّسة. وترجّاهم الكثير منهم بالدعاء لهم أثناء أداء مناسك الحج.

وقيل إن ألفي فارس رافقوا موكب الحجاج إلى مسافة طويلة جدا. وكان ضمن مجموعة الحجاج هذه شخصيات مهمة مثل مصطفى بن

ثامي، زوج خديجة بنت محي الدين وصهر عبد القادر وصديقه الذي سيصبح خليفة له في شرق منطقة وهران. ومصطفى بن ثامي هذا، هو ابن أحمد الثامـــي، الرجل الموقّر جدا في المنطقة، وابن كلثوم أخت محي الدين. وكانـــت خديجة هذه في السن الثامنـــة عشرة عندما اتخذها مصطفى زوجة له.

وقد نقل كاتب السِيَر شرشل وصفا لهذا الرحيل المشحون ورعا وفرحا، مُظهرا الدرجة التي كان عليها محي الدين من احترام الجميع له حيث قال: "وذاع خبر رحيل ماحي الدين (هكذا) في كل إقليم وهران. وانتفض العرب من كل جهة، كما لو أن بهم ظاهرةً مباغتة من اقتداءٍ وتجاوبٍ عاطفي حين تذكّروا كلهم بأن هناك حجّا عليهم أداؤه. وكانت صيحتهم المدويّة، عبر كل البلاد، هي: "إلى مكة، إلى مكة!". وشرع الناس في التشكّل جماعات جماعات، منهم من يتزوّد بالبغال ومنهم من يُعِدّ الخيام.

ففي مرحِلة اليوم الأول، شهد محي الدين مئات العرب يكتسحون معسكره، مطالبين جهرا بنيل حُظوة الانضمام إلى رحلة النسك هذه. وبعد غدٍ من ذلك اليوم، أصبح المئات آلافا. وفي مرحلته الرابعة، شهد محي الدين أمواجا من الخيام حول خيمته. فكان يعاتب بعضهم عتابا رقيقا جدا، وكان يرفض طلب بعضهم رفضا قاسيا جدا، إلا أن كل ذلك لم يكن منه جدوى. فمحي الدين كان مرابطهم، وشيخهم، ووليّهم الصالح. والذين يذهبـــون لتقبيل الضريح المقدّس، وهم تحت رعاية كهذه، إنما ينالون البركة من جهتين. وفي اليوم الســـادس، تجمّع موكب الحجاج

العظيم على ضفتي أدجيوه [واد جدِيوية]، في وادي شلف. وفي منتصف الليل، ظهر فجأة فارس تركي في المعسكر، وحصانه في عدو سريع، ونزل من على صهوة حصانه أمام خيمة محي الدين مُحضرا معه رسالة رسمية من الباي حسن، حاكم وهران. فتح عبد القادر الرسالة في الحال. كانت الرسالة موجّهة إلى والده يُدعَى فيها، بعبارات لبقة، للالتحاق بمقر حُكم الإقليم. وكان محي الدين قد أنهى قبل الفجر ترتيبات السفر إلى وهران وهذا حتى يلبي أوامر وليّ أمره."(2)

ورغم نصائح الجميع له، وتوسّلات كل مرافقيه "بأن لا يأبه بالرسالة"، إلا أن محي الدين الذي تتملّكه "روح الوفاء الذي لم يغادره أبدا، ردّ عليهم بهدوء قائلا: 'يا أبنائي، من واجبي الطاعة. وسأذهب و لو كلّفني ذلك حياتي'."(3)

وانتقل إذاً بصحبة ولده عبد القادر وبن ثامي إلى وهران حيث استقبله الباي شخصيا بمحبّة وبصداقة أيضا. وسرعان ما تحوّل هذا الاستقبال، بأوامر من "الطاغية" الذي صدّق أول الأمر بهجوم على وهران، والذي عرف مؤقتا كيف يخفي بغضه من شعبية محي الدين، وكيف يواري مخاوفه من أن يراه يوما ما على رأس سلطة منافسة، تحوّل إلى اعتقال حسب الأصول للأب ولابنه، في انتظار أن يَصدر ضدهما حكم بالقتل بسبب مساسهما بالأمن الداخلي للبايلك.

(2) Charles Henry CHURCHILL, op. cit., p. 51.
(3) ID., ibid., p. 52.

وذاع خبر الأسر هذا في قبيلة بني هاشم، ولاحت في الأفق أمارات عصيان مسلّح. واقترح عبد القادر أن يُستبقى رهينةً، وأن يُفرج عن أبيه وصهره، ولكن محي الدين رفض ذلك، وأرسل إلى مجمع حكماء بني هاشم ليُهدِّئهم. وقام قائدان كبيران من قادة المخزن، وهما الـــمُرسلي ومصطفى بن إسماعيل ومعهما المازاري، وهو ابن أخ مصطفى بن إسماعيل، بالتوسط لدى الباي محمَّلين بالهدايا. وكان الباي يثق في إخلاص هؤلاء الرجال في خدمتهم له. وجعل هؤلاء الرجالُ السيدة بدرة، زوجة الباي القوية الإيمان، تهتم هي كذلك بالقضية. و هكذا، شيئا فشيئا، أصبح نظام معاملة المحبوسين أقل قسوة. ووُضعوا رهن الحبس لمدّة من الزمن، في منزل، في وهران، تحت حراسة المِيهوب، الجندي التابع لقائد المدينة.

ورغم ذلك، فإن حبسهم كان قد دام حوالي سنتين، عندما أُطلق سراحهم، مع شرطٍ صريحٍ بمغادرة الجزائر على الفور. كان هذا أول بادرة لفكرة المنفى، وكان أول أمل في الحياة أيضا!

كتب بوعلام بسّايح يقول: "وبعد عملية مساومة طويلة، مُنح محي الدين، أخيرا، الإذن بالرحيل، وذلك بفضل نفوذ وضغط العديد من شيوخ القبائل الذين كانوا متزعجين من سلوك الباي، وكانوا منشغلين بتقديم دعمهم لمحي الدين في هذا الوقت بالضبط. وقد التحقوا به قبل رحيله، وإن منهم حتى من صاحبه في سفره. وانطلقت رحلته سنة 1827. وكان عبد القادر آنذاك في التاسعة عشرة من عمره."[4]

(4) Boualem BESSAÏH, De l'Émir Adbelkader à l'Imam Chamyl, le héros des Tchétchènes et du Caucase. ENAG/ÉDITIONS, Alger, 2001, p. 11.

10

كنوز من الحج

وانطلق محي الدين وأتباعه مسرعين، في طريقهم إلى مكة، مرورا بالأقاليم الثلاثة التي يسيّرها الأتراك وهي: وهران، الجزائر وقسنطينة.

إن خط سير هذا الفوج من الحجاج ليس معروفا بدقّة، إلا أن حجاج الغرب الجزائري عادةً ما يمرون بالمدن، ولكنهم غالباً ما يطوفون بها فقط. وهذا يتوقّف على أهمية القافلة واحتياجات الحجاج، كأن يجدوا مثلا مكانا للتوقف يليق سواءً بالحاجة إلى أخذ قسط من الراحة بعد مسير طويل على الأقدام أو على ظهر دابة، أو بالحاجة إلى التزود بالمؤونة. أما عن الرجل من عامة الناس، المسافر وحده، فإنه يجد دوما حُسن الوفادة لدى "أخ في الله" يُتِمّ في أغلب الأحيان عمله الطيب هذا بمساهمة مالية تساعد الحاج على متابعة مسيره. ومهما كان من أمر، فإن محي الدين ورفاقه في الرحلة ساروا عبر طريق الهضاب العليا، و "وصلوا إلى تونس العاصمة مرورا بالمدية وقسنطينة."[1]

(1) Charles Henry CHURCHILL, op. cit., p. 53.

وفي أثناء المسير، كان باستطاعة عبد القادر أن يلحظ الاختلالات الكبيرة في المجتمع الجزائري تحت نظام البايلك، والتي تفاقمت أكثر بسبب بعض شيوخ القبائل الإقطاعيين أو حلفاء ممثّل الإيالة الذين كانت تصدر منهم، في حقّ مواطنيهم الفلاحين، تصرفاتٌ أنانية ومتناقضة، وفي أغلب الأحيان دنيئة. فقام إذاً بتقدير جسامة هذه الاختلالات، وبتسجيل بعض العناصر المحدّدة منها، كانت شائعة في عديد الأراضي التي مرّ بها.

وفي مدينة تونس، التحق فوج محي الدين "بجمعٍ من ألفي حاج، كانوا ينتظرون هنا الفرصة السانحة كي يواصلوا سفرهم بحراً حتى الإسكندرية. وبعد مدّة قصيرة، ركبوا كلهم أجمعون ظهر سفينة متجهة إلى هناك، ولكن باغتتهم عاصفة قوية اضطرتهم إلى الرجوع القهقرى. وكانت المحاولة الموالية ناجحة، إذ بعد مراوغة مع الرياح دامت حوالي خمسة عشر يوما، وصلوا أخيرا إلى الميناء."[2]

وخلال هذه الإقامة القسريّة القصيرة، نالت تونس العاصمة، عاصمة الحفصيين الجميلة، الحُظوة في إعلام عبد القادر بوجود فكر سياسي إصلاحي حديث، وممارسةٍ عادية لمدنيّة أشد نقاءً من تلك التي كان قد لاحظها عندما كان يدرس في وهران، المدينة التي كان لا يسمح فيها طغيان الباي حسن بشيء لا يعود بالفائدة على الطاغية التركي أوّلا، ثم على خدّامه من بعد. وهذا كان بالنسبة إلى عبد القادر بداية تفتّح على آفاق أخرى...

2- ID. ibid., p. 53.

وبعد أن قضى فوج الجزائريين بعض الأيام في الإسكندرية، استأنف سيره حتى القاهرة. هذه الحاضرة الإسلامية التي كان يشع منها، فيما مضى، عبقرية شمال أفريقيا بفضل الفاطميين في أفريقية (القرن العاشر)، وبخاصة الفاطميين في الجزائر، الذين من بينهم بنو كتامة المستقرّون في القبائل الصغرى بين جيجل، سطيف، ميلة وقسنطينة. وفعلا، بعد عهد من الارتباط الديني بذريّة فاطمة بنت الرسول صلّى الله عليه وسلّم، والتي كان أبو عبد الله هو الدّاعي إليها، إثر إرساله إلى شمال أفريقيا حوالي سنة 893 أو 894 من قِبَل أحد المُدَّعين الانتساب إلى ذريّة عليّ وفاطمة، هذا المدعوّ محمد الحبيب (الذي خلفه ولده عبيد الله)؛ وبعد فترة زمنية طويلة ثريّة بالأحداث التاريخية المعقّدة (ثورات ضد الأغالبة في أفريقيا، مطالب سياسية ودينية)؛ بعد كل هذا، أعدّ بنو كتامة سوقة عسكرية مهمة، عندما قرر الفاطميون مهاجمة مصر بغية الإطاحة بالخلافة العباسية. وخلال بضعة أسابيع، احتل جيش الفاطميين، بفضل جوهر على رأسه، مصر بأكملها. وأسس جوهر سنة 969 مدينة القاهرة، حيث وُضعت في شهر أفريل من سنة 970 أوّل لبنة للجامع الأزهر[3]. وكان إسهام كتامة في الدّفع السياسي والفكري والتجاري في القاهرة إسهاما مُعتبَرا في تلك الحقبة.

وكانت القاهرة سنة 1827 تبدو متابِعةً سيرها نحو ازدهار اقتصادي وثقافي، تحدوها في ذلك إرادةٌ في أن تبقى دائما مركزا للعصرنة والثورة.

---

(3) Robert MANTRAN, L'Expansion (VII^{e} - XI^{e} siècles), 2^{e} éd., PUF, 1979, p. 187.

واختار الحجاج المغاربة، مع محي الدين، أن ينصبوا خيامهم تحت أسوار العاصمة المصرية. وبلغ نبأ وجود "منفيين مغاربة، من بينهم شخصية مهمة" إلى نائب ملك مصر، الألبانيّ، محمد عليّ باشا، والمشتهر بلقب محمد عليّ، والذي يكتب الغرب اسمه هكذا "Méhémet Ali".

وقد طلب محمد عليّ مقابلة قائد المغاربة. وهو الذي حاولت فرنسا منذ سنة 1826 أن تُرغِّبه في بلدان البرابرة، وذلك بوساطة من قنصلها العام دروفيتّي Drovetti، هذا الذي كان يقول: "إن سحر اسم محمد عليّ وحده يكفي".

وكان نائب ملك مصر يصرّ على أن يتلقّى المعلومات عن وضعية البلدان الإسلامية الواقعة غرب المتوسّط، ولعلّه كان يصبو بذلك إلى أن تكون له فكرة واقعيّة عن احتمال القيام بحملة ضد إيالة الجزائر، تكون منظّمةً بالاشتراك مع فرنسا.

وإن الحقيقة المهمّة من وراء هذه الحملة التي دبّرتها فرنسا المحبّة للحرب، وأوصت بها في هذه الرقعة من العالم الإسلامي، إنما هي تفكيك الإمبراطورية العثمانية، وضمان مراكز عسكرية وتجارية على السواحل الأفريقية، ويكون هذا بأقل كلفة و يعود بالنفع على مصالحها.

ولكن فرنسا - ومعها القنصل الفرنسي ميمو Mimaut، خليفة القنصل دروفيتّي، وبعد كلّ الحسابات الدبلوماسية- انتهت إلى الوقوف على أن محمد عليّ، المنشغل أكثر بالمحافظة على عظمة رجل الدولة الذي كانه بالتمام، كان دائما يشترط على أن تكون الحملة "حصرا إسلامية، لا غير".

وقَبِل محي الدين الدعوة الكريمة التي وجّهها له محمد عليّ. وكان يتملّكه إحساس بالشرف العظيم. وانتقل هو وابنه عبد القادر إلى قصره. كتب بسّايح يقول: "كان اللقاء حارّا. وطرح حاكم مصر الكثير من الأسئلة عن منطقة المغرب، عن المغرب الأقصى وسلطانه، عن إيالة تونس وطرابلس، عن إدارة الأراضي، عن نظرة المغاربة للعثمانيين وللخليفة وعن حكمهم عليهم، وأيضا عن الدول الأوروبية القوية المجاورة لشمال أفريقيا. وأَفْهَم ضيفَه كيف أن المغرب أضحى محل الأطماع، وهذا ما سيتأكّد فيما بعد في النصف الأول من القرن التاسع عشر، بل وبالتحديد أكثر في مؤتمر الجزيرة (1906).

وكان عبد القادر الشاب ينصت إلى شخص نائب الملك، وهو مشدوه ببذخ القصر. وبما أن نائب الملك ولّى بوجهه شطر عبد القادر لبعض الوقت، فإن هذا الشاب تجرّأ على سؤاله عن التنظيم الرائع لمرفأ الإسكندرية. وأجابه السلطان قائلا: 'عن طريق هذا المرفأ أراقب كل ما يدخل أو يخرج'. أكان هذا رمزا للسيادة؟ هو لا ريب كذلك، و إن عبد القادر سيتذكّر هذا. ثم بعدها قال لمحي الدين: 'سيكون لهذا الولد شأن عظيم في المستقبل'."(4)

وقد خلّف محمد عليّ انطباعا قويّا في نفس عبد القادر. وإن محرّر مصر هذا، رغم كونه من أصل أجنبي، وأنه خَلَف من بعده خَلْف، والحق يُقال، عرقلوا بشكـــل خطير صيرورة هذا البلد، كان مستمرا في

(4) Boualem BESSAÏH, op. cit., p. 12.

إنجاز عمل تجديدي فذّ، في هذه الأرض العربية التي احتلّها جنود بونابرت، والتي تخبّطت في فوضوية شبه كاملة ردحا من الزمن. وإن الوطنية التي كانت تشعّ من هذا القائد العربي الكبير، هذا الذي كان يصبو إلى قلب أوضاع البِنى العتيقة التي أكل الدهر عليها وشرب في بلده، وإلى تشييد بلد متطوّر، أثارت في نفس هذا الشاب الجزائري الحماسة والغبطة.

وبما أن هذا الرجل قد نجح فعلا، غداة مغامرة بونابرت، وغداة الإنجاز الثوري لشامبوليون Champollion، في تنظيم جيشه، وفي تقوية بَحرِيَّته، وفي تشجيع الفلاحة والتجارة، وكذا في الحث على معرفة الحضارة و الثقافة الأوروبيتين؛ وبما أن هذا الرجل، باختصار، أتمّ الإحراز على استقلال مصر على أحسن وجه، فإنه، دونما شك، يمثّل قدوة من شأنها أن تنمّي بالتأكيد لدى عبد القادر، فيما بعد، مطمحا سياسيا واقتصاديا عظيما لبلده هو. حقّا، لقد استهوته الطريقة التي اتّبعها محمد عليّ في تنشئة شعب برمّته. ولاحظ شرشل أن "الحاج الشاب كان حينئذ بعيدا كل البعد عن أن يتصوّر، وهو يتأمل ذاك المحارب الشهير، بأنه كان مقدّرا عليه هو بالذات أن يفوقه، بعد بضع سنوات، في القيمة العسكرية، وفي الكفاءة السياسية، وفي سمات البطولة ذات الشهرة العالمية."(5)

وهكذا، وبكلمات بسيطة وموحية، تلقّى عبد القادر الشاب ذو التسعة عشر ربيعا فقط، عروضا عن علم إدارة البلاد، وعن قواعد تنظيم اقتصادي و اجتماعي تختلف اختلافا مع كل ما خَبِر في بلاده. لِمَ لا

(5) Charles Henry CHURCHILL, op. cit., p. 54.

يتمكن الناس من جعل الجزائر بلدا حرّا و مُفعما بالحركة؟ هو سؤال حصيف، وليس من المستحيل أن لا يكون قد خطر بخَلَد عبد القادر! ومن المؤكّد أن محي الدين كان قد لاحظ هذه الحماسة المكتومة في صدر ولده، وقد ابتهج بها كثيرا، متمنّيا أن تعرف الجزائر مصيرا مجيدا بفضل رجال مثل عبد القادر!

غادر فوج محي الدين مصر متّبعا خط السير البحري العادي بين السويس وجدّة. جدّة، هذه المدينة المرفئية في الحجاز، والمركز الكبير لكل المعاملات التجارية ذات الصلة بأفريقيا والغرب والشرق، كانت، في المأثور الشعبي كما في السُنّة، مسرحا لعدد كبير من الوقائع تتعلّق بالخَلْق وبالحياة الروحية للإنسان. فعلى سبيل المثال، يوجد في جدّة، من بين ما يوجد من رموز دينية تتقاسمها الإنسانية، ضريح حواء.

وباقترابهم من جدّة، يدخل في الإحرام أولئك الذين عقدوا النية على الحج. و بعد الغسل الأكبر، يلبسون لباس الإحرام ويؤدون صلاة القدوم بنية إقامة شعائر الحج. ويكون هذا في خضم رحلتهم على مستوى الجحفة بالتحديد. والجحفة هذه، ضيعة قديمة و مهجورة بين مكة والمدينة تعوّضها ضيعة أخرى تُسمّى رَبَغ. هذه الضيعة الساحلية هي الميقات، وهي إحدى مواضع الدخول إلى أراضي مكّة المقدّسة. وهي موضع مخصّص عادةً للمسلمين المسافرين بحرا أو برا، والقادمين من سوريا ومصر والمغرب العربي.

وبعد أن نزل محي الدين وولده من على ظهر السفينة في جدّة، انتقلا إلى مكة، أم القرى. وكان ذلك يوم 29 جانفي 1827.

وبمجرّد أن حطّوا الرحال بالبلد الأمين، باشروا الاستعداد، عاقدين النيّة على القيام، مثلهم مثل باقي الحجاج، بكل الفرائض الدينية الخاصة ببرنامج شعائر الحج إلى الكعبة، بيت الله الحرام.[6]

ولم يستطع محي الدين وعبد القادر كبت ذلك الشعور القوي الذي تملّكهما، وهما يحسّان، لأول مرة، بأن أرجلهما تطأ تراب البقاع المقدّسة. وقد لازمهم هذا الشعور في صلواتهما، سواءً عند قيامهما بالطواف بأشواطه السبعة حول الكعبة، وفي السعي بين الصفا والمروة، أو أثناء الليلة التي قضياها بمنًى، وفي الغد من ذلك، وهما يدعوان الله عند جبل الرحمة، في عرفات، ثم عند الإفاضة حيث اندفعا مع "ذلك الفيض" من الحجاج باتجــاه مزدلفة من أجل جمع حصيّات الرجم أو عند رمي الجمرات في اليوم الموالي. واغرورقت أعينهما، كما الكثير من الحجاج، رجالا ونساءً، من مختلــف الأعمار، أثناء أداء مناسك الحج، هذه المَشاهد المثيرة للعواطف، مَشاهد التقى والخضوع والأفعال التي تدلّ على التوبة إلى الله ربّ العالمين.

وكانت هذه الرؤى تُحيي في نفس كل واحد منهما، الواحد تلو الآخر، كلّ المشاعر القويّة، المتباينة، أو الممنوعة، أو المكبوتة، والتي تعتلي بها هذه اللحظة المشهودة إلى شيء ما، موجود في موضع ما من الذات، يكسو النفس عظمةً، ويكسو العقل غبطةً و سلاما.

---

(6)- انظر:
Kaddour M'HAMSADJI, Aller à 'Arafât, notes de pèlerinage, éd. ENAL, Alger, 1986.

وسنحت للجزائريين الفرصة النادرة للالتقاء، خلال هذا المؤتمر التقليدي السنوي العظيم، بمسلمين قدموا من كل بلد فيه من يدين بالإسلام. وكان شغلهم الشاغل، خلال عدّة أيام، هو اغتراف العلم من مناهل الدين، بفضل خطباء في الدين أفذاذ، وبفضل زيارة الآثار البادية للعيان والأماكن المشهودة في التاريخ الإسلامي. وقد أولوا الأفضلية، في أوقات بهيجة كهذه، للاتصال بين الناس، ولتبادل الآراء، ولتفتّح العقول، وللتكافل، ولمعرفة الرجال والشعوب، مُخبِرين بعضهم بعضا عن الوضع الاقتصادي والسياسي والثقافي والاجتماعي، كلٌّ عن بلده، وعن تحقيق مطامح شعوبهم في كل المجالات الحيوية الخاصة بالفرد.

وكان بمقدور عبد القادر، في ختام الحج، أن يضيف هذا البحث الروحي المحفوف بالامتحانات، وهذه الذكريات، وهذه المعارف، إلى مجموع التجارب التي عاشها في أرزيو، وفي وهران، وفي زاوية والده الذائعة الصيت. وإن سعادته الهادئة تؤكّد، مرّة أخرى، جدارته المبكّرة.

وتأهّب الآن هؤلاء الجزائريون، ومعهم كل الذين أدّوا الحج إلى مكّة مثلهم، تأهّب بعضهم للعودة إلى الوطن - لأنهم قاموا بزيارة المدينة قبل أن يتمّوا الحج-، وتأهّب بعضهم الآخر للذهاب إلى هذه البلدة حتّى يسلّموا على الرسول في قبره. وسيناديهم الناس من الآن فصاعدا بإضافة اللقب المهيب والمرغوب فيه إلى أسمائهم و ألقابهم، ألا وهو لقب "الحاج". وكان الحاج محي الدين والحاج عبد القادر من بين أولئك الذين تابعوا رحلة التقى حتى المدينة، هذه التي كانت قبل الهجرة تُسمّى يثرب.

وأقام الحاج محي الدين والحاج عبد القادر ثمانية أيام في مدينة الرسول، المدينة المنوّرة، وذلك بغية إقامة "الأربعين ركعة" في مسجد الرسول، كما جرت العادة، وبغية حضور الخطب التي يلقيها علماء دين أفذاذ، وبخاصة في مجال الحديث، والتي يعقبها دائما نقاشات ثريّة، وتبادل آراء بين العلماء والحضور. وخلال الأيام الثمانية، أمضى الحاج محي الدين والحاج عبد القادر ما يلزمهما من وقت لزيارة الأماكن المهمّة في تاريخ صدر الإسلام، وفي تأسيس أوّل دولة مسلمة في العالم.

وباقتراب نهاية الإقامة، فكّر الحاج محي الدين بأنه لم يحن الوقت بعد للعودة إلى قطنته، لأن باي وهران لم يَنسه بالتأكيد. واقترح على الحاج عبد القادر تمديد مدّة اغترابهما، والاستفادة من هذا الوقت في القيام بزيارة عزيزة على قلبه، كما هي بالتأكيد عزيزة على قلب ولده وقلوب أصحابه، وهي زيارة ضريح سيدي عبد القادر الجيلاني[7]، شيخ الطريقة القادرية الأول، في بغداد، والمدعو "الباز الأشهب".

ويستحضر شرشل، في ما يلي من سطور، هذا السفر الذي قامت به هاتان الشخصيتان، والذي هو بمثابة تكملة "للسفر التلقيني" الذي أصبح في آخر الأمر حجًّا، حيث يقول: "وانفصل محي الدين وعبد القادر عن الأصحاب كي يذهبا إلى دمشق، وأقاما عدّة شهور بهذه المدينة، وتعرّفا على أكبر العلماء فيها، وقضيا القسم الأكبر من وقتهما في الاستماع إلى الدروس الدينية، أو في إلقائها في الجامع الكبير. وبعد هذا، شقّا طريقهما

(7) أنظر الفصل 1 من هذا الكتاب.

نحو حج آخر، لا يقلّ قداسة بالنسبة إليهما عن الحج إلى مكّة إلا بالنزر القليل، وهو الحج إلى ضريح عبد القادر الجيلالي [الجيلاني] الوليّ الصالح الشهير، وليّ الجزائر. وكان عليهم قضاء ثلاثين يوما حتى الوصول إلى بغداد، عن طريق تَدمُر. وبما أنهما ينتميان إلى عائلة مشهورة بكل الهدايا القيّمة التي وضعها الكثير من أفرادها على الضريح المقدّس، فإنهما حظيا باستقبال خاطف السرعة من قاضي المدينة، محمد الزكريا، الذي هو ذاته من سلالة الوليّ الصالح. وقد قَدَّم محي الدين هبةً كيسًا مليئا بالذهب. وإن الشك في القدرات الخارقة التي يتمتع بها عبد القادر الجيلالي [الجيلاني] هي، بالنسبة إلى هذا المرابط، إثم عظيم يضاهي الشك في مهمة الحواريّين بالنسبة إلى المسيحي."(8)

ولكن، لِنَبْقَ، بعض الشيء، في مجال هذه الأسطورة التي لا تتعدى كونها أسطورة ليس إلاّ. وأي ضرر ينجم عن "الانخداع برواياتها"؟ فهي في الواقع، وإن لم يكن من ورائها طائل – كما يزعم الناس–، لا تسبب أي ضرر، مثلها مثل باقي الأشياء المخالفة للمألوف في الحياة. وعلى الرغم من أنها تبدو غير ضارة البتة، فإن هذه الأسطورة تشكّل الإرادة الطيّبة، وتغذّي الأمل في كل ذي تفكير، أي ذاك الشخص الذي يضع فكرة مَثَله الأعلى على رأس إرادته.

والناس يلحظون أن هناك أحلاما كثيرة، وأحيانا شعورا غريبا يتزلق بين ثنايا الشكوك التي تكتنف هذه الأساطير. ولعَّل في الكون أوقات ذات

(8) Charles Henry CHURCHILL, op. cit., p. 54.

أحاسيس قويَّة، لا يُدركها أولئك الذين لا يتمتعون بقدرات روحية مركَّزة وموسَّعَة، ولا تنفتح إلا في وجه من استفاق وضعُه الإنساني بغتةً على تيار ربّاني شديد الأُوار؟ ألم يكن الحاج محي الدين هو ذلك الشغوف بتلك القداسة التليدة الموروثة عن الجد الأوّل، الذي يَنسبه كل سكان القطنة إليه، والذي ينير دربه في كل شيء؟ لم يكن الحاج محي الدين، دونما شك، وفي كثير من السمات، قدّيسا بالمعنى الحصريّ للكلمة، ولكنّ الجانب الروحي منه كان، بملامح كثيرة أخرى، ينتمي إلى الصوفية السُنّية التابعة إلى سيدي عبد القادر الجيلالي على الرغم من أنه، هو نفسه، لم يقل بهذا.

وبعد أن أخذنا بهذا علما، فلنتابع قراءتنا لشرشل الذي يلحّ على "القدرات الخارقة" لهذا الولي الصالح، وعلى زمن إقامة الحاج محي الدين ببغداد، حيث يقول: "لقد حجَّ والده مصطفى (والد محي الدين) إلى بغداد ثلاث مرات، وكان في كل مرَّة يُنعَم عليه بتجلّيات غريبة. فحدث مرَّة، في طريق العودة، و في الوقت الذي كان فيه على مسافة ثمانية أيام من دمشق، أن وجد نفسه بمعزل عن القافلة، وقد أضل طريقه. وجد نفسه وحيدا، وسط الصحراء، فَزِعا، و قد فاجأه ظلام الليل. وفجأةً، ظهر بجانبه زنجي، وعرض عليه أن يقوده حتى المدينة. وفي الفجر، لاحت له المآذن، وكان صوت المؤذن يدوِّي في أذنيه. لقد تلاشى لديه الزمان والمكان كلّية في بضع ساعات. وحدث مرَّة أخرى، حين كان في القاهرة، أن رغب في شراء كتاب. وكان، للأسف الشديد، يعوزه المال الضروري لذلك. وفجأةً، أقبل نحوه شخص غريب، ووضع في يده بعض النقود، ثم اختفى عن الأنظار.

ذلك كان إذاً، في اعتقاد محي الدين، جزاء الإيمان الذي لا يتزعزع بعبد القادر الجيلالي (الجيلاني).

وقد شعَّ نور هذا الولي الصالح المسلم في القرن الثاني عشر. وانتشرت أضرحة تذكارية مخلِّدة لذكراه، في المشرق كلّه. ويُعتقد في الجزائر أن مظاهر العالم الماديّ تسير طوع أمره. فلا يمكن الشروع في سفر، دون القيام بصلوات يسأل المرء فيها حمايته؛ ولا ينقضي سفر دون القيام بأفراح على شرفه. وينسب العرب نجاح عبد القادر وغناه إلى عناية سَميِّه، ذاك القادر على كل شيء. ولكن، في كل مرَّة يُسأَلُ فيها عبد القادر إن كان هو نفسه يؤمن بخرافات كهذه، فإنه كان دوما يجيب رافعًا سبَّابته إلى السماء، وقائلا: 'كانت ثقتي بالله وحده.' "(9)

وكان أن حدث، بعد يوم فقط من وصولهما أمام الضريح، أن رأى محي الدين رؤيا، حينما كان بصدد الانتهاء من صلاة يكتنفها الخشوع والخضوع، و كان ولده عبد القادر يحرس الخيول، متجاذبًا أطراف الحديث مع زوار المكان. لمح إذاً زنجيا سَلّمه تفاحة (وقال بعضهم برتقالـــة)، وسأله عن مكان وجود سلطان المغرب. وبما أن الحاج محي الدين قال له، بُعد تردّد، بأنه ليس هناك سلطان ضمن ذلك الفوج، فإن الزنجي أنبأه بأن السلطان هو ولده عبد القادر. وأضاف مُخبرًا إيَّاه بأن الأتـــراك سيُطرَدون من الجزائر عمَّا قريب... وكان لهذه الرؤيا العجيبة

---

(9) ID. op. cit., pp. 54-55

نذكّر القارئ، لكل غاية مفيدة، بأن 'حياة عبد القادر' التي قيّدها شرشل في كتابه، -هو يقول-: "كتبها بإملاء شخصي منه، وهي مستقاة من مصادر أخرى موثوقة".

الأثر الكبير في محي الدين، وهو أمام ضريح جدّه الأول، الولي الصالح، وزرعت في نفسه أملا عظيما حيث حثّته على تمديد إقامته في بغداد وضواحيها، حتى يتمكّن ولده من الاستزادة في دراسة أصول الثقافة والحضارة العربية الإسلامية على يد شيوخ أفذاذ، وهذا دون أن يبقى جاهلا لأسطورة بابل، باب إلُو أي "باب الله"، ولا لعظمة ما ترمز إليه. وكان موقع هذه المدينة، التي تجمع بين التاريخ والأسطورة والأدب، في ما بين الرافدين، على بُعد نحو مئة كيلومتر جنوب مدينة بغداد الحاليَّة.

وبالفعل، فإن عاصمة العراق بسطت أمام عيني الشاب عبد القادر المبهورتين عظمة ماضيها: التاريخ والدين و الثقافة والعلم و الفن والصروح البديعة والمتاحف، أي بكلمة واحدة كلّ حضارة العراق. العراق، هذه المنطقة التي تقع في الشرق الأوسط، والمكنَّاة "بالهلال الخصيب"، والتي تقع في ما كان يُسمَّى قديما بلاد ما بين الرافدين، والتي أذهلت العالم الغربي الذي كان آنذاك يعيش في القرون الوسطى، والتي مازالت، إلى يومنا هذا، لم تُبْدِ كل ما تزخر به من آثار وثقافة تحسدها عليها، جهارا نهارا، بعض الدول القوية، القديمة أو الحاليّة.

وهكذا، لم يهمل الحاج محي الدين شيئًا بإمكانه أن يفتح لولده أبواب المعرفة والملاحظة والفطنة و المطامح الشريفة. كان يجب أن ينكشف كل شيء أمامه حتى ينمّي ذكاءه.

أمّا بوعلام بسايّح، الذي كان موضوع دراسته شيء آخر، فقد كتب يقول: "وبعد أن انقضى الحج إلى البقاع المقدسَّة، توجَّه محي الدين وولده إلى بغداد حيث توجد قبَّة المرابط الشهير جدا سيدي عبد القادر

الجيلالي الذي تذكر الرواية أن أصل محي الدين ينحدر منه، ويمتد ليصل إلى أعلى قمة في اهرم، أي إلى النبيّ نفسه.

واتّسمت الإقامة في بغداد بزيارة علماء عديدين، ومكتبات كثيرة، حيث أشفى الشاب عبد القادر غليله المعرفي. وتميّزت أمسياته بتوجيه أسئلة إلى والده، عن هذه الواقعة أو تلك، لدى السلالة الأموية أو العباسية أو الفاطمية، وعن فضائل هذه السلالة أو تلك، وعن مسائل دينية كانت قبلا تُظهِر في هذا الشاب نزعة إلى الصوفية. وأمام هذا الانبهار الذي لا يُقاوم بالشرق الأوسط، حيث كل شيء يشير إلى عظمة الله، و حيث كل جامع يدلّ على فترة ما من التاريخ، وحيث كل مَعْلم يشهد على مجد تليد لا يزال أثره حاضرا وباديا للعيان، قرّر محي الدين الحج إلى البقاع المقدسة مرّة ثانية"(10)

ومرّت أشهر كثيرة، وأُذّن في كل مساجد البلاد عن القرب الوشيك لموسم الحج. وبعد أن أتمّوا ضبط كلّ ما يمت بصلة إلى مواردهم، بالنظر إلى رصيد حساب كل فرد منهم، انطلق رفاق الحاج محي الدين، ومن بينهم ولده ومصطفى بن ثامي، إلى مكّة. والتقوا بجزائريين كانوا وصلوا منذ زمن قصير إلى أم القرى. وساءلهم الحاج محي الدين عن إمكانية وضع حد لمنفاه، عند انقضاء هذه الحجة الجديدة، وعن العودة إلى وطنه. وقد عرف أن الأتــراك غالوا في عنفهم، وأن الشعب لا يستطيع أن يكظم غيظه، بعد أن جُبيت منه ضرائب إضافية، وأن هناك أزمة قريبة تلوّح في

---

(10) Boualem BESSAÏH, op. cit., pp. 12-13.

الأفق بين داي الجزائر وفرنسا. وبلغ التوتّر أقصى درجاته بسَبب محاولات التقارب الإنجليزية-التركية، وبسبب وصول أصداء عن الاستعدادات الكبرى السابقة لاعتداء فرنسي محتمَل تكون حُجَّته السياسية هو تصحيح خطأ "حادثة المروحة"، من الداي لــبيير دوفال الذي يصوّره الرأي العام الفرنسي على كونه، على أيّ حال؛ "القنصل الفرنسي المشاكس، والرجل سيء الطويّة".

ومع ذلك، عرف الحاج محي الدين، بارتياح نفسي، بأن قضية أحمد، ولد التيجاني البِكر، كانت قضية قد تمّ البت فيها. وكان معلوما في كل البايلك بأنه في هذه القضية، قضية الهجوم العسكري المفاجئ على معسكر، ساورت الباي حسن شكوك في الحاج محي الدين، بما أن شقيقه علي بو طالب كان له ضلع فيها، وأن هذا كان السبب الحقيقي الذي دفع بالحاج محي الدين إلى المنفى. وقد أكّد له الناس أن شقيقه لم يتردد في معاودة الظهور في دوّاره.

وقدّر الحاج محي الدين، بعد أن اطمأن وتيقن من ذلك، بأنه قد حان وقت العودة إلى الجزائر بعد غياب دام قرابة الثلاث سنوات. و دعا ولده وبن ثامي إلى مرافقته. كان ذلك في عزّ صيف سنة 1829.

وبعد أن قطعوا أرض مصر، دخل الرجال الثلاثة سريعا إلى ليبيا، وتوقفوا لبعض الوقت في عين الغزالة، في سهل برقة، أمام ضريح سيدي مصطفى، والد الحاج محي الدين الذي وافته المنيّة في هذا المكان عند عودته من مكّة. وواصلوا طريقهم، بعد ذلك، مرورا بتونس حيث أبحروا من هنالك متوجّهين إلى الجزائر.

11

أيام درسٍ تعِد بالكثير

وانقضت فترة المنفى.

ومهما كانت كبيرة ومتنوّعة كنوزُ المعرفة التي يجمعها المرء، يوما بعد يوم، عن طريق حواسّه الخمس، وفي المنفى الأكثر تألُّقا، والذي يكون أشدَّ تعلُّقا به، فإنه لا يوجد شيء، في نظر كل إنسان عاقل، بإمكانه إرجاع الحياة والشرف، ولا يوجد شيء بإمكانه إظهار السعادة الكاملة، إلاّ العودة إلى الوطن.

وها قد وطأت أقدام فوج حجاج الغرب الجزائري، أخيرا، أرض الوطن. ووصل الفوج، بعد هذا، إلى مقاطعة وهران، وعلى رأسه الرجل السعيد الحاج محي الدين وولده وصهره.

وانطلق سكان القطنة في إقامة الأفراح، بعد أن أخبرهم فرسان، قبل ذلك بفترة وجيزة، بعودة الحجاج وبتقدّمهم في المسير. وهبَّ الناس إلى ملاقاهم، من كل سهل غريس، ومن كل المناطق النائية المحيطة به.

واستُقبل هؤلاء الذين طال غيابهم، طوال مسيرهم وحتى وصولهم إلى القطنة، بسعادة عارمة ومثيرة. وتوزَّع أفراد عائلة الحاج محي الدين، من عتبة الدَّار إلى مدخل الزاوية، كي يستقبلوا هذا الجمع الكريم من أهلٍ، وأصدقاء، ومقرَّبين، ومتعاطفين، ومسافرين، وفضوليين، وفقراء مساكين. وكانت السعادة، هذه التي ترمز إلى الثقة و الأمل، تشعّ على كل الوجوه. وانتقلت عائلات كثيرة، بتلقائية، إلى ذاك المكان المعلوم للترحاب بعودة الحجاج، مُردِّدين عبارات تليق بالمناسبة. وكانت دموع الفرح تملأ وجه السيدة زُهرة، وهي تشكر جيرانها وأهلها من النساء على كلماتهم اللطيفة. وانهمك محمد سعيد ومصطفى، بعون من أخويهما غير الشقيقين الحسين والمرتضي، و كذا بأبناء أعمامهم و أقاربهم، في استقبال تهاني زوار الحجاج ذوي الهيبة و الاعتبار، وفي الرد عليهم بآيات الاحتفاء والترحاب. وأسرع شيوخ القبائل والمرابطون و الطُلبة والشباب في المجيء إلى الحاج محي الدين الوقور بغية تقبيله، آملين بملامسته هذه في أن ينالوا فأل خير من فيض البركة الربانية التي شملته، هو ورفاقه، في البقاع المقدسة و التي مازالت بادية عليهم إلى الآن.

وصف شرشل جو العودة إلى القطنة وصفا قريبا جدا من الواقع، رغم كونه فلكلوريا (أو ريفيا)، بعض الشيء، حيث قال: "وكانت الأفراح المُقامة احتفاءً بعودتهم سالمين إلى الكتنة [القطنة] عظيمة. وكان أول فرح في سلسلة الأفراح المُقامة، و أشدها استحقاقا للذكر، هو المأدبة الكبيرة التي أُقيمت على شرف عبد القادر الجيلالي [الجيلاني]، حيث ذُبح خمسة عشرة ثورا وثمانون كبشا. وحضر ضيوف من مختلف المكانات

والطبقات، في كل حين، ومن كل مكان، بتلقائية، ودونما أن يُدعَوا إلى ذلك. كان بعضهم يمتطي أحصنة فخمة، وهم بعتاد فاخر يتبعهم مَوَاكب من عبيد (هكذا) وخُدَّام. ومن الطبقات المتوسطة الحال، أقبل بعضهم ممتطيا بغالا، وبعضهم الآخر ممتطيا أحمرة. وفي الوقت ذاته، لم يتوقف مئات الناس، من أكثر الطبقات بساطة، عن إقامة التظاهرات مُستبِقين بشوق استقبال مرابطهم الموقَّر، الاستقبال الخليق بالأمراء.

ولم يكن محي الدين، وهو الذي جرى حسن وفادته مجرى الأمثال، ليضع حدودا لهذا العطاء الباهظ، إذ كان يتوافد عليه، دونما انقطاع، الأسبوع تلو الآخر، ضيوف جُدد ليزيدوا هذه الأمواج العظيمة من الأفراح عظمةً. ولم يستردَّ وادي الحمَّام مظهره الاعتيادي الذي يتميَّز بالهدوء وبالسكينة إلاَّ بعد أن مرَّ به كل عرب مقاطعة وهران، وعديدُ الوفود من قبائل الصحراء، جاءوا يقدّمون آيات الاحترام والتهاني لشيخ قبيلة بني هاشم المحترَم."(1)

وزاد هذا الحج لمرّتين، وهذا الغياب الطويل عن القطنة، من هيبة شيخ قبيلة بني هاشم، وكذا من شعبية ولده عبد القادر، الذي كان يبدو عليه التطوُّر من خلال طريقته في معالجة عدد كبير من المواضيع المثيرة للاهتمام، بالنسبة إلى أترابه من الشباب. وراجت الأحاديث في الأوساط القريبة من الزاوية عن التنبؤات والرؤى المنقولة قبلا من بغداد، والمتعلّقة بالحاج محي الدين وبعبد القادر. وبدت كأنها أحداث وقعت بحقّ.

---

(1) Charles Henry CHURCHILL, op. cit., p. 55-56.

وكانت مخيّلة الجماهير الشعبية المتحمِّسة، زيادةً على مقت مُعلن تحمله هذه الجماهير لإدارة البايلك، تُنبئ، كلَّ من يعرف فكّ الرموز، ببعض مظاهر ثورة عامَّة، لا تنتظر سوى إشارة من زعيم مقدام، يحظى بالتقدير، كي تتحوَّل إلى أعمال بطولية. وكان من الواضح الجليّ أن تأثير الحاج محي الدين لم يبق سليما، على حاله، فقط، بل كان يبدو بالغ الأهمِّيَّة بكثير. ولم يكن الناس يتمالكون أنفسهم كذلك من ملاحظة مدى تلاؤم شخصية عبد القادر الجديدة مع شخصية وريث حقيق لرئيس الدولة الذي كان الناس يرغبون في إعادة بعثه بفضل الحاج محي الدين.

ولنعد إلى شرشل الذي كتب يقول: "ورجع عبد القادر إذاً، عَودًا على بدءٍ، ساكنا، يتمتع بالهدوء في كتنة [قْطنة] والده. وأعرب عن رغبته في الاعتكاف. ولم يكن يتصورّ أية عظمة إنسانية لنفسه. ولم يكن هنالك أي طموح مادي يأخذ بشغاف قلبه. وكان يحتقر إغراءات العظمة والمادة. وكان يكرّس وقته كلَّه للدراسة، بجديَّة، ودونما ملل. ولم يكن هنالك ناسك مترهِّب يتحاشى كل اتصال بأمثاله من بني البشر أفضل منه على الإطلاق. ونادرا ما كان يغادر غرفته، من طلوع الشمس إلى غروبها. ولم يكن ينقطع عن هذا إلا من أجل تناول الطعام أو الانصراف إلى الصلاة. وكان هذا الطالب المُفعم بالحماسة يطالع بشغف كبير أعمال أفلاطــون، وفيثاغورس، و أرسطو، ومؤلّفات أشهر كتاب عصر الخلفاء، ومؤلفــات في التاريخ القديم والحديث، وفي الفلسفــة، وفي فقه اللغة، وفي علم الفلك، وفي الجغرافيا. وكان يطالع حتى كتب الطب. وكانت

مكتبته في تطوُّر مستمر، وهو محاط بأكبر المفكرين الذين لم يكن ليبدِّل الأُلفة التي بينه وبينهم بكلّ عروش الكون.

وكانت القوة الغريبة التي تُدير الإرادة الإنسانية، والتي تجعل قَدَر كل فرد من بني البشر خاضعا لإرادها التي لا تُقاوم، هذه التي هي الحكمة كلّها والذكاء كلّه، كانت تُحدث تأثيرها الخفيّ فيه. لقد زهد عبد القادر في الدنيا. وكان، قبل زمن بعيد، سيخرج من بين ثنايا هذه الدنيا كأحد أبطالها. وكان يكره الحرب، ورغم ذلك كان نجمه سيلمع في وقت قريب، على جبهات القتال، كأنه نجم الدنيا الأكثر تألُّقا."(2)

ومع ذلك، فإن أعداء عبد القادر، من كل جانب، كانوا يحاولون دائما، ولأسباب يمكننا تخمينها بسهولة، جَعْل الغير يُؤمنون بأنه لم يكن سوى مثقف لا أهمية له، بل بأنه "رجل جاهل لم يدرس أبدًا، لا الآداب،

---

(2) ID. ibid., p. 56

يذكر ميشال هابار، مترجم كتاب شرشل، في الصفحة 8 من المقدّمة التي وضعها للكتاب نفسه، ما يلي: "لم يتأسّ عبد القادر أبدا من تبدُد مكتبته، عند الاستيلاء على الزمالة سنة 1843. فالمجموعات الثمينة التي كانت تحتوي عليها تمّ نهبها أو إتلافها. ومنذ عهد قريب منّا، يوم 28 ماي 1968، كان أحد الكتب المنهوبة يُباع في باريس، في فندق درُوو Drouot، في الوقت الذي كانت تُباع فيه أيضا حوالي عشرة مخطوطات قديمة، مصدرها الجامع الكبير في مدينة البليدة، سرقها كلوزيل ورجاله، عند عملية نهب هذه المدينة في شهر نوفمبر من سنة 1830".

أمّا فيما يخص عملية نهب هذه المدينة، فأنظر شارل أندري جوليان، م.ن، ص 67، حيث يقول: "واستولى الفيلق الذي كان قوامه 000 10 رجل على مدينة البليدة، بعد أن قَدِم إليها من مدينة الجزائر يوم 17 نوفمبر 1830 [...] وأمر كلوزيل بتدمير الريف وحرقه. وفي المدينة، كان يُقتَل بالرصاص كل من يحمل سلاحا، وهذا تحت عين القائد الجنرال. وانتهى الجنود بعدم تحمل 'هذه المجزرة' إلا 'بنفور ملحوظ عليهم'."

ولا الفلسفة، ولا العلوم"(3)، كما كان يستبسل في تأكيده، مع خطر تحويل نفسه إلى هزأة، الملازم في البحرية، السجين الشاب، الفظّ و المُحايد، دو فرانس. وكان لعبد القادر متسع في الوقت كي يَرُدّ، بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، على كل هؤلاء المُنتقِصين من قيمته. فقد كتب يقول على سبيل المثال في مؤلفه "ذكرى العاقل وتنبيه الغافل":

"و لا شيء أقبح من الإنسان، مع ما فضَّلَه الله به، من القدرة على تحصيل الكمال بالعلم، أن يهمل نفسه، ويعرّيها من هذه الفضيلة."

"ويلتذّ الإنسان بالعلم لذاته ولكماله، لا لمعنًى آخر وراء الكمال. ولا يخفى على أهل العلم أنه لا لذّة فوق لذّته، لأنّ العلم لا يُستلذّ به إلا عالم."

"وما جاءوا [الأنبياء] ليجادلوا الفلاسفة، ولا لإبطال العلوم. وإنما جاءوا، باعتبار هذه العلوم، على وجه لا يناقض التوحيد، ونسبةِ كل ما يحدث في العالم إلى قدرته وإرادته سبحانه."

"ومن قال هذا مناقض للدين، أو المنازعة فيه من الدين، فقد جنى على الدين."

"وضرر الشرع من جهة من ينصره، لا بطريقته، أكثر ممن يطعن فيه."(4)

---

(3) FRANCE, (Napoléon-Maurice, pseu. A. de), Les Prisonniers d'Abdelkader ou cinq mois de captivité chez les Arabes, 2 t., éd. Desessart et Cie, 1837. (Rééd. Par Ernest Alby, Paris, 1837.)

(4) 'ABD-AL-QÂDIR, Dhikrâ l'akîl wa tanbîh al-ghâfil, op. cit., passim.

ونسمح لأنفسنا في هذا المقام بأن نقوم باستطراد طويل، قبل أن نختم هذا الفصل. وهو يبدو لنا ذا فائدة خاصة لتوضيح زمن الاجتهاد والتكوين الواعد بالفعل لعبد القادر الشاب حتى عودته من الحج.

أكان بمقدور الأمير عبد القادر، فعلا، أن يتفاوض مع العديد من جنرالات فرنسا المشهورين الذين خاضوا حروب نابليون الأول، خطوة خطوة، فيما يخص الإستراتيجية العسكرية، وقوانين الحرب، وفلسفة السلم العادل، وأسلوب الفكر المنطقي، واحترام حق الإنسان، كلّ هذا، دونما تألق في الدراسة و إيمان لا يتزعزع بالله وبالإنسان، ودونما بيئة وُجِد فيها حقا - وكل شيء بالتأكيد نسبي- حبٌ للأرض، ووعيٌ سياسي، ورفضٌ قاطع للظلم الاجتماعي؟ ألا تُظهر الخلافات العظيمة التي ما انفك المؤرخون يكشفون عنها في ترجمات وتفسيرات "النُسَخ الأصلية العربية والفرنسية وبالعكس" للنصوص الرسمية الشهيرة المسماة معاهدة ديـــميشال Desmichels (26 فيفري 1834) ومعاهدة بيجو أو معاهدة التافنة (30 ماي 1837)، ألا تُظهر هذه النصوص جليا، من جهةٍ، "الفن والتكتيك" وإخلاص رئيس دولة حقيقي، وهو الأمير عبد القادر، وتظهر من جهة أخرى التناقضات الخطيرة لحكومة "تأمر بخوض الحروب"، مُسبِّبة أكبر الأذى لجنرالها (ديمشال) بأن جحدت عمله، وهو الرجل الشريف حي الضمير؟

وهذه الحكومة نفسها، التي أصبحت الآن على رأس حملات الغزو ولم تكن بعيدة عن إجراء تغيير وشيك لأكبر جنرالاتها، عينت بيجو، أو ذاك المسمى الجنرال بيجو، الذي سيصبح "الخصم الشرس لعبد القادر"،

والذي "وجه فيالقه ضد بني هاشم، في سهل غريس، حيث هدم زاوية القطنة، في وادي الحمام، مسقط رأس عبد القادر."[5] وكان ذالك من 19 سبتمبر إلى 19 نوفمبر من سنة 1841.

وعلى الرغم من هذا، فإن بيجو مبتكر شعار "بالسيف وبالعربة"، أبدى عن هذا "العدو الممقوت"، كما كان يصفه، آراء استحسانية كثيرة، يعجب المرء منها، مثل هذه: "و إنه لمن الغبطة أن يكون للعرب رجل مثله يقودهم. فهو وحده القادر على توجيههم في طريق الحضارة والتجارة (25 ماي 1837)... إنه عدو نشط، ذكي وسريع، له على السكان العرب تأثير مُستمَدّ من عبقريته وعظمة القضية التي يدافع عنها (1 جانفي 1846)... إنه من المستحيل إظهار قوة نفس أشدّ ومنابع للروح أكثر منه (28 جوان 1843)... إنه رجل عبقري حقا."[6]

وعلى كل حال، إذا كانت الخدعة في الأعمال الحربية أمرا مقضيا، فإن العالَم أجمع يشهد لها بكونها سلاح حرب. ولكنّ التاريخ الاستعماري في الجزائر، مرصع "بطريقة عجيبة" بالوشايات، وبالخداع، وبسوء النية، وبالدسائس القاتلة، وبالأَيْمـــان الكاذبة التي من أشدها إثارة في النفوس، ما بقي وسيبقى دائما في السياسة الكولونياليـــة، وهو إخلالُ فرنسا "لوعدهـــا مرتين" بإطلاق سراح الأمير، كما هو منصوص عليه في شروط استسلامه.

(5) Charles-André JULIEN, op. cit., p. 191.
(6) Charles Henry CHURCHILL, op. cit., (Introd. de Michel Habart, p. 36).

ولم تتوقف الحكومات السياسية والعسكرية الفرنسية عن تجديد تشكيل هذا الحنث باليمين، وتطويره في السر. والحقيقة أن "الشيء المعرَّض للخطر إنما هو القضية المقدسة للحضارة، القضية الخالدة للأفكار المسيحية، التي وعدها الله بالسيادة على العالم، والتي يُعتَبر النظام الفرنسي دعما سماويا لها"[7]

وفي رده على تقلبات سياسة باريس، وعلى اقتراحها المخزي، غداة سجنه بقلعة لامالق fort Lamalgue (نهاية ديسمبر 1847)، بأن تُقَدِّم له "أكثر العروض إغراءً إذا ما تخلى فقط عن الوعد الرسمي الذي قطعه معه الجنرال دو لامورسيير ودوق دومال Duc d'Aumale عندما استسلم"[8]، قابلهم الأمير عبد القادر "بصمت محتقِر" ومُخبِر عن موقفه. ثم صرح بصوت حازم، يفيض خيبة أمل ومرارة، متوجهًا بكلامه إلى الجنرال دوماس "الذي كلفه الملك الفرنسي رسميا" بهذه المهمة المحرجة، قائلا: "لو كنت ستجلب لي، من لدن ملكك، كل ثروة فرنسا ملايين وألماس، ولو كان بالإمكان وضعها كلها في جناح هذا البرنس لرميتها اللحظة في البحـــر الذي يضرب بأمواجه أسوار سجني على أن أتخلى عن وعد رسمي أُعطيتُـــه. هذا الوعد سأحمله في نفسي إلى أن أُقبر. أنا ضيفكم. اتخذوني سجينـــا لكم إذا أردتم، ولكن العار والشنار سيلحق بكم أنتم، وليس بي أنا."[9]

(7) M. POUJOULAT, op. cit., p. 298.
(8) Charles Henry CHURCHILL, op. cit., p. 277.
(9) Op. cit., pp. 277-278.

وسيكون للأمير الموقف المشرف نفسه في سجنه بأمبواز عندما سُلمت له (في نهاية شهر جانفي 1849) رسالة أمضاها المارشال بيجو ديسلي (الذي قضى عليه مرض الكوليرا في 10 جوان 1849). ففي هذه الرسالة ينصحه بيجو، هذا "المُعمِّر المتحمِّس"، بهذه الكلمات، "بصراحةِ صديقٍ صَدُوق" قائلا: "أشير عليك [...] بأن توطِّن نفسك على جعل فرنسا وطنا لك، فتطلب من الحكومة بأن تُعطيك أملاكا جيّدة في أرضها، ينتج لك منها ما تعيش به، كواحد من كبرائها، مع مداومتك على أداء وظائفك الدينية كما تريد، وبلوغ مرادك من تربية أولادك."[10]

وكان هذا الاقتراح، طبعا، مثيرا للتقزز في نفس الأمير الذي رد عليه بتصريح شديد اللهجة قائلا: "لو أن كل كنوز العالم وضعت أمام رجلي، ولو أنني خُيِّرت بينها وبين حريتي لاخترت حريتي. أنا لا أطلب لا العفو ولا المعروف. أنا أطلب تنفيذ التعهدات التي هي الأساس في الاتفاق الذي عُقد معي.

لقد طلبت وعد رجل فرنسي كشرط لاستسلامي. وقد قطعه على نفسه جنرالٌ فرنسي، دونما قيد أو شرط. وقد أقرّه جنرال آخر، هو ابنُ الملك. وهكذا، فإن فرنسا ملزمة أمامي، كما أنني ملزم أمامها. وإن الرغبة في محو الماضي هي طلب المستحيل. لن أُحِلّكم من وعدكم،

(10) Boualem BESSAÏH, De l'Émir Adbelkader à l'Imam Chamyl, le héros des Tchétchènes et du Caucase. ENAG/ÉDITIONS, Alger, 2001.
انظر النص الكامل للرسالة في الصفحة 239 من كتاب بوعلام بسّايح.

سأموت به مسببًا لكم العار الأبدي والخزي. وبهذا، يعرف الملوك والشعوب، عن طريقي، أي ثقة يجب أن نضعها في وعدِ فرنسي."[11]

وكيف نفسر كذلك هذا الأثر، أثر الافتتان الكبير واللباقة الكبيرة، الذي كانت تحدثه مراسلات الأمير في المتلقّين إياها، رجالا ونساء، مدنيين وعسكريين، رجالَ سياسة ورجالَ أدب، إذا لم تكن موسومة بالثقافة، ولم تكن نابعة من فكر غير عادي بعض الشيء؟

وبالإضافة إلى هذا، فإنه لم يتوقف، في أي فترة من حياته، عن متابعة إنجازه، إنجاز السلم والحب والتسامح والإيمان بالوضع الإنساني. ويُقِرّ مقال نشر في مجلة تايمز Times، يوم 10 أكتوبر 1851، بأن "عبد القادر، انطلاقا من سجنه الفرنسي، يحقق إنجازات في العالم، أكثر مما كان يحقق في زمن مضى، وهو على رأس خيالته العربية."[12] وصدرت منه هذه الفكرة الرائعة، ذات النفوذ الطويل الأمد، والأبدي، وهي أن "كل المخلوقات، من أعظمها إلى أحقرها، مكرسة للخير ولخدمة هذا الكل العظيم الذي يسمى الجنس البشري."[13]

وإنه لمن الصواب، دونما شك، أن نذكر هنا اللامبالاة الخطيرة والمذهلة التي كان عليها بعض المثقفين الفرنسيين من ذوي الصيت حيال غزو الجزائر، في الوقت الذي كان فيه مغرمون بالأدب، في فرنسا، يبذلون ما في وسعهم لتشجيع فكرة "الديمقراطية" تشجيعا حسنا. ولم يظهر هنالك

(11) Charles Henry CHURCHILL, op. cit., p. 292.

توجد روايات أخرى لهذا الجواب، و لكن ليس بينها فرق كبير يُذكر.

(12) Charles Henry CHURCHILL, op. cit., (Introd. de Michel Habart, p. 38).

(13) Op. cit., (Introduction de Michel HABART, p. 38).

أي سيل صاخب من أفكار لكتّاب وفنانين، شغوفين فعلا بالحقيقة وبالعدل، يأخذ في غمرته ذاك اللطف المتكلّف والخطير الذي كان يبديه روائيون عديدون، مولعون بصُوَر مثيرة في بلد تعيث فيه فسادا الحرب الاستعمارية، مدعومةً بالطغيان الإقطاعي المحليّ، هذا البلد الذي كانت تسطع فيه، على الرغم من ذلك، صورةُ ملحمة شعبية كان من الأجدر إظهارها للعالم! بل إن الأمر كان، ويا للأسف، أكثر من ذلك بكثير، حيث قدّر بعض هؤلاء المؤلفين بأنه كان من الشرعي بدء معركةِ حربٍ صليبية جديدة، فخلطوا معنى كتاباتهم بأفكارٍ فظيعة لعسكريين متحمِّسين عشقا "لإله الحروب، إله المعارك... [و الذين، بعد] ارتباطهم من جديد مع المحاربين الصليبيين، [قالوا بصراحة]: إنما الشيء المعرض للخطر هو القضية المقدسة للحضارة، القضية الخالدة للأفكار المسيحية التي وعدها الله بالسيادة على العالم، والتي يُعتبر النظام الفرنسي دعما سماويا لها."(14)

وحيال غزو الجزائر، كان هناك فيكتور هوغو Victor Hugo، العظيم، عبقري الكلمة، الذي جعل من الإنجيل أحد كتبه المفضّلة (يبحث فيه "ليس فقط عن مادة شعرية، ولكن، أولا، وعلى وجه خاص، عن أساليب التعبير"(15))، زعيم الحركة الرومانسية، عظيم فرنسا، الديمقراطي بعد سنة 1848، النائب في الجمعية التأسيسية، الجمهوري المقتنع، المدعو "L'écho sonore" أي "الصدى الرنّان"، الداعي إلى الرحمة والطيبة، ولكن أيضا الداعي، غير المتوقّع، إلى الخيلاء والتطرف في الكلام، هذا

(14) M. POJOULAT, op. cit., pp. 285-288 ; p. 298 ; p. 301.

(15) G. LANSON, Histoire de la littérature française, Hachette, Paris, 1946, p. 935.

الذي لم يتخذ موقفا من الحملة، و لم يأخذ في الحسبان ضياع حرية الشعب الجزائري في هذه الحرب "حرب الحضارة ضد البرابرة".

وقد تفرد هوغو بالفعل، سنة 1852، ربع قرن بعد حملة 1830، بنظمه شعرا عن الأمير عبد القادر. وإن الحقد الذي كان يحمله لنابليون III، زمن القمع الذي تلى انقلاب 02 ديسمبر -حيث كان فيكتور هوغو نفسه في المنفى-، وأيضا زمن الاحتدامات العسكرية للجنرال راندون Randon الذي استقرّ في إتمام غزو الجزائر مع ضباطه، هذا الحقد الذي يحمله لهذا المدعو "Troplong" أي "المُفرِط في الطول"، أطلق العنان لفنّه الغني بالهجاء اللاذع، وبالتفاصيل المتضاربة المعاني. ولكن، هنا أيضا، وبطريقة ما، كما كنا كتبنا من قبل، "يجب الإقرار، ويا للأسف! بأن هذا الشاعر الكبير غير قادر على التوضيح و التفكير. فهو يطلق تفسيرات خاطئة، جسيمة، عندما يخلع على نفسه ثوب الناقد، ويطلق تناقضات فادحة عندما يخلع على نفسه ثوب المُنَظِّر. فأفكاره الأدبية مبهمة ومضطربة. وأفكاره الفلسفية والسياسية والاجتماعية، وكذا نزعته التأليهية ونزعته الجمهورية ونزعته الديمقراطية هي كلها أفكار متوسطة المستوى، تنعدم فيها الأصالة، غير دقيقة البتة، وهي متناسقة بطريقة رديئة [...] ففيكتور هوغو ذكي كفنان بدائي."(16)

ولكي يَصم عدوَّه إذاً بالعار، جاء "رجل الثاني من ديسمبر" في زيارة للأمير – سجين فرنسا – يوم 16 أكتوبر 1852، إلى قصر أمبواز(17)،

---

(16) ID. ibid., p. 1050 et note 1.

(17) Pierre MONTAGNON, op. cit., p. 383. →

لِيُعْلِمه بإطلاق سراحه. وقد ذكر هوغو هذه الزيارة في قصيدته Orientale "شرقية". فهو، في هذه القصيدة الوحيدة تحت عنوان Orientale "شرقية" في ديوانه Châtiments "العقوبات"، يرسم بطريقة فيها تناقض صارخ الصورة الجسديـــة والروحية لكل واحـــدة من هاتين الشخصيتين البارزتين، في ملحمـــة امتزجت فيها مأســـاةٌ مثيرة للعواطف، لبطل المقاومة الجزائريـــة، ضحيةِ إخلافٍ للوعد من قِبَل دولة أجنبية، وثورةٌ ملتهبة ومنفردة لشاعر عبقري غزير الإنتاج. ولكن، كون هوغو في تباين جلي، وهو نشوان بهوًى ينعدم فيه نور الحب، للرجل- المكافح في سجنه ذي اليأس المقيت، فإنه يظهر بشكل متناقض، وقد أفسدته الخيلاء، والأعمال الشائنة لرجل عادي جدا. ومهما بدا عظيما شِعرُ هوغو، في هذه المواجهـــة الهجائية المتقنة، فإن الشاعر الثائر كان -شأنه في ذلك شأن الإنســـان الفظ الساخط، معصب العينين بإرادته، يضرب دونما تمييز كل شيء يتحـــرك، (بل وحتى الشيء الذي لا يتحرك)، شأنه شأن شخص مبتلًى، فاقد للأمل،[1] ينتقم من القدر عن طريق شخص مسخَّر- كان يبحث لنفسه عن فريسة مصابة في القلب. وقد وجد هذه الفريسة، وعلى رأس سريرها، نثر كل حبات سُبحة السباب المغلَّف بكلمات واقعية ورائعـــة! وإلا كيف السبيـــل إلى التفسير، بوجه آخـــر، هذه

← يقول بيير مونتانيون ملاحظا: "الأمير في أمبواز مع ذويه. وقد غدا هذا القصر سجنا له. هذا القصر المشحون بالتاريخ، حيث وُلد و مات فيه ملك (هو شارل الثامن)، ورُمي من على أسواره المتآمرون الهوغونوتيون أي البروتستانتيون الفرنسيون. ويعلم نابليون بأن سابقيه لم يكونوا مُنصفين."

الإستراتيجية الشعرية العنيدة التي قام بها فيكتور هوغو؟ فهو، كي يركز الاهتمام بطريقة غير مباشرة على شخصيته المجيدة، فإنه كان يحوّل قارئه عن الواقع التراجيدي في ذلك الوقت، وهو همجية الغزو المرهقة. وبالإضافة إلى هذا، فإن الكراهية التي كان يحملها للأمير بقيت على حالها، وهذا إن لم تكن أكثر حدة، عندما منحت جمعيةٌ الأميرَ لقب الرئيس الشرفي سنة 1861، لحكمه لصالح التسامح والسلام، معرضا حياته للخطر، خلال الوقائع الخطيرة التي حدثت بين مسيحيي دمشق ومسلميها سنة 1860. وقد كتب فيكتور هوغو بالفعل في مؤلّفه Choses vues: "إن الشرقي يتدخل في الغربي تدخلا مثيرا للسخط، في بعض الأحيان. فالحضارة الأوربية بدأت ترسم الخطوط الأولى للأتراك، بطريقة مضحكة، إذ أصبح عبد القادر السيّد برودوم M. Prud'homme *"[18] وصحيح كذلك أن هوغو سبق وأن كتب، سنة 1853، قائلا: "عبد القادر يخلط بين السيّد برودوم و محمد."[19]

وفي سياق آخر، عندما وجهت لهوغو دعوة إلى حفل أقامه أحد أبناء لويس فيليب Louis-Philippe، يوم 6 جويلية 1847، "هَمَّ بوصف بومعزة وصفا سريعا [... حيث قال] 'لبومعزة عينان جميلتان، ولكنّ نظرته خبيثة.

* هو شخصية اختلقها الكاتب الفرنسي هنري مونيي Henri Monnier يُجسِّد فيها بطريقة كاريكاتورية البرجوازي الفرنسي الراغب في مواكبة ركب التطور في عصره والمتيقِّن من امتلاكه لكل المعارف وفي كلّ الميادين. ولكنه يبقى، مع ذلك، في كلّ الأعمال التي يقوم بها، شخصا يتميّز بالبلاهة والوقار المتصنَّع والتقيّد بالأعراف.(المترجم)

(18) Victor HUGO, Choses vues, Laffont, Histoire, p. 1316.
(19) Victor HUGO, Choses vues (1849-1885), éd. Gallimard, Paris, 1972, p. 297.

وله فم جميل، ولكنّ ابتسامته بشعة. فذاك خائن وشرس؛ وفي هذا الرجل الثعلب والنمر. وإننا بهذا نقترب من احتقار الأعراق."[20] هذا، وحتى نعود إلى حديثنا عن موقف ڤيكتور هوغو من الأمير عبد القادر، حَسْبُنا أن نقرأ إذن القصيدة التي نحن بصدد الحديث عنها، والمُعَنْوَنة Orientale 'شرقية'، والتي صدمت ضميرنا بعد أن اكتشفناها مصادفة في سن المراهقة. وضَنُّنا[21] أن فئة قليلة فقط من الجزائريين يعرفون بوجودها حتى بعد الاستقلال، ذلك أن المدرسة والجامعة الجزائرية، في عهد الاستعمار، كانت تدرس "كل أعمال هوغو" تقريبا، ولكنها، وهي المتسمة "بالتكتّم" و الحذف، كانت تشد بقوة على كتاب Les Châtiments "العقوبات"، الكتاب المتميز بقوة هجائية متفجرة ضد إمبراطورية نابليون التي رمت بالشاعر خارج فرنسا، وكانت، بوجه خاص، تحرص كل الحرص على هذه القصيدة "Orientale" المتضَمَّنة في هذا العمل الشعري، بسبب ما يمكن أن تُطْلِع الجزائريين عليه.

---

(20) F. LAURENT, Victor Hugo face..., Maisonneuve & Larose, Paris, 2001, p. 28.

(21) استنتجنا هذا من سلوك جموع الحاضرين، المُصغين باهتمام، والذين كان جلّهم من الجزائريين (أساتذة وطلبة) توافدوا على المحاضرة القيّمة بعنوان ' Victor Hugo face à la conquête de l'Algérie' أي: 'فيكتور هوغو في مواجهة غزو الجزائر' التي ألقاها يوم الخميس 19 ديسمبر 2002، في المركز الثقافي الفرنسي بالجزائر العاصمة، فرانك لوران Franck LAURENT، مدير سلسلة الكتب الصادرة بعنوان ' Victor Hugo et l'Orient' أي: 'فكتور هوغو والشرق' (والتي من ضمنها كتابه ' Victor Hugo face à la conquête de l'Algérie') الصادر سنة 2001.

وفيما يلي نص القصيدة كاملا:

"عندما رأى عبدُ القادر، وهو في سجنه،
الرجلَ ضيّقَ العينين يدخل عليه،
هذا الغريب الأطوار، هذا المفرط في الطول،
هذا الذي يدعوه التاريخ نابليون الثالث،

هذا الذي، من نافذته، رآه قادما،
يتبعه القطيع الذي يخدمه،
هو رجل الإليزيه المريب،
وذاك رجل الصحراء المفترس،

فذاك هو السلطان المولود تحت النخيل،
رفيق الأُسد الشُهب،
الحاج، الوحشيّ، ذو العينين الهادئتين،
الأمير المتأمِّل، الشرس والوديع،

فذاك شخص مُغتمٌّ ومشؤوم،
خيالٌ شاحبُ ببرنس أبيض،
كان مُهتزًّا، ثملا بارتكاب المجازر،
ثم سقط في الظلمات على ركبتيه،
ذاك الذي خرج من خيمته، فاتحا شراك الصيد،
داعيا على حافة الطريق،

هادئًا، مُظهِرًا للنجوم،
يديه المضرّجتين بدماء البشر،

ذاك الذي يروي ظمأ السيوف،
وهو الحالم، المُكتنَف بالأسرار،
جالسا على رؤوس مقطوعة،
متأمِّلا جمال السماء.

وبرؤيته تلك النظرة المخادِعة الخائنة،
وهذا الجبين المُطأطأ، المُسودَّ من الخزي،
ذاك الجندي ورجل الدين الوَسيم،
قال له: هذا الرجل، من يكون؟

و قُبالة هذا القناع الحقير المُشورَب،
تردّد، ولكن قيل له:
"- انظر، يا أمير، مرور القطّاعات!
هذا الرجل هو قيصرٌ شرِّير.
استمِع إلى هذه الشكاوي المُحزنة،
وإلى هذا العويل المتنامي.
هذا الرجل تلعنه الأمهات،
وتلعنه النساء.
هو يُثكلهنّ، هو يُحزنهنّ،

استولى على فرنسا وقتلها،
فهو الآن ينخر جثته."
وعندئذٍ، سلّم الحاج عليه.

ولكن في قرارته، كانت كلّ أفكاره،
تحتقر هذا الوغد الجارح،
فالنمر ذو المنخرين المقطّبين،
اشتم هذا الذئب بازدراء." (22)

---

(22) Victor HUGO, Les Châtiments (Livre III, La famille est restaurée, VI, Jersey, Novembre 1852), Laffont, Poésie II, p. 69, ou autres éditions.

انظر الحوار الطويل الذي أجريناه مع الكاتب فرانك لوران، ونشرته جريدة ليكسبراسيون L'Expression، الجزائرية، يوم الخميس 2 جانفي 2003، في الصفحات 12 و 13. وقد أعرب بدقّة عن فكرته حول موضوع موقف فيكتور هوغو بالنسبة إلى الأمير عبد القادر. وإليك مقتطف قصير جدا من الحوار:

"... الآن، و فيما يخص قصيدة ' Orientale'، يجب إعادة قراءتها. أنت بالفعل تقول إنها صورة 'مذهلة' للأمير عبد القادر. وبالطبع، فإنه بالنسبة إلى نظرة معاصِرة، وأكثر من ذلك بالنسبة إلى نظرة معاصرة من جزائري، فإنه لا يجد في القصيدة عبد القادر الذي يتصوّره، إذا صحّ التعبير. وفي هذا، أنا متفق معك.

وبالمقابل، إذا ما قرأنا القصيدة بنظرة هوغو، فإننا نجدها تضع نابليون الثالث والأمير وجها لوجه. وإذن نجد الأمير عظيما. هناك صورة لرجل معقّد، متناقض، ومن بعض النواحي، هو متوحّش ودموي، إلخ. ولكنه عظيم، إذ في نفسه هذا الإلهام شبه الرباني، وهذه القيم الروحية اللازمة. فهو في بعض الأبيات 'الحاج'، 'الأمير المتأمّل، الشرس والوديع'. حسنا، هي، على وجه العموم، وفي نظر هوغو صورة ليست بعيدة من أن تكون إيجابية، ليست بوجه كامل إيجابية طبعا، ولكنها تحمل قِيَما - وهذا ليس لنابليون الثالث على الإطلاق. ففي هذه القصيدة، الأمير هو الصديق، 'رفيق الأسود الشقر' ، 'رجل الصحراء المفترس'. هذا كلّه له دلالة رمزية إيجابية جدا لدى هوغو. أما نابليون الثالث فيصوّره على أنه 'الوغد الجارح' ، 'الذئب'. ←

وإن ملاحظة المؤرخ شارل أندري جوليان Charles-André Julien ليست بالملاحظة الخرقاء، حيث يقول: "وفي الأخير لم يكن أمر الوفاء بالوعد المقطوع باسم فرنسا من أجل التسلي، بل من أجل الموازنة بين "رجل الإليزيه المريب" و "الأمير، المتأمل، الشّرس، والوديع". وبقيت الأسطورة حافظة للزعيم الدموي. والحال أن هوغو أدرك طبعَه المزدوج، طبع المقاتل والإمام... وعلى العكس من ذلك، فقد استخف "بالوغد الحقير" استخفافا كبيرا، في الوقت الذي شكر فيه الأميرُ هذا الملكَ رسميا حتى إنه رصد له قصيدة شكر وحمد."[23]

ولنختم الآن هذا الاستطراد الذي قد يفضي بداهة إلى أفكار تكون محل مناقشة، ولنُنْهِ هذا الفصل بالعودة إلى صورة الشخص الذي نحن بصدد الحديث عنه...

في هذه الفترة، كان عبد القـــادر، الذي أتم عامه العشرين، يفكر مليا في ما قد رأى في مصر، وفي ما أثار حماسته هنالك في كل مكان،

← وهناك، من جهة أخرى، في مسألة عبد القادر، كما ذكرتُ آنفا، تصريح لهوغو، هو اعتراف منه، أثناء فترة المنفى في الستينيات، حيث أعدّ قائمة سمّاها ' Les bandits légitimes' أي 'الأشرار الشرعيون' الذين يقاومون الغزو، الاجتياح، إلخ [...] وعلى هذه القائمة، يوجد اسم عبد القادر. ومن هذا، فإن كفاح – وهي لفظة مهمّة– المُقاوم 'شرعي'. ولكن، بالطبع، عندما نقرأ هذا لأول وهلة...

[...] فالآخر(المقصود هو هوغو) على الأقل، هو ربّما، شرس، ولكنه مُلهَم، هو رومانسي، هو ملحميّ. في الأمر هذا أيضا. ففي تناول هوغو لموضوع غزو الجزائر، ليس هنالك ملحمة، ولم يجعل منه أبدا صورة ملحمية. فلم يكن بيجو أو كافينياك ليصبحا بطلي ملحمة بقلم هوغو. أما عبد القادر، في هذه القصيدة، فهو بطل ملحمي. هو ملحميّ، مريب، و لكنه شخصية عظيمة. فهو يترك في النفس تأثيرا كبيرا."

(23) Charles-André JULIEN, op. cit., p. 259.

وفي كل الظروف. كان يرفض أن يستسلم للزمن الضائع، والفراغ، وأن يبقى في حالة انتظار شيء يجهله، كان سيظهر في مكان ما كي يستنهض الهمم، ولكنه لم يظهر. لقد كان يتلهف لأن يصبح، هو، رجل أفعال في القريب العاجل.

لقد علمه سفره الطويل إلى مكة والمدينة أن حرية الوطن تُنتزع من المحتل بالسلاح، كما علّمه بأن أصله - وقد كانت له أكثر من مناسبة لإثباته- يرجع إلى أكبر المكافحين، أكبر المدافعين عن العلم والثقافة، أكبر المربِّين والخيِّرين وهو النبي محمد عليه الصلاة والسلام. فمن سيرته الأخلاقية والروحية والسياسية والاجتماعية، استقى عبد القادر أكبر التعاليم لأجل سيرته الخاصة، في زمان وفي عالم، حيث التساهل والأنانية والفساد والظلم تثبِّط عزيمة الإرادات الخَيِّرَة، وتمنع الأحلام والآمال عن الشعوب.

وكان لعبد القادر، في زمن مبكر، هذا الشعور الغريب بما ستكون عليه حياته في زمن غير بعيد، وتلك الأيام الهادئة حين كان يُدَوِّن أفكاره، والتي كانت إلهاما سَبْقِيا بالنسبة إليه، كما سيكتب ذلك بروعة في كتابه "ذكرى العاقل وتنبيه الغافل". كانت أياما "نَضِرَة تفوح بالعطر، كما الأزهار التي يكسوها الندى قبل أن تحرقها الشمس بأشعتها."

12

سبيل الحب

كان الشاب، الحاج عبد القادر - كما كان يُنادى عليه غالبا - يكرّس أكثر ما يستطيع من وقته للدراسة وللعبادة الموسومة بتصوّف مستوحىً من الشيخ محمد الفاسي الذي قابله في مكة. وقد طور هذا التصوّف تدريجيا بفضل قراءاته لأعمال الصوفي الأندلسي محي الدين محمد بن العربي. وكان، رغم ذلك، مداوما على القيام بنشاطاته البدنية والرياضية المفضلة (الصيد والمصارعة الحرَّة والمسايفة والرماية)، وعلى المشاركة في بعض الألعاب و المسابقات الخاصة بالفروسية في القطنة.

ولم يكن عبد القادر ليبدي عدم الاهتمام إزاء الطلبات المُلحّة التي كان مصدرها زمرة أصدقاء من أترابه كانوا يرغبون في لقاء "حاجهم" غالباً، وهم الذين يأتون من أجل التعلّم في الزاوية، أو حتى إلى بيته في بعض الأحيان، يسألونه الرأي والنصيحة أو التحكيم في آلاف المسائل التي تثير اهتمامهم. وكان هذا يلائم عبد القادر أتمّ الملاءمة لأن التأمل

والعمل، بالنسبة إليه، في الوقت الراهن، وفيما بعد، عندما يُعيِّنه القدر ويختاره الشعب للدفاع عن وطنه، كانا الشيء نفسه.

ويمكننا أيضا، الآن أن نتخيل صورة الشاب، الحاج عبد القادر، وهو يدرس أو يناقش أو يصلِّي. قد يكون في الأمر مجازفة، يقينًا. ولكن، بعد هذا الكم من الصور، صوره في تلك الحقبة من الزمن، والتي قد تقترب من الأصل (وكيف نحكم عليها اليوم بوجه آخر وبصورة جدّية؟)، وحتى تلك الصور التي يُقال إنه قام بها رسامون كبار (ستانيسلاس شيبوبسكي Stanislas Chebobski، تيسيي Tissier) ونُقّاش على الخشب مَهَرَة (فرانسوا جورجين François Georgin، أويو Huyot) ورسامو صحافة بارعون (كما فعل على سبيل المثال، دومون Dumont في Le journal illustré 'الجريدة المصوّرة' الباريسية لسنة 1865 في الصفحة 239)، بعد هذا كلّه، أي ضمان يمكن أن نحصل عليه عن أصالة مجموعة صور قَلَّمَا أُعدّت بكثير من الواقعيّة أو وفقا لنموذج طبيعي؟

و قد ندّد مصطفى لشرف، بحق، بظهور صورة كاذبة للأمير عشية الاستقلال، و لاسيما "خلال الاحتفال بذكرى مرور مئة سنة على موت عبد القادر [...] حيث كانت صور عبد القادر الأصليـــة تمثل بالكاد ربع ما خصه به الفرنسيون، أما الباقي، فكان عبارة عن صور يظهر فيها ما يُزعَم أنهم وطنيون جزائريون في تلك الحقبة. وهي، في الواقع، تتعلق بمتعاونين مشهورين مع الاستعمار وبخونة الجزائر المكافحة في السنوات

1830-1847."[1] وهذا أمر حدث كذلك بمناسبة نقل رفات الأمير عبد القادر إلى الجزائر في جويلية 1966، حيث وُزّعت صورة تُمثّل أميرا كئيبا، ذا وجه قبيح الطول، دميم وبارز التقاطيع، ولم يكن يعكس وجه ذاك المقاوم الجزائري النشيط.

وتُظهر صورة بالطباعة الحجرية أعدّها أوغست براي Auguste Bry عبد القادر شابا، معتدلا، وقورا وهو يُسبّح بالسّبحة. وهي صورة محفوظة في مكتبة متحف الجيش بفرنسا - وأعيد نسخها، دون ذكر التاريخ (لأسباب معروفة!) في كتاب الجنرال بول آزان الذي يحمل عنوان: "Les Grands soldats de l'Algérie[2]" أي: "عظماء العسكريين في الجزائر".

(1) M. LACHERAF, Écrits didactiques sur la culture, l'histoire et la société, éd. ENAP, 1988, pp. 213-214.

وفي سياق الفكرة نفسها، كتب مصطفى لشرف يقول: "ضف إلى ذلك، فإن صور الأمير المُزيّفة، الرسمية، تتكاثر وتحتل الصدارة في الأماكن المحترَمة، مثل صورة فرحات بن اعمر الشهير، هذا الذي دلّ الفرنسيين، سنة 1843، عن الموقع الجغرافي بالضبط لزمالة عبد القادر، فاسِحًا المجال أمامهم للهجوم عليه وأسر عدد كبير من النساء والأطفال، وهذا دون ذكر العدد الهائل من الموتى والمسجونين. وكان ذلك بغتةً، وتبعا لتعليمات هذا الخائن. والواقع أن صورة فرحات بن اعمر، هذا الذي يظهر مُسدِلا لحيته على طريقة عبد القادر، تحلّ محل صورة عبد القادر في عين الجزائريين المُغرَّر بهم، وهذا بسبب خطأ السلطات وقلّة يقظتها. فصورة فرحات بن اعمر حلّت محل صورة عبد القادر حتّى في الأماكن التي لا نتوقّعها مثل المستشفى العسكري في عين النعجة." انظر:

M. LACHERAF, Des noms et des lieux. Mémoire d'une Algérie oubliée, Casbah-éditions, 2e éd., Alger, 2003, p. 16.

(2) P. AZAN, les grands soldats de l'Algérie, Cahiers du Centenaire de l'Algérie, IV, Orléans, Pigelet, s.d. p. 53.



صورة بالطباعة الحجرية من إعداد أوغست براي Auguste Bry

(مكتبة متحف الجيش بفرنسا)

الحاج عبد القادر بن محي الدين

مستنسخة من كتاب بول آزان الذي يحمل عنوان "عظماء العسكريين في الجزائر".

(Paul AZAN, Les Grands soldats de l'Algérie, Cahiers du Centenaire de l'Algérie, p. 53.)

"ففي هذا السجل الذهبي" صُوِّر عبد القادر في زيّ مدني، على العكس من العسكريين الفرنسيين العظماء، ومن اثنين آخرَين من "الأهالي الجزائريين" (وهما مصطفى بن إسماعيل، وماري إدوارد يوسف، اللذين خدما في الجيش الأفريقي).

كان يبدو في هيئة متعاظمة، رغم ميله الطبيعي إلى البساطة، مرتديًا غندورتين إحداهما من قطن والأخرى من صوف، وعليهما برنسان أحدهما بنّي والآخر أبيض. وكان على رأسه عمامةٌ بيضاء يشدها على رأسه بعقال رفيع من وبر الإبل، وتحتها ثلاث عرقيّات ملفوفة بها. كانت هذه العمامة تغطي رأسه ثم تنسدل على كتفيه تحت ياقة الغندورتين. وكانت تغطي وجهَه البيضاوي الممتلئ لحيةٌ سوداء غير كثة. ووجهه ذو جبهة عريضة بارزة، مع وشم بالكاد يمكن رؤيته بين حاجبين رقيقين جدا، مرسومين بروعة فوق عينين كبيرتين حلوتين "ذواتي لون رمادي-أخضر شديد الصفاء".[(3)] ومن على كل جانب من فمه الصغير تقريبا، ذي الشفة السفلى الأكبر بقليل من العليا، ينحدر شاربان. وأنفه الطويل القائم يساوي بين تقاسيم وجهٍ يشع شبابا، رغم الشحوب اللافت للنظر الذي يعتريه.

ولنَدَع الأمر لشرشل ينوب عنا في وصف عبد القادر، في سن لم يسبق له أن عرفه فيها، (حيث سيعرفه في بروسّا سنة 1853 فقط)،

---

(3) Toustain du MANOIR, Au Pays d'Abdelkader (Journal). - R.A., t. 98, n° 440-441, 3^e-4^e trim. 1954, pp. 113-152.

الكاتب هو ترجمان شاب، رافق القس سوشي SUCHET، سنة 1841، لمفاوضة الأمير من أجل إطلاق سراح الجنود الفرنسيين الذين كانوا وقتَها في الأسر.

ويُظهره لنا، مع ذلك، كما لو أنه سبق له أن رأته عيناه. ولكن، ألم يكن كاتب السيَر الإنجليزي الملاحِظ القوي هذا قد استوحى وصفه من التشابه الذي قد لاحظه في ملامح محمد، ولد عبد القادر البكر، الذي لعله كان في مثل سن والده من سنة 1829، حين التقى به أول مرَّة في بروسّا؟ فهذه فرضية لا يعوزها القرب من الحقيقة، على كل حال، إذا ما أخذنا بعين الاعتبار كون هذا الكتاب قد عبّر في مقدمة كتاب La Vie d'Abdelkader "حياة عبد القادر" عن "حماسته الخاصة، العفوية والصادقة، لكل ما هو عظيم ومشرِّف ورومانسي"[(4)]، إذ الرومانسية التاريخية-الشعرية كانت رائجة جدا في بداية الشطر الثاني من القرن التاسع عشر.

ولنفرض إذاً بهذا القرب من الحقيقة لهذه الصورة بالطباعة الحجرية كمُسلّمة وكصورة "سابقة للملحمة" عن عبد القادر، صورة أعدّها شرشل في قوله: "كان وجهه، وهو من النوع التقليدي الأشدّ صفاءً، فاتنا بجماله المُعبِّر والذي يكاد يكون أنثويا. فأنفه، ذو الحجم المتوسط والمرسوم بدقّة، كان مزيجا رائعا بين النمط الإغريقي والنمط الروماني. وشفتاه المنحوتتان بمهارة، والمُسترِقّتان قليلا، كانتا تنمان، في الوقت نفسه، عن تحفظ مفعم بالشرف، وعن حزم شديد في الطبع؛ بينما كانت عيناه الكبيرتان والمتألقتـــان ذواتا اللون الرمادي الأحمر، تُشِعّان، وهما تحت

(4) Charles Henry CHURCHILL, op. cit., p. 43.

جبين عريض أبيض كالرخام، بعذوبة تطبعها الكآبة. وكانتا تَبرُقان، في بعض الأحيان، بألق الذكاء والعبقريّة."[5]

ومهما كان من أمر، فإن الذي جعل شباب القطنة يُكنّون الإعجاب والاحترام للشاب الحاج عبد القادر، ويتعلقون به تعلقا كبيرا، إنما هو ذاك السحر القوي في شخصيته، النابع يقينا من ذكائه وثقافته وورعه السليم، وهو أيضا أفكارُه الشخصية المتطورة المطهَّرة من كل تزمّت، وكذا ملامحُ كثيرة في سيرته الخُلُقية المعتدلة التي تسيرها نفس عظيمة أصيلة لأنها حرة، مستقلّة، كريمة، و مقتدرة.

ولهذا، كانت تلك الأسابيع القليلة، بعد عودته من الحج، كافيةً للحماسة الملتهبة لأصدقائه أنفسهم حتى تذيع في الناس، بانفعال وسعادة، قصة الرؤيا العجيبة والرائعة التي حظي بها الحاج محي الدين أمام ضريح سيدي عبد القادر الجيلالي ببغداد.

ولكي يتحاشى الحسد الخطير من قِبَل ما بقي من إقطاعيين مُصرِّين على الخطيئة، فإن الحاج محي الدين قرر أن يكرّس وقته حصريا لقطنته. وقد كتب بسايح يقول: "لقد وطّد العزم على أن ينعزل عن الشؤون العامة، وثابر على مضاعفة أفعال الخير، مدفوعًا أكثر، لا شك في ذلك، بشعور عبادة تطورت بالحج. فهذا الموقف مكّنه من تبديد شكوك الأتراك حوله."[6]

(5) Charles Henry CHURCHILL, op. cit., p. 82.
(6) Boualem BESSAÏH, op. cit., p. 13.

والواقع أن عبد القادر كان يدرك جيدا، بفضل عقله الثاقب، أن والده، على الرغم من كل ما قال وما بدر منه، كان كرَجُل أمة، يهدف إلى الإبقاء على روابطه بممثلي السكان المجاورين، وإلى توطيدها. وأعاد عبد القادر طلب المشاركة في هذه الاتصالات مرات عديدة، وهذا بهدف تكوين نفسه من حيث العلاقات بين شيوخ القبائل.

وبما أن الحاج محي الدين كان قد تيقّن، بعض الشيء، من تطور النفوس في صالحه، ومن الأمن في المنطقة، فقد انتهى بتقدير الفائدة من تعويد ولده على علاقات بمثل هذه الأهمية. و في السرّ، أعد له فرصة تكون بمثابة امتحان له، حيث أوكله ذات يوم مهمة كان عليه القيام بها وحده لدى شقيقه علي بو طالب، شيخ قبيلة غرابة. وكان على عبد القادر أن يتفاوض مع عمه في قضية تشترك فيها القبيلتان. وهذا ما أسعده طبعا. وإنه لفي هذا حقا مَكمَن مغامرة من أجمل المغامرات التي ترسِّخ لدى الشبان العرب دفقا من مشاعر رائعة لعلاقات الحب الأولى، والتي هي لدى عبد القادر، بالإضافة إلى هذا، ستتطور في قصائد تتفجر بالأحاسيس القوية والدائمة في حياته، حياة الرجل والزوج والقائد المحارب ذي الانتصارات البطولية، ورئيس الدولة المهيب الجانب والمحترَم والإنساني العظيم المعترَف به و المكَــرَّم. ثم إن هذا الشاعر الذي كانه أيضا، كان يعرف أكثر من غيره "بأن سبيل الحب ذل للمراد". وكان بمقدوره، أفضل من غيره، أن يتغنى للصــوت المضخم لدقات قلبه باعترافــات الهوى الأكثر حلاوة حيث قال:

ومن عجب، هاب الأسد بطشي ::: ويـــمنعني غـــزال عن مـــرادي
ومــا ذا؟ غـــير أنّ لـــه جمـــالا ::: تـــملّك مهجتي مـــلك السواد

وقال أيضا:

إذا ما النــاس ترغب في كنوز ::: فبنــت العـــمّ مكتنـــزي و زادي

وإذ يعرف الناس كونه فارسا مغوارا، فإنهم يفهمون بأنه واضع هذا التصريح البطولي الذي قال فيه: "ليس الفارس ذاك الذي يمتطي جوادا أصيلا فقط [ولكن] ذاك الذي ينصاع إلى [رغبات] حسنائه؟"(7)

وها هو ذا عبد القادر، الممثل الوحيد لشيخ قبيلة بني هاشم، ينطلق إذًا، منفردا، إلى قبيلة غرّابة ليقوم بالمهمة التي أوكلها إليه والده الحاج محي الدين.

(7) Abdelkader BENHARRAT, L'Ouvre littéraire de l'Émir Abdelkader, in revue Promesses, n° 8 du 05 juillet 1970, éditée par Ministère de l'Information, Alger, 1970, p. 58.

13

ثلاث حبات مقابل ثلاث زهرات:
حبة مرجان، و حبة صبِر، و حبة قهرمان

في آخر النهار، كان عبد القادر "يسير على وقع سنابك حصانه، بمحاذاة نهر صغير مظلّل بأشجار الخرّوب"[1]، هذا النهر الذي يلتقي بوادي سيق، غير بعيد عن قطنة عمه عليّ بو طالب.

وفجأة، و هو على منعطف درب مُغبرّ، وقعت عيناه على امرأتين. لمحته المرأتان كذلك، وصدرت منهما حركة تنبئ باحتراس مُعلَن. ولكنّ نظر عبد القادر تمكّن من الإحاطة بملامح وجهيهما. كانت إحداهما، يقينًا، أكبر سنا من الأخرى، و قد تكون الأم (لعلّها آمنة)، أو تكون إحدى العجائز الشريفات في بيت شيخ قبيلة غرّابة. وفي حركة تدلّ على اللطافة والحياء، أغضت أصغرهما عينيها السوداوين المحفوفتين بأهداب طويلة وكثّة. وكانت مشيتها المسرعة والأنيقة تنمّ عن فتاة ذات قدّ ممشوق،

(1) حسب أنطوان دو لاكروا من كتابه سالف الذكر، وحسب مصادر أخرى مختلفة، بالنسبة إلى المقطع السردي التالي.

وانسجام ساحر، أَحيَت في نفس ذاك الشاب مشاعر إعجاب مكتنَف بالاحترام.

ورغم ذلك، تجاوز عبد القادر المرأتين، وأسرع بحصانه راكضا حتى يمتثل أمام عمه عليّ بو طالب، قبل غروب الشمس. استقبله عمّه شخصيا، بكل احترام وتقدير، وأمر بأن يُعدَّ له وجبة تليق بضيفه، وتناولها معه في العشاء، هو وبعض المدعوين من القطنة.

وتَبادَل الرجلان، شيخ قبيلة غرَّابة ومبعوث شيخ قبيلة بني هاشم، وجهات نظرهما واقتراحاتهما في ما يخص المسائل ذات الاهتمام بين القبيلتين ذات القَرابة. وفي نهاية المقابلة، لم يتمالك شيخ القبيلة العجوز من أن يكتم سعادته بالاستماع إلى ابن أخ ذكيّ ومتواضع، وبالحديث إليه والتفاوض معه. وبعدها، قام الضيوف إلى المصلّى لأداء صلاة العشاء بإمامة عليّ بو طالب.

وفي الأخير، وبعد بعض المجاملات، افترق الجمع للخلود إلى النوم، وذهب المدعوون إلى خيمة الضيوف. وفي طريقه إلى الخيمة التي أُعدَّت خصيصا له، سمع عبد القادر شهيقا مكتوما، مصدره من داخل خيمة مجاورة، على بعد بعض الخطى منه. كانت تلك الخيمة خيمة عائلة عمّه. وتوقّف مندهشا. ثم بدأ صوت فتيّ يغني بنبرة خافتة جدا وشجية:

"أنا الحسناء بنت الزعيم القوي
أبكي لأن رجلا رأى وجهي
فبعد هذا، لن أتزوّج أبدا، وَيحِي!

ففي اليوم الذي تُزيح وصيفتي عنّي اللحاف
في بيت العروس
قائلةً لزوجي: ها هي ذي زوجتك!
عندئذ يحمرّ وجهي، وأمامه أرتجف
مفكِّرةً في ذاك الوسيم، الغريب عن الديار
ذاك الأوّل الذي رأى وجهي."(2)

تأثّر عبد القادر من فرط هذا الأسى وهذا الشعر الذي ينمّ عن ثقافة، فدنا باحتشام من الخيمة، وبهدوء، سأل تلك التي كانت تبكي عن اسمها. إنّها خيرة. فمن تكون خيرة هذه؟ لقد أخبرته بأنها تلك التي لمحها ولمحته على الدرب. وفي قرارة نفسه، أحس الجيّاد عبد القادر فجأة بتلك اللباقة الرقيقة التي تتملّك الرجل النبيل، فأعرب لها بعفوية عن الإقرار الوحيد لقلبه، وهو أن يتخذها زوجة له. واحترامًا منه لقواعد الأدب، أجهد نفسه في الاستماع إلى محاورتها المقتضَبَة جدًا، منسحبًا بلباقةِ فارسٍ عاشق، ومنتزعًا منها وعدا قاطعا بإمكانية رؤيتها ثانية في الأجل القريب.

أكان هذا مجرد قصة خيالية؟ أكان هذا هذيان خيال مجنّح لكُتّاب سيرة فرنسيين مولعين بوقائع أفريقية وشرقية مثيرة للإعجاب في هذا العصر، عصر الرومانسية الغربية المغرمة بالأوهام العاطفية؟ أكان هذا

(2) ID. ibid., p. 21.
وللتوضيح، فإن القاعدة، في العائلات قديما، كانت بالفعل تقتضي أن لا يلتقي أبناء العم وبنات العم. وكانت هذه القاعدة مُطبّقة بصرامة أكثر عند مرحلة البلوغ، بالنسبة إلى الذكور والإناث. فالبنت، ومنذ هذه المرحلة التي يتطور فيها جسمها، لا تظهر أبدا سافرة الوجه أمام الذكور.

انبلاجا قريب الشَّبه من الواقع لمقاربة حب عربي وبدوي، في شعر يحيا في الحال؟ أكان هذا إحساسا افتراضيا، تمّ إلحاقه عن قصد بجوهر الرومانسية التي نحن بصدد الحديث عنها، وهذا على غرار قصص الحب العذري المشهورة؟ وبهذا الشأن، ألا تعطينا أشعار عبد القادر عن "قصص حبه" ما يكفي من أمثلة للتيقُّن من قرب هذه الرواية من الواقع أو عدمه؟(3)

ويبقى أن هذا الحدث المدهش، حَسَب هذا الشَّبه القريب من الواقع، تطور كما في قصص بلاد الجن، حيث يتطوّر الشخص في عالَم وحدَهم الجن يعرفون كيف يتذوّقونه، ويهنئ بعضهم بعضا عن الحظ الذي أُوتُوه للعيش فيه. فها نحن في منتصف الليل، وإذا بعجوز تظهر بغتة في خيمة عبد القادر، مقدِّمةً له ثلاث زهرات، كانت قد قطفتها الشابة خيرة من على ضفاف الوادي، قائلة له: "واحدة بيضاء، وهي شهادة على طهارة جسدها؛ والأخرىورديّة، كما المتعة التي هي شعارها؛ والثالثة داكنة، كما الليل، رمز الأسرار الخفية."

ولأول مرة، هزَّ عبد القادر شعورٌ غريب، يضرب في أعماق نفسه الطاهرة.

وبعدها، أخبرته العجوز بأنه سيمكنه ملاقاة خيرة في مطلع النهار. فهي معتادة على الخروج مع إحدى وصيفاتها لتغتسل صباحا، في مورد الماء المجاور، تحت الأشجار. أبهجه هذا الخبر، وأعاد له كل القوة في

---

(3) Henri PÉRÈS, op. cit. ; Salah KHERFI, Propos sur un poème : l'Émir Abdelkader a-t-il aimé une dame française ? in Cah. Alg. Litt. Comp., Alger, 1968. انظر أيضا: ممدوح حقي، م. ن.

أحاسيسه وحيويته. فقدَّم، هو بدوره، لتلك التي فتنته "حبة مرجان، وحبة صبِر وحبة قهرمان." وأخبر تلك العجوز، المبعوثة الغريبة، قائلا: "الأولى تعبر عن حبيّ، والثانية عن صبري، والثالثة عن سعادتي." وكافأها بأن أعطاها قطعة نقد ذهبية ثمينة.

وفي اليوم الموالي، التقى عبد القادر الشابة خيرة في المكان المتّفَق عليه، وأعاد عليها عزمه الذي لا يلين على الزواج بها، منبهرًا بتلك "الطيبة" المتجسِّدة في ابنة عمه. قبلت خيرة، وبقيا صامتين. ولم تكن الحاجة تدعو إلى الحديث عن الحب، لأن كلّ واحد منهما كان يشعر بأن الطرف الآخر سعيد بالعيش في كنف هذه المغامرة العجيبة، المفاجئة.

وبعد وقت قصير، عكَّر صوتٌ خفيف آت من أجَمَة هدوءَ الشابين. وأحسّ عبد القادر بأن أحدا ما كان يراقبهما. ودنا من المكان الذي صدر منه الصوت، واكتشف شابا، هو من قبيلة غرّابة، لا شك في ذلك. وفجأة، أظهر هذا الشاب نفسه، وبدأ يتفوّه بكلمات نابية مؤذية في حق الشابين. وبما أن عبد القادر كان يدنو منه أكثر فأكثر كي يهدِّئه، فإن ذلك الشاب، وهو يتقدم تارة ويتأخر أخرى، شَهَرَ سكينا كبيرا وأظهر النية الصريحة في استعماله. وعندئذٍ سلّ عبد القادر سيفه الأحدب الذي يحمله معه دائما عندما يتنقل خارج القطنة. وانسحب ذلك الشاب مسرعًا دونما أن يكف عن سبابه و تهديداته. وتبعه عبد القادر بعيدا في الغابة.

وبعد عَدْو سريع جدا، أمسك عبد القادر بالشاب الأرعن، في خضمّ الوادي. وأعقب ذلك اقتتال عنيف بينهما. وعندما حاول عبد القادر

تجريد الشاب من سلاحه، أصابه به. ولم ينته القتال إلاّ بعد أن تلون بعض سطح الماء بلون الدم الأحمر، و بعد أن خيّم على الريف صمت الفاجعة الرهيب.

وعاد عبد القادر، مسرعَ الخطى إلى مورد الماء، وهو يشعر باضطراب نفسي لأن ذلك المتحمِّس دفع حياته ثمنا لسلوكه الغبيّ. وكان يشعر أيضا بسعادة غامرة، لأنه خرج سليما من ذاك الاعتداء الفظيع. ولكنّ خيرة كانت قد غادرت المكان خائفة، ولم يجد به سوى وصيفتها التي طلب منها أن تبّلغ آسرة قلبه هذه الرسالة: "أبلغي سيدتك بأنه يمكنها أن تنام بأمان في خيمتها، و هي تفكر بي. فالعينان اللتان رأتانا معا قد أُغلقتا للأبد، واللسان الذي قد يخوننا خرس."[4]

ولكن لا طائل من هذه المأساة إذا ما كان مجرى الحياة مملوءا حتما بالتناقضات، وإذا لم يكن بمقدور أي أحد تغييره! وهكذا، غالبا تبسُط الأسطورة سطوتها العليا على المأساة!...

وبهذا، قطع الشابان، عبد القادر و خيرة، بإرادتهما، الصلات مع ما يُعتبر أحيانا، اليوم، وفي مجتمع مسلم يقال عنه إنه متحضر، بمثابة مبادئ رجعية أو انتماء إلى روح تجارية جشعة. والحال أنه في هذه الواقعة، يتعلق الأمر بمشروع زَواج مبني على الحب و الاحترام المتبادَل، مشروع زواج هُيأ بسرعة، بفضل المستوى الفكري و الأخلاقي العالي لكل واحد منهما، مشـــروع الزواج هذا الذي سيُعقد في سعادة غامرة. وبالإضافة إلى ذالك،

(4) A. de LACROIX, op. cit., passim.

فإن عبد القادر، بمقابلته خيرة، قام بفعل مطابق لمبدأ إسلامي، وتصرّف تصرّف رجلٍ شهم لن يتوقف عن أن يكُونَه في المستقبل.

ويمكن التمثيل على هذه الملاحظة المزدوجة بما يلي: جاء في الرواية أن عبد القادر، وهو يمدح النبل لدى العرب، هذا النبل الذي كان متعلقا به كثير التعلق، لجأ فعلا إلى استعمال صورة رمزية لكي يقنع أحد محدثيه من العسكريين الفرنسيين. ويجزم هذا المتحدث بأن النبل بالنسبة إلى الأمير عبد القادر هو "ليس ضرورة اجتماعية فقط، بل هو ناموس من نواميس الطبيعة". ولم يكن هذا المتحدث سوى الجنرال دوماس الذي نعرف مقدار الامتياز الاستثنائي للصداقة التي كان الأمير يقرّ له بها.

فها هي ذي تلك الصورة الرمزية الرائعة والمثقّفة التي أوردها دوماس: "ذات يوم حدثني الأمير عبد القادر قال: خذ لك دغلا كثير الأشواك، واسقه مدة عام بماء الورد. فهو لن يعطي سوى الأشواك. وخذ لك نخلة، ودعها دونما ماء ودونما رعاية. فهي ستثمر دائما تمرا."[5]

وكذلك، فإن عبد القادر أوضح أفكاره بدقة، بإجابته على الأسئلة العشرين التي طرحها عليه هذا الجنرال. وهي تخص بعض مظاهر المجتمع الجزائري. كان أحد هذه الأسئلة يتناول موضوع الزواج، حيث أجاب الأميرُ بقوله: "إن المسلمين لا يتزوّج أحدهم إلا بَعْد النَظَر إلى من يريدها من النساء، أو يرسل امرأة عاقلة، عارفة بما يستحسنه الخاطب و يستقبحه

(5) Eugène DAUMAS, op. cit., p. 459.

من صفات النساء وأحوالهن فتنظرها، ثم تُخبره بما رأته من صفاها وأحوالها. واعلم أن شرع الإسلام لا يمنع من النظر. بل يجوز للرجل، إذا أراد أن يتزوّج بامرأة، أن ينظر إلى وجهها ويديها ورجليها. كما يجوز للمرأة أن تنظر إلى الرجل الذي تريد أن تتزوّج به. وقد ورد في الحديث الشريف أن النبي صلّى الله عليه و سلّم قال: 'إذا أراد أحدكم أن يتزوّج بامرأة فلينظرها، فإن بذلك تدوم الألفة و المحبة بينهما' [...] فالتزويج من غير رؤية غرَر. والغرَر يكون في الجَمال و في الأخلاق. فالغرَر في الجَمال يزول بنظرِ كلٍّ من الرجل والمرأة إلى الآخر. والغرَر في الأخلاق يزول بسؤال الجيران ومن يخالط ك كلا منهما. ولا يَصْدُق في الخبر عن الجَمال والأخلاق إلا من كان عالما بهما، صدوقا في خبره."(6)

ولنُضِف إلى هذه الأفكار، هذا المقطع من "ملاحظات الأمير عبد القادر" يربط فيه بين حبه للحصان وحبه لزوجته، وهذا يوم كان تواضع الرجل على صلة بغنائية الشاعر، وبعزة المحارب، حيث كتب قائلا: "لقد أعددت لنفسي، في حال لم يكن الزمان حليفي، فرس سباق ذا خِلْقَة كاملة، ولا يضاهيه فرس آخر في السرعة. ولِيَ أيضا سيف برّاق يقطع جسد الأعداء، بضربة واحدة. ومع ذلك، عامَلَني الزمان كما لو أنني لم أذق أبدا لذة الركوب على صهوة شارب هواء، عاملني الزمان كما لو أنني

(6) Mohammed ben ‘ABD EL QÂDIR AL DJAZÂIRI, Tohfat ez-Zâ ir fi Ma âthir el-Amir ‘Adb-el-Kader wa-Akhbâr el-Djazâir, Présent au visiteur qui veut connaître les faits mémorables de l’Émir Abd-el-Kâder et l’histoire de l’Algérie, Alexanderie, 1903.

تُرجِم المقطع الذي يهمّنا من قِبَل ش. كسّار. انظر:

Ch. KESSAR, in revue Promesses, n° 8, 5 juillet 1970, op. cit.; pp. 83-84.)

لم أضع قلبي أبدا على نهد بَتُولِيٍّ لامرأة محبوبة ذات رجلين مزينين بخلاخيل من ذهب."(7)

ولكن، على كل حال، أهو حقا أمر مدهش أن يظهر طبع كهذا لدى عبقري في هذه العظمة وهذا الكمال؟....

غادر عبد القادر قطنة عمه عليّ بو طالب باكرا حتى يتمكن من الوصول إلى عائلته في اليوم نفسه. وعرض على والده تفاصيل مهمته. وبعدها، ودونما أن ينتظر لحظة أخرى، سأل أخته خديجة - مُحْتَرِما التقاليد- أن تُعْلِم أمهما عن نيته في الزواج بخيرة، ابنة عمه.

وغمرت السعادة قلب السيِّدة زُهرة ثم قلب الحاج محي الدين لأنهما أخيرا رَأَيا في هذا حلا لآمالهما العريضة المكتومة. فابنُهما، بالنسبة إلى القرآن والسنة وأعراف البلد وتقاليده(8)، بلغ سن الزواج و زيادة. وكونه أبدى الرغبة في الارتباط "بفتاة من نسب مُساوٍ لنسبه، ذات سمعة غير مثلومة، وذات جمال -إن كان إلى ذلك سبيل- "، وهذا حسب ما يتمناه كل شيخ قبيلة عظيمة، أو حسب ما يتمناه كل ابن بيت عظيم، وهي فوق ذلك ابنة عمه، فإن هذا لم يكن ليغيظ الأب والأم على الإطلاق. أهناك بَيِّنَة أشد من هذه وضوحا تدلّ على أن خيرة بنت العم، ستكون زوجة في مستوى تربية عبد القادر ومستقبله الزاهر؟...

---

(7) Eugène DAUMAS, op. cit., p. 345.

(8) قديمًا، كان الأولياء يزوِّجون أبناءهم وبناتهم في سنّ مبكِّرة جدا، وأحيانا بالنظر فقط إلى بلوغهم. كان هذا يحدث في القرى حيث تُجبر حياة الريف الصعبة جدا الأولياء على زيادة أفراد عائلاتهم بسبب حاجتهم الماسة إلى اليد العاملة.

هي، فعلا، ستكون زوجة في مستوى هيبة الأمير المستقبلي، وستكون عونا مستنيرا ووفيا لتشد أزره عندما تثقله، بالمرارة وبالآلام الكبرى، مصائبُ قَدَر انقلب ضده.

وبعد أشهر قلائل مرّت على طلب الزواج، هذا الذي جعل الخطوبة رسمية، حدّدت العائلتان المتحالفتان يوم الزفاف المنتظَر بشوق، وأُذيع الخبر في القبيلتين معا.

ونظرا لما سجّلناه عن سن الزواج بالنسبة إلى شباب ذلك الزمان، وخاصة في غياب عقد زواج مكتوب، فإنه من غير الممكن إثبات تاريخ الارتباط القانوني بين عبد القادر وخيرة. ويصعب الأمر أكثر في تحديد سن خيرة أثناء هذا الاقتران.

وفضلا عن ذلك، فإن قِلّة فقط من المؤلفين أبدوا اهتماما بهذا المظهر في زواج الأمير. هو دون شك مظهر خاص، ولكنه على كلٍّ مظهر تاريخي. لقد ذكره بعضهم، وأشار إليه بعضهم الآخر دون تفصيل: "في السن الخامسة عشرة تزوج من ابنة عمه ليلى هيرة (هكذا) [و يقصد به لالّة أي السيّدة خيرة] التي كانت هي كذلك تتميز بجمالها وبخصالها الحميدة" (شارل هنري شرشل، الكتاب المذكور، ص51)؛ "وتزوج [عبد القادر] بلالّة خيرة، ابنة عمّه سيدي عليّ بو طالب" (محفوظ قداش، الكتاب المذكور، ص 12)؛ "كان يكنّ الاحترام لوالدته لالّة زهرة، ولزوجته زينب (هكذا)، التي كانت ابنة عمه" (شارل أندري جوليان، الكتاب المذكور، ص181)؛ "و زوّج [الوالد] عبد القادر بابنة عمه خيرة بنت السي عليّ بوطالـــب، وانقضت سنة 1825، وبعدها ببضعة أشهر

أُعلن استيلاء الفرنسيين على مدينة الجزائر" (بوعلام بسايح، الكتاب المذكور، ص13).

ونعلم كذلك أن الزيجات كانت تتمّ بحضور رجل دين، كان، مع ذلك، لا يفعل شيئا سوى أن يُعَرِّف الحضور الكريم (الأهل والأقارب والأصدقاء والأعيان) بالوعود المقطوعة، وبالالتزام الديني المتبادل بين الطرفين المتعاقدين، مُتَّبِعا في ذلك شعيرة مقدّسة. وكان رجل الدين هذا يتولّى مسؤولية الإشراف على صدق التصريح الشفهي لممثّلَي الشابين قيد الاقتران (وهما على العموم أبواهما اللذان يمتلكان، حصريا، حق الإخبار عن موافقة الزوجين التّامة)، وعلى صدق الشهود المطلوبين والمختارين بدقّة، خاصّة وأن طبيعة المهر التقليدي الواجب تقديمه تقتضي التصريح به، وفي بعض الأحيان بالتفصيل، وأن يؤكِّده ممثلا الزوجين المذكورين سابقا.

ويُنهي هذا المشرف على شرعية الزواج، الزواجَ الذي هو بصدد إقامة مراسمه، بتوسلات ودعوات طويلة يسأل الله فيها أن يبارك الزوجين الشابين، وأن يوطّد علاقات الزواج المقدَّس بينهما. وبعدها، يقوم رجل الدين هذا، المُقيم لمراسم الزواج، بتلاوة سورة الفاتحة، فاتحة الكتاب، التي تعتبر من أجمل وأحقّ الخواتيم المأخوذة من القرآن، والأكثر استعمالا في مثل هذه المناسبات الاحتفالية. وغالبا ما يردّد معه الحضور هذه التلاوة، وهم كلُّهم تأثّر ونشوة.

إن الزواج، بالنسبة إلى عبد القادر، هو حقيقةً ارتباط قطعي وإخلاص دائم. فهو لم يتزوّج إلا بامرأة واحدة، وكان لها مُحترِما إلى

آخر رمق من حياته. كان هذا مبدأ رجل شريف، مثقف وورع. زِد على هذا، أن إحساسه الرقيق بكل ما يمس الإنسان، وبخاصة المرأة، كان يُذْكِي ذكاءه ويثير حنانه. وكان قلبه وأحاسيسه المرهفة تنادي فيه دائما ذلك الشاعر العظيم والمتحمّس كي يفك القيود التي تكبّل فنّه في نظم الكلام، وهذا حتى يتسنى له أن يكون، في كل مرّة، حاضرا في المواعيد الكبرى، مواعيد الحب والصداقة.

ولم يكن بمقدور سوى المرأة أن تروّض الأمير "الأسد"، لأنه كان يوليها اهتماما متناهي الرقّة. فلم يكن البتّة يسمح لنفسه بأن يمنع عنها حقّها من الاحترام والحب الشريف الذي هي أهل له. ومَرَدُّ هذا هو تربيته على الاحترام الذي كان يكنّه طوعًا لوالدته، السيدة زهرة، ومن ثمّة للمرأة عموما ولحبيبته خيرة، طبعا.

وعن خيرة كان يقول، بسلاسة هادئة، كشاعر مغتاظ شيئا ما، ولكن شاعر أريب، وعلى وجه الخصوص كريم وفاتن جدا:" كانت ابنة عمّي تغضب عليّ و تواجهني بما أكره، فأصبر لها وأفي حقّها، و قلت من قصيدة فيها:

"و أخضـع ذلـّة، فتـزيد تيـها ::: و فـي هجري، أراها في اشتداد
فـما تنفـكّ عـني ذات عـزّ ::: و ما أنـفك في ذلـّي أنـادي
فـما في الذلّ للمحبـوب عـار ::: سبـيـل الحب، ذل للمـراد
و من عجب، تـهاب الأسد بطشي ::: و يـمنعني غزال عن مرادي"[9]

---

(9) ممدوح حقّي، م. ن. قصيدة : بنت العمّ، ص ص ، 41-42

ولنبقَ في نطاق الأفكار التي طرقناها، ونذكر مُلحة لها علاقة برأي ظريف جدا صدر من الأمير عن "عدد الزوجات" الذي تخوّله الشريعة الإسلامية للرجل المسلم، علماً أن هذه الشريعة تفرض شروطا شديدة الصرامة وشديدة الوضوح.

ففي فترة اعتقاله، بدءًا من 20 أفريل 1848، في قصر بــو château de Pau المسيَّج بالقضبان تسييجا مُحكما، والمُحاط بمخافر حراس لصدّ محاولات الأمير أو مرافقيه من الفرار من السجن، كان الأمير يحظى بزيارات عديدة لرسميّين ولموفَدين خاصين من الحكومة الفرنسية، وهذا بغية تقدير الحالة النفسية لسجينهم الشهير. ومن بين الزُوَّار الذين كان الأمير يكرِّس لهم ساعات من المقابلات، كانت هناك جموع غفيرة من الفضوليين، يأتون من كل مناطق فرنسا، رغبةً منهم في "رؤية" الزعيم العربي وعائلته.

وفي هذا العرض المتواصل للزوَّار، كانت سيدات المجتمع كذلك يأتين لزيارة والدة الأمير وزوجته. "وبينما كانت سيدة شابة، جميلة وأنيقة جدًا، تلهو مقلدةً إياهما في تصفيف شعرها على طريقة نساء الجزائر، فإذا بها تجد نفسها بغتةً أمام الأمير، وطرحت عليه سؤالا غريبا:

– 'لماذا تتزوجون بعدّة نساء، وليس بواحدة فقط، مثلما الحال عندنا؟

– يا سيدتي، نحن نحب الواحدة من أجل عينيها، والأخرى من أجل شفتيها، وواحدة أخرى من أجل جسدها، وفي الأخير، نحب أخرى من أجل فكرها وقلبها. فلو وجدنا كل هذه مجتمعةً في امرأة واحدة مثلك، ما كنا لنختار أخريّات!'

كان هذا عبد القادر الشاعر الذي كان يتحدَّث."[10]

وبالعَوْد إلى تاريخ زواج عبد القادر، فإنه من المؤكَّد أنه كان متزوِّجا قبل معركتي خنق النطاح وبرج رأس العين (3 ماي 1832)، كما تشهد على ذلك القصيدة التي نظمها بالمناسبة حيث كتب يقول، من بين ما قال من أبيات:

فقالت: أيا ابن الراشديّ[11]، لك الهنا ::
:: كفى، فاترك التسيار واحمد وجى النوى
ألا يا ابن خلاد[12]، تطاولت للعُـــلى ::
:: وباينـــت مأواك الكـــريم وما حوى[13]

فزواج عبد القادر بن محي الدين وخيرة بنت عليّ بو طالب أُقيم، في الظاهر، في خريف سنة 1829.

(10) Boualem BESSAÏH, op. cit., pp. 216-217.

(11) ابن الراشديّ: يقصد نفسه، وهو من باب الافتخار بالنفس.

(12) ابن خلاد: مبالغة من خالد، كنّى به على فكرة 'الخلود'.

(13) ممدوح حقّي، م. ن. ص 30 . وانظر: Henri PÉRÈS, op. cit., p. 5.

14

خيط الروح

بعد صلاة الفجر من ذلك اليوم المشرق، في خريف سنة 1829، عمَّ قطنة عليّ بو طالب نشاط عظيم امتزجت فيه موسيقى آلات النَّقر بالزغاريد وبطلقات البنادق وبالأغاني، وهذا تناوبًا بين النساء والرجال. كان ذلك اليوم هو 'نهار الرّفود' أو 'نهار الرَّواح' أي هو اليوم الذي تُزفُّ فيه العروس إلى بيت زوجها.

وكان قد مضى حوالي ثلاثة أشهر مذ انتقل الحاج محي الدين، مع سبعة أو ثمانية من أصحابه، وهم في أبهى حلَّة و يمتطون أحسن جيادهم، إلى أخيه عليّ بو طالب يخطب ابنته خيرة زوجةً لابنه عبد القادر.

وقَبِل عليّ بو طالب تزويج ابنته خيرة، دونما لحظة تردّد، بابن أخيه المتألّق، ذاك الذي يَذكُر له مهمتَّه في قطنته. كانت هذه المهمَّة مفاجأة سارة بالنسبة إلى العمّ. وكانت المقابلة التي كان ينشِّطها عبد القادر، بالنسبة إلى شيخ قبيلة غرَّابة، بمثابة مثال عن الكفاءة والذكاء والحكمة ذات التأثير الكبير. والحقّ أن أبويهما، على الخصوص، كانا سعيدين لأن

ولديهما قد أسهما، باختيارهما الإرادي في الاقتران معا، في تقوية الروابط بين القبيلتين ذات القرابة. وبعد أن تمّ تقليل كل الاجتماعات التقليدية وغير الضرورية إلى الحد الأدنى، وتمّ ترتيب كل الاعتبارات القَبَلية والاجتماعية، وبخاصة الدينية، (ومنها على سبيل المثال مقدار الصداق الذي يجب على الزوج تقديمه لزوجته)، وتمّ تسوية كل الترتيبات المادية الخاصة بالزواج، تبادل شيخا القبيلتين أطراف الحديث، واتفقا في الحال.

وهكذا تمّ في الوقت نفسه تحديد 'نهار الملاك' أي يوم الخطبة الرسمية.

ولهذا، فإن البندقية و القلاّل كانا يدوّيان بكل قوّة في قطنة عليّ بو طالب. واقترب موعد زفاف العروس إلى قطنة الحاج محي الدين.

وانهمك الناس في بيت شيخ قبيلة غرّابة، بسعادة، في ذهاب ورواح غير منقطع، يُتِمّون تشكيل الموكب الذي سيأخذ العروس الشابة خيرة، بنت العمّ، إلى عريسها، الشاب عبد القادر.

وبما أن المسافة بين القطنتين طويلة، فإن والد عبد القادر وحاشيته في هذه المناسبة (وهم أفراد الأسرة و المدعوّون وبخاصة منهم، وتبعا للعرف و العادات، فتيات مختارات من بين الأصغر سنا والأكثر جمالا)، قرّر المجيء عشية ذلك اليوم. وقد أُعدَّ لهم الكثير من اللُمجات، وبعدها قُدِّم طعام كثير، لهم وللمدعوين الذين قدِموا متأخِّرين، وللناس الورعِين معدومي الدَّخـــل المتردّدين على الزاوية، وللمسافرين عابري السبيل في قطنة عليّ بوطالب.

وقضى الناس الليل في أفراح غامرة، في المساكن (التي كانت جلها خياما من وبر الجمال، مزيّنة على شرف الضيوف المهمّين)، وفي الهواء

الطلق، تحت سماء مرصَّعة بالنجوم، في جهة النساء كما في جهة الرجال. وقد دوَّخ الحفل كل الحضور بسعادة مُعدِية حيث كانت تُسمع من كل الجهات، وعلى مسافة أكبر من تلك التي بمقدور حصان سليم من كل أطرافه أن يقطعها دونما لهث، تُسمع الموسيقى الموقَّعة بالغايطة (المزمار) والقصبة (الناي) والطبل والبندير، هذه التي كانت تدفع الناس إلى الرقص، غير مبالين بالتعب. وكانت الأغاني، المستوحاة من الحياة المحليّة، تحثّ النساء باستمرار على إطلاق زغاريد حادَّة. وكانت الزغاريد، بمقابل ذلك، تحثّ الرجال على إرسال طلقات مدوّية بالقربينات.

وبلغت تلك الأفراح أوجها حين سكنت الموسيقى فجأةً، وبدأت السيدة التي أُوكل لها ربط الحناء على يدي العروس وقدميها، بدأت هي ومساعداتها بالتقديم، وهو غناء تقليدي لابد منه، تُنشده النساء ليلة الزفاف. وهو غناء دائم التأثير في النفوس، في كل مرّة تُمَدُّ في طوله و تزيد في حدّته صيحاتُ الفرح التي تطلقها النساء...

وها هي ذي العروس على استعداد الآن للسفر. كانت خيرة قَطعا جميلة جمالا ساحرا، ولكنّ وجهها وزينتها الجميلة كانت لا تقع عليها أعين الرجال، كما تقتضي ذلك التقاليد. وبالفعل، غُطيت العروس من الرأس إلى أخمص القدمين بستار طويل من حرير دمقسي أبيض.

وبعد أن قدَّمت لها والدها آخر الوصايا تخص سيرتها كزوجة مُحبَّة ووَدود، وتخص سلوكها ككنّة لطيفة ومحترِمة لعائلتها الجديدة - والتي هي من الآن فصاعدا عضو فيها-، وبعد أن قبَّلتها بحنان، أُركبت العروس، بكل احتفاء ورفق، على جواد أبيض فاتن. وكان جواد

الحفلات الأصيل هذا مسرَّجا بأبّهة، بكثير من العناصر التزيينية، مطعَّمة بتوشيات بخيوط ذهبية وفضية. وأُضيف إلى هذا كله الكثير الكثير من الشراريب ذات الألوان المختلفة والساطعة.

وأخيرا تشكَّل موكب العرس، مرسِّخا التحالفَ بشكل ملموس، إذا صحّ القول، بين القبيلتين، قبيلة غرّابة وقبيلة بني هاشم. وكانت تصحب العروسَ نساءُ مستورات بالإمكان حَزْرُ جمال زينتهن. لقد تمَّ إركابهن على بغال وجِمال مجهزة تجهيزا رائعا خصيصا لهذا "اليوم الذي تُخطف فيه" العروس. وكان يحيط بالركب رجال يرتدي جميعهم ألبسة أفراح، وهم كلّهم حماس ويقظة. كان بعضهم يمتطي أحصنة أصيلة، و بعضهم يمتطي جِمالا للزينة، وكان بعضهم الآخر راجلا يحدو الجمال التي كانت تحمل أغراض العروس العديدة والثمينة. وترددت في أرجاء السماء الوردية المغشّاة بأشعة الشمس زغاريدُ ثاقبة متقطّعة، فيما كان صوت الآلات الموسيقية يدفع الجمع، من الذين بقوا ثمّة، إلى الرقص. وكان الفرسان، المنقسمين جماعات صغيرة حول موكب العروس والحاملين القربينات، يتبارون ببسالة في فن التحكّم في مطاياهم في الوقت الذي يطلقون فيه البارود مرَّات متكرّرة.

وحلَّت اللحظة المهيبة، المثيرة للمشاعر والساحرة، حيث انطلق موكب العروس في اتجاه القطنة، مكان إقامة عبد القادر، الزوج المتلهِّف للّقاء. وكان على رأس الموكب الحاج محي الدين، مسبوقا بعازفين على آلات موسيقية مختلفة.

وقد كان الركــــب يسير، على طول المسافة، سيرا حسنا. وكان، مع ذلك، يتوقف لبعض الوقت من أجل أخذ قسط من الراحة. ودامت نشوة المرح، ولم تفتر، ومهرجان الفرسان لم يفقد حدَّته ولو للحظة واحدة...

ومع زوال النهار، انتهت رحلة العرس هذه في قطنة الحاج محي الدين.

وأعلن مترقّبون متحمّسون وصول العروس بالتهليل. وتقدّم جموع الناس، ضيوفًا وفضوليين، كانوا منذ مدَّة يستحوذون على كل شبر في الضواحي، تقدّموا فرِحين من موكب العروس الذي توقّف غير بعيد عن الزاوية، قبالة مسكن جديد، وهو عبارة عن خيمة ظاهرها بسيط و لكنها تعجُّ بالدفء الإنساني، أعدَّها الحاج محي الدين لعبد القادر الذي "يفضل الخيمة عن أي مسكن آخر".[1] (و سيصبح هذا التفضيل الذي يطبع نوعا ما الروح البدوية بعض الشيء للأمير المستقبلي، سيصبح مطلبا مطلقا بالنسبة إليه، و بالنسبة إلى كل مرافقيه الذين، برغبتهم في بناء مساكن من حجر، سيكونون عرضة لمساوئ الاستقرار في مكان واحد، و سيُحرَمون، بشكل خَطِر، من الحركة و التنقل اللتين تُعتبَران ضروريتين جدا بالنسبة إلى المقاتلين).

وكان الاستقبــــال لساعته حارا، وهذا عن طريق ذلك المشهد العفوي والرائع الذي أحدثته الزغاريد، والموسيقى، وطلقات القَرَبينة،

---

(1) Jacques BERQUE, Maghreb, histoire et société, éd. Duculot-SNED, Alger, 1974, p. 65.

والأغاني الطقسية، ورقصات الرجال الفطرية. وفي هذه الأثناء، كان أفراد العائلتين المتحالفتين الشهيرتين يتبادلون تحايا الترحاب والمجاملات الأخوية، وهذا في حضرة عليّ بو طالب والحاج محي الدين.

وأُنزلت العروس من على ظهر الحصان، إذ أخذت بيدها امرأتان وقادتاها برفق إلى الحجرة الرئيسية في الخيمة ذات الأبهة العظيمة. وكانت نساء القطنة حَوالَيها يطلقن زغاريد ترحاب مدوّية، وهذا في جو تسوده الحماسة والجَلَبَة. ونشّطت الغايطة (المزمار) الرقص وضاعف البندير من إيقاعه وحدّته. وتَبِع العروسَ إلى الخيمة أمُها وأهلُها من النساء، وكذا ضيفاتهن اللائي اصطحبنهن معهن. أما الرجال، فقد استُقبلوا كلهم في حجرات أخرى مُعَدَّة للضيوف، وفي الزاوية، وتمّ إحلالهم في أماكن الصدارة تبَعا لمكاناتهم الاجتماعية ولأعمارهم.

وبعد فترة استراحة قُدِّمت للنساء فيها لُمجة خفيفة (من حليب وتمر وشاي وحلويات بالعسل) لم تتناول خيرة منها شيئا، يدفعها في ذلك إحساس مرهف بالحِشمة، بعدها تعالى صوت موسيقى تهزّ المشاعر تلته زغاريد مذهلة. وبدأت نساء شابات في الرقص، وقد شددن أوساطهن بمحارم، بعضهن يلوّحن بيطغانات فوق رؤوسهن، وبعضهن يُصدرن رنينا بخلاخيلهـــن الثقيلة، بالتوازي مع قرع طبلة و بندير تحملهما امرأتان. وهذا في الوقت الذي كانت تغني فيه نساء أخريات غناءً جماعيا، وكنّ يصفقن ويضبطن الإيقاع بزغاريد متكرّرة. وكانت خيرة، وهي التي كانت تجلس متربّعة، وكانت تحرص على أن تُغضـــي جفنيها بعض الشيء، وأن تُبقي على هيئتهـــا متوازِنة توازنا تاماً تُمليه عليها المناسبة،

كانت من حين لآخر تجرؤ على أن ترفع بصرها لكي ترى مشهد الراقصات، ثم تبتسم.

وأخيرا، وباقتراب الغروب، أُشعلت الشموع ومصابيح الزيت، وسِيقت العروس باحتشام إلى الحجرة الواسعة التي أُعدّت لها، والتي كانت تعبق بالعنبر، وتشع منها أنوار كثيرة. وكانت تصحب العروسَ أمُها وبعض النساء من الأقارب.

كانت حجرة العروس مُهَّيأة بإتقان من قِبَل السيدة زهرة وابنتها خديجة وضرَّاتها وبعض الجارات الحميمات. وكانت مفروشة بكل ما هو ضروري، ومزيَّنة بطنافس متعدّدة الألوان، وبزرابي من صوف أصليّ، وبوسادات، وبحِلْيات أُخَر تُضفي عليها طابعا لطيفا تتميّز به كل حجرات العرائس ذات الجلال والعظمة.

وفي وقت صلاة المغرب، أنزل صوتُ المؤذن الرخيم السكينةَ، ودعا إلى الخشوع. وتوقّفت الموسيقى. وفي الزاوية، صلّى الإمام بالناس ثم "بارك الزواج الذي تمّ في قطنة الحاج محي الدين".

وبعدها بقليل، تحرَّكت العائلات المحتفِلة، وخرجت إلى النور حتى تتمكن من القيام بواجب مقدَّس عظيم، وهو الاحتفال باقتران شخصين شابين هما من أعزّ الأشخاص بالنسبة إليهم. ألا بارك الله لهما، وملأ بيتهما بكثير من الأبناء الفضلاء!

وبدأت القدّاشات أي الخادمات بالنسبة إلى النساء والقدّاشين أي الخدّام بالنسبة إلى الرجال، وهم من المتطوعين للمناسبة، في تقديم العشاء للضيوف الذين تمّ إقعادهم في جماعات صغيرة (الرجال وحدهم، والنساء

وحدهم)، حول صحون كبيرة من خشب مليئة بالكسكسي (الذي يُقال عنه بأنه "زينة ما يُقدَّم من طعام في الولائم"). وكان كل صحن مزيَّنا بخضار ولحم طري و مُمرَّقا، كلٌّ حسب رغبته، بمرق دَسِم ذي ذوق عالٍ، ومصحوبا باللَّبن. والشائع بين الناس أن "الأكل من صحن مشتَرك يجلب البركة، وأن البركة تَكثُر بعدد المدعوِّين".(2) هؤلاء المدعوون الذين لم تُعوِزهم لا الشهية ولا المرح أثناء تناول الطعام، وبعد أن تناولوا الفاكهة، عادوا إلى أماكنهم لكي يرتشفوا كؤوس الشاي والقهوة، ويتذوقوا حلويات العسل.

وفي هذه الأثناء، بدأ أحدهم في جمع التَّاوسة(3)، وهي مجموع الهدايا النقدية والعينية التي تُقدَّم لصاحب العرس يساعده في ذلك برَّاح، وهو شخص ينادي في الناس بهذه الهِبات، وكاتب يحسبها.

وبعد ذلك، تكون الأمسية واللّيلة كلها مخصصَّة للموسيقى والغناء والرقص، حيث لا يتوانى الرجال، من حين إلى آخر، في إرسال طلقات بارود كي يدفعوا النساء، مرَّة أخرى، إلى إطلاق كل ما في حناجرهن من زغاريد سعيدة.

فبالنسبة إلى الرجال، كان الموسيقيون قد عادوا إلى العزف على آلاتهم و الغناء جماعةً حيث دفع إيقاع الطبلة بأصغر الرجال سنا للتباري

---

(2) Nour-Eddine M'HAMSADJI, op. cit., p. 282.

(3) ID. ibid., pp. 314-316. انظر أيضا:

Kaddour M'HAMSADJI, La Dévoilée, t héâtre, avec une préface d'Emmanuel ROBLÈS et un jugement d'Albert CAMUS, éd. Subervie, Rodez, France, 1959, pp. 84-85.

في الرقصات ذات المهارة الفائقة. وكانت النساء، بمعرفتهنّ هذا الأمر فقط عن طريق أصوات الرجال وقهقهاتهم، ينَشِّطن أداء الراقصين بأن يرسلن لهم، أحيانا، زغاريد تشجيعية.

الآن، وقد اكتمل الحفل، فإن الناس ينتظرون بشغف دُنُوّ الحدث العظيم في السهرة...

أمّا النساء، وبخاصة اللائي في حجرة العروس، فقد بدأن ينشدن تقديما آخر يحتفل بعملية تصفيف شعر خيرة وتجميلها وإلباسها حليتها. وكانت خيرة تصرّ إصرارا على إغضاء بصرها من شدة الحِشمة، رغم ملاطفة كل اللائي غامرن كي يجعلنها تبتسم وتنبسط. ولكنها، على العكس من هذا، كانت، عندما تستسلم إلى اللائي سيجعلن منها - كما لو كنّ جنيّات- أجمل العرائس الشابات في غريس، تشعر بمتعة خفيَّة يُخالطها فخر تنتشي له كل الفتيات.

وبعد أن صفّفت لها شعرها، قامت مُزَيِّنتُها بتجميلها بمواد طبيعية مع التركيز على صفاء بشرة الوجه، وعلى رقّة الحاجبين، وعلى إبراز جمال العينين، وذلك بوضع لمسة ماهرة ومُتقنة من الكحل عليهما. وقامت أيضا بتطييب نَفَسِها 'بالسواك'، مستعملةً هذا اللحاء الرقيق جدا لشجرة الجوز من أجل تبييض أسنانها، وتحمير لثتها وشفتيها، وذلك بفركها فركا خفيفا. وأعانتها كاسيتها ومساعداتها بكل عناية في ارتداء فستان فاخر من قماش مقصَّب بخيوط الذهب، ثمّ ألبسنها مجوهرات جديدة برّاقة على جيدها، وأذنيها، ومعصميها، وأصابعها، وأسفل ساقيها، وخصرها. وعلّقن على صدرها مشابك مرصّعة بالأحجار الكريمة

والمرجان، وأحطن جبينها 'بخيط الروح'، وهو عِقد جبين، الحلية الجليلة ذات المجوهرات، و التي تتمناها كل النساء.

وحلّ الوقت المُرتَقَب، ولعلّ الساعة كانت آنئذٍ تشير إلى الثامنة، أو التاسعة، أو العاشرة مساءً[4]. وفجأة، ازدادت حدّة الموسيقى، وتضخّم صوتها، واحتدمت. وتتابعت الزغاريد كأنها صرير متواصل، ودوّى بارود الطبنجات بطلقات متواترة أثارت الهواء حتى النجوم، وألهبت الأعين، وهيّجت المناخير الحسّاسة.

وكان المدعوون، وهم في جموع مكتظة، مبتهجين لرؤيتهم مئة شمعة موقَدة. وظَهَر عبد القادر، محاطاً بصخّابين سعيدين، وهو مغطىً تماما ببرنسه الأبيض الذي كانا جناحاه يضربان على جسمه، والذي كانت قلنسوته تغطي كامل رأسه وتنسدل على وجهه. وكان من السهل التعرُّف عليه من أوّل وهلة، وذلك فقط بفضل جماعة أصدقائه، المداعبين، المازحين، الذين كانوا يسعون، لَهوًا منهم، إلى دفعه إلى الأمام، نحو حجرة العروس. وكانوا، بمداعباتهم، يحاولون أن يجعلوه يتغلّب على حشمته التي من الطبيعي أن تهتز، وأن يستجمعوا طاقاته حيال الحدث الفريد والرائع الذي أعدّه له القَدَر.

(4) Eugène DAUMAS, Les Cérémonies du mariage, Revue Africaine, n° 56, Année 1912, p. 41.

وانظر أيضا للكاتب لنفسه:

E. DAUMAS, Les Chevaux du Sahara, op. cit. p. 477.

وقد مُنحت النساءُ وقتا قصيرا إضافيا، وطُلب منهنّ، ومن بينهن كانت آمنة، والدة العروس، بأن ينسحبن من حجرة العروس، وبأن يتركن الشابة خيرة لزوجها الوَرِع عبد القادر.

وفي الوقت الذي تسلّل فيه عبد القادر، الزوج السعيد، إلى الحجرة حيث كانت في انتظاره خيرة، الزوجة التي اختارها قلبه، تضاعفت الزغاريد طويلة النَفَس التي كانت تُطلقها عشرات النساء، وازداد دويّ البارود، واهتزّت قطنة الحاج محي الدين كلها سعادةً ...

وفي الغد من ذلك، وفي وقت مبكّر جدا، "انسحب عبد القادر من حجرة العروس، كما تقتضي العادة ذلك، وقضى ثلاثة أيام [متواريا] عن نظرة والده ووالدته، دليلاً على التوقير الواجب عليه اتجاههما."[5]

وفي هذه الصبيحة أيضا، كان من الضروري على والدة العروس، وبدافع من العادات المشكّلة للرأي والراعية العظيمة للشرف في المجتمع القبلي، أن تتأكد من أن أمانيها لم تخب، وأن تؤكد، لأهل زوج ابنتها على وجه الخصوص، أن ابنتها "فتاة من عائلة شريفة" بالفعل. أما بالنسبة إلى الزوجين الشابين، فإنه من المحتمل أن يكون كل واحد منهما، كلٌّ على حدة، وكلٌّ على طريقته، قد أسرَّ لأقاربه الأكثر أُلفة بسعادة الحب الغامرة التي تقاسماها خلال الليلة الأولى لزفافهما.

ومن المحتمـــل جدا أن يكون الاحتفال قد امتدَّ، وكما تقتضي العادات ذلك، لمدة من الزمن، أي ثلاثة أيام وثلاث ليال. ويكون، دونما

(5) A. de LACROIX, op. cit., p. 45.

شك، قد دام أكثر من ذلك أي مدّة سبعة أيام، إذ إنه في اليوم السابع يحتفل الناس في بعض المناطق بـ"نهار الحزام"، أي يوم الحزام "وهو أيضا حفل عظيم يُدعى إليه الأهل والأصدقاء والفقراء الذين يُطعمون لوجه الله. وكما العادة، تدوّي الدربكّة والقلال. وهو يوم أكل ولعب وضحك. فالنساء يُجمِّلن العروس، و يختمن هذا الاحتفال بأن يشْددُن على خصرها، وباحتفاء رائع، الحزام الذي يجب أن لا تفارقه أبدا."[(6)] ويرمز هذا الحزام إلى السلطة المطلقة المعترَف لها بها، سلطة سيّدة الدار.

ولكنّ الاحتفال، بالنسبة إلى خيرة وعبد القادر، سيكون مُتَّسِما بالديمومة، لأن عبد القادر وخيرة كانا متحابَّين بكل عنفوان شبابهما. كانت خيرة، ودونما مغالاة في الكلام، حقا جميلة. وأحبها عبد القادر بكلّ فؤاده، دون سواها، وكانت زوجته الشرعية الوحيدة. وقد يبدو الأمر غريبا إذا ما أخذنا بعين الاعتبار الطبائع العربية في ذلك الوقت. ولكنّ إعجابه العظيم بوالدته، السيدة زهرة، كان له الأثر الكبير في اختياره الحازم، وهو أن يتزوّج بامرأة واحدة فقط، يحترمها ويُعِزُّها.

وحَرِيٌّ بنا أن نذكر في هذا المقام طُرفة لنُظهِر كيف أن أعصاب هذا الرجل تكون من حديد عندما يجب عليه التصرّف حيال المستحيل، وكيف يُصبح هادئا ووديعا حيال زوجته التي تخاصمه في بعض الأحيان من مُنطَلَق دلال النساء ودلال زوجة شابة. كان يقول هو نفسه، ردّا على أسئلة شخصية نوعا ما، طرحها عليه الجنرال دوماس: "وكان نساء

(6) Eugène DAUMAS, Les Cérémonies du mariage, op. cit., p. 43.

النبي يراجعنه في الكلام فيصبر إكراما لهن. وأنا – عبد الله – كانت ابنة عمّي تغضب عليّ وتواجهني بما أكره، فأصبر لها و أفي حقّها."[7]

فإذا ما أُعجب عبد القادر، أحيانا، بغزالة ما، فإنها لم تكن في قلبه، البتّة، منافسةً جدِّيَّة لخيرة. فقد كتب في أحدى قصائده يقول:

"وهذا الظبي لا يرعى ذماما ::: ولا يرضى مؤانسة لجار"[8]

وإنه لا يُدهشنا موضوع الحب هذا، الظاهر في أشعارٍ من نظم رجل كامل الصفات على الدوَّام، تقيّ زاهد، زعيم مقاومة، رئيس دولة وإنساني معاصر.

ويُلفت بسايح انتباهنا إلى أمر، وهو مُحِق في ذلك، حيث يقول: "إنه لمن الطبيعي جدا لدى الأمير أن يشبّه المرأة الحبيبة بغزال الصحراء، كما فعلها قبله العديد من الشعراء العرب. أَيدفعنا هذا إلى أن نصدّق بأنه من الرعونة مغازلة النساء؟ [...] فإن كان هو رجلا لا يهاب السيوف والمَدَافع، فإنه لا يصمد أمام سُلطة الجمال. هو حاجة مُلِحَّة وعنيدة. ولكنّ البدوي، إذا ما فُتِن، يحوِّلها من الوحشية إلى الوداعة. وإنه إذا ما هاجمه سحر الجمال، وعذَّبه ثم أضناه، فإنه يكلّل حُبَّه بالمجد، ويحضنه بالحنان، بدلا من أن يلعنه ويَذمّه.

---

(7) ممدوح حقّي، م.ن ، ص 6.

(8) المرجع السابق، ص 40. و انظر ترجمتها بالفرنسية: Henri PÉRÈS, op. cit., p. 27.

إنه التصرف الطبيعي لدى الأمراء، والتصرّف العفوي لدى الشاعر.
وعندما يكون الأمير شاعرا أيضا، فإن الجمال يشعر بأنه في مربضه، وهو مصون، ومدلل؛ وينساب فيض من الصور والأصوات، بعفوية، ولكن دونما فوضى، كأنه بستان يتعهّده صاحبه بعناية حيث لكل نبتة مكانها وضوءها وظلها، وحيث كل زهرة تضمن لنفسها عُبوق رائحتها.

فكأن هناك سريَّةً تكتنف هذا الحب [...] ففي الحياة العاطفية الخاصة بعبد القادر [...] يُعوِّض الشاعر، تَبعًا للظروف، بالمقاتل زمنَ معركة واحدة، وبرجل الدولة زمنَ لحظة تفكير سياسي، وبالفيلسوف زمنَ لحظة تأمل. وهو، مع ذلك، يداوم على الحفاظ على مكانةٍ للشعر حتى يليّن من رصانة القائم بالفعل بفضل تأثر الشاهد.

وكان من الممكن أن يكون ذلك الحب البدوي حبا عذريا، كريما، يتّسم بالوفاء، وبالفضيلة، أما الباقي فليس إلاّ صورا وتعابير تلتذ بها الأعين والأسماع، ومن أجل اصطفاء كل ما هو سامٍ للقافية."(9)

ولم يَكُفَّ عبد القادر أبدا عن "مقاساة الحب" لأنه كان يتمتّع بإحساس حاد بالجمال الأنثوي، هذا الذي نقله، وهو الشاعر الحسّاس، إلى زوجته الوحيدة خيرة. ألم ينظم في هذا الموضوع قائلا:

"و سلطان الجمال له اعتزاز ::: على ذي الخيل و الرجل الجواد
فان رَضِيت عليّ أرت محيّا ::: بشوشا بالملاحة ظَلَّ باد
خليلي إن أتيتَ إليّ يوما ::: بشيرا بالوصال و بالوداد

(9) Boualem BESSAÏH, Au Bout de l'authenticité…la résistance, 'par l'épée ou la plume', ENAG/ÉDITIONS, Alger, 2002, pp. 112-115.

فنفسي، بالبشـــارة إن تَرُمـــها ::: فـــخذها بالـــطريف و بالتـــلاد
إذا ما الناس ترغب في كنـــوز ::: فبنت العمّ مكتنـــزي و زادي"[10]

وبالفعل، فإن كل شيء يشهد على أن "عبد القادر أحب خيرة بالعنفوان الذي كان يسكنه. ولم تكن هناك امرأة أخرى أولى بهذا من خيرة. خيرة التي كان يزيد وجهَها بهاءً ذلك اللُطف الملائكي و هذا الصبر، هذا التفاني الشديد التأثير في النفوس، لدى النساء والضروري للعربيات [...] إن البساطة في طبع عبْد القادر، وفضائل خيرة، ومفاتنها على وجه الخصوص، جعلت سعادتهما أكثر ديمومة، وجعلت من خيرة المحبوبة بلا شريك. وكان من الممكن أن تكون هذه السعادة الهادئة، وهذا الحنان الذي يتلقّاه عبد القادر من عائلته، كافيين ليَغمُرا قلبه لو لم يكن هو يحمل في نفسه مصدر اضطراب خفيّ، تزيد من حِدَّته المصائب التي كان لها وقع على وطنه، والتي بدأ محي الدين نفسه يشعر بعواقبها."[11]

وهكذا، انطلقت خيرة، عن طريق الزواج، في حياة جديدة، حياة مليئة بمستقبل عاصف ومثير. وكانت تشعر مسبّقا، على مَرِّ الأيام، وهي الثاقبة الفكر والبعيدة النظر رغم صغر سنها، بأن جمالها وحده لن يكفي لمساندة زوجها عبد القادر، الرجل الورع الذي نذر نفسه لخدمة الله. وسيكون جمالها أيضا، دونما فائدة تُذكر، عندما تشهده، في وقت قريب، وقد أصبح زعيم مقاومة ورئيس دولة، واضعا نفسه، وربّما

(10) ممدوح حقّي، م ن، ص ص 41-42. وانظر ترجمتها بالفرنسية:
A. BENHARRAT, op. cit., p. 81.
(11) A. de LACROIX, op. cit., pp. 147-148.

بشغف أكثر، في خدمة شعبه ووطنه خلال سبعة عشرة سنة من الحرب ضد الغازي الفرنسي. وستشهد ذلك أيضا عندما يقرّر زوجها، الأمير، الرجل العظيم والمجيد، الانتقال إلى المنفى، حِيَال تلك المصيبة المضنية. وستتبعه خيرة، الزوجة الوفية الحازمة، عبر مآسي طريق المنفى، حتى دمشق، هي ووالدته السيدة زهرة وكذا أبناؤه والعديد من رفاق الكفاح الأوفياء. هؤلاء جميعا كانوا يمثلون "ثمانية وثمانين شخصا".(12)

ويجب التأكيد على أن خيرة كانت تتميّز بالخصال الحميدة نفسها التي كانت لدى حماها السيدة زهرة. وقد قامت حماها، بالتأكيد، بإتمام الوصايا التي قدمتها لها آمنة، أمها العطوف الحنون، في قطنة عليّ بو طالب. وهكذا، تعلّمت خيرة كيف تتسلّح بالصبر والشجاعة، وكيف تُبدي التفاني، وكيف تقوم بفعل الخير، وهي تحمل اسمه، كلما اقتضت الضرورة ذلك، وكلما كان عبد القادر - ودونما إخبارها بذلك- في حاجة إلى حنان يدعمه أو إلى اللجوء إلى الحدس الأنثوي الذي كانت خيرة تتمتع به على التمام والكمال. كانت خيرة، في الواقع، دائما إلى جانب زوجها. وهذا ما يؤكده عبد القادر في هذه البيت:

"تسـائلني أم البنـين، و إنها ::: لأعلم، مَن تحت السماء، بأحوالي"(13)

"ولكن الأمير عبد القادر، كما كتب يقول محفوظ قدّاش، لم يكن مقدّرا عليه أن ينعم طويلا بلذّة الحياة العائلية وهدوئها لأن مَهَمّة كانت في انتظاره."(14)

---

(12) Charles Henry CHURCHILL, op. cit., p. 277.

(13) ممدوح حقي، م ن، ص 20. انظر ترجمتها بالفرنسية: Henri PÉRÈS, op.cit., p. 24.

(14) Mahfoud KADDACHE, op. cit., p. 12.

15

الهجوم على مدينة الجزائر

ولكن، كيف كانت الأوضاع الدولية آنذاك؟ كيف كان الوضع السياسي والاجتماعي في الجزائر زمنَ زواج عبد القادر؟

يجب التذكير أولا، ولو بإيجاز، بأن الدول الأوروبية (التي كانت تارة متنافسة، وتارة متكتِّلة، وتارة أخرى متحالفة)، كانت تُظهِر طموحاتها في السيطرة الاقتصادية، وفي توسيع رقعتها، وهذا تحت نظرة ملؤها الطمع والملامة من قِبل إنجلترا والولايات المتحدة. وكانت هذه الطموحات تُترجَم بأحداث مؤلمة متتابعة، وبخاصة ضد إيالة الجزائر.

وكانت فرنسا تتمسّك بالذريعة الغريبة المتمثّلة في حادثة المروحة التي وقعت في أفريل 1827[1] لكي تُبرِّر "البدايات الغريبة لعملية غزو الجزائر."[2] والحال أن الكل كان يعلم بأن فرنسا كانت، منذ زمن بعيد جدا، تدرس السواحل الجزائرية، وهي متأهِّبة للعدوان. وكان مشروع الإمبراطور نابليون الأول قد تمَّ تطويره من قِبل الأميرال ديكراس Decrès،

(1) ارجع إلى الفصل 8 من هذا الكتاب، 'عوامل نهضة وطنية'.

(2) Charles-André JULIEN, op. cit., p. 21.

وهذا في رسالة كتبها هذا الأخير لقائد فيلق الهندسة العسكرية إيف بوتان Yves Boutin. وإنه لَمِن المفيد أن نُورِد هذا المقطع منها:

"باريس، يوم 01 ماي 1808

سيدي،

إن الإمبراطور يرغب في أن يحصل على معلومات عن الجزائر، وعن ما يستدعي القيام بحملة على هذا البلد.

أتوجد على هذه السواحل منافذ بإمكانها أن تستقبل أسطولا؟ كم من السفن والفرقاطات يمكنها أن تدخل هذه الموانئ، وأن تبقى فيها في مأمن من قوة أكثر تفوقا، حين نبسط سلطتنا على هذه الأرض؟ كم يوجد من هذه الموانئ؟

في أي موسم يَكون الهواء عليلا، ولا يُخشى من الطاعون؟ هل يتوافق هذا الموسم، أم لا، مع الموسم الذي تكون فيه الملاحة أقلّ خطورةً على هذا الساحل؟

أي مكان للإنزال يكون أجدر بالتفضيل؟ هل توجد "مسالك مائية"؟

أي نوع من الهجوم يكون أفضل؟ ما هي الخنادق، وبطّاريات المَدَافع، والحصون؟ ما هو سلاحهم؟ ما هي أكثر مَوَاطِن ضعفهم؟ كم يُفترض أن يجمع الباي من فرق عسكرية؟ كم يلزمه من الوقت كي يتمكن من جمعها؟ كم له في العادة من جنود في

الجيش؟ كم يلزم من فرق عسكرية تابعة لجلالة الإمبراطور كي نتمكن من الاستيلاء على البلاد؟ كم يلزم من فرسان ومشاة ومدفعية، راجلين أو على أحصنة؟ من أين يمكن أن نحصل على مؤونتهم؟ أيمكننا أن نجدها في البلاد؟

هذه هي الأسئلة الرئيسية التي يطلب الإمبراطور معلومات عنها. وتلحق بهذه الأسئلة كل الأسئلة التي من شأنها أن تكون لها علاقة بالموضوع قيد الدرس وأن تحدد رأي جلالته في هذه الحملة..."(3)

وقد حظيت هذه الحملة بتشجيع كل أوروبا الإقطاعية والإمبريالية. وأكد شارل العاشر أن الحملة كانت ذات هدف أوروبي بحت. وتهاطلت الردود المؤيِّدة من برلين، ومدريد، والدول الإسكندنافية، و إيطاليا.

وشجع إمبراطور روسيا الحملة بإرساله مذكِّرة مفصَّلة، كان الغرض منها هو توضيح الأمر بالنسبة إلى "قائد حملة فرسان"، حيث صرَّح قائلا بأنه: "سيرى بفخر اسمه موضوعا بجانب أولئك الذين يجب على التاريخ، والعالم المسيحي المأخوذ بثأره، أن يشرِّفهم أكثر."

---

(3) وثيقة بخط اليد مأخوذة من أرشيف فيليب ديستايور شانترين.

ويوجد في الأرشيف الوطني الفرنسي وثيقة مؤرَّخة في 18 أفريل 1808 تشهد بأن نابليون أمر ديكريس قائلا: "تصوّر جيّدا خطة تنفيذ حملة الجزائر، بحرا وبرّا، [...] فأنا لا أسألك ردّا إلا في غضون شهر، ولكن استجمع عدّتك خلال هذه المدّة بحيث لا يكون في جوابك مجال لـــ ' ولكن...'، أو 'إذا...' ، أو 'لأنّ...' [...] أرسل بأحد مهندسيك الحَذِرين [...] وعلى هذا المهندس أن يكون ضابط بَحْرِية و مهندس بناء."

وقدّمت النمسا تمنّياتها بالفوز عن طريق الأمير فريدريك شفارزنبرغ Frédéric de Schwarzenberg، "المتطوّع لهذه القضيّة".

وكانت اسبانيا، و هي التي لم تَبلُغ ثأرها، سعيدة بمقاتلة الأعداء، أعدائها هي، في البحر المتوسط، حيث فتحت موانئها لسُفن العدوان.

وقام فرسان مالطا بعرض أنفسهم لخدمة العالم المسيحي بهِمَّة، وذلك بالتكفّل بأعباء إعداد فرقة من المتطوّعين. وسيشكل هؤلاء "المتطوعون" ميليشيا في الجزائر[4] وهكذا، كما كان يقول المدافعون عن النظام المَلَكي، "تَحْمِل [المدينة] اسم كارلوبوليس Carlopolis حتى تدوم ذكرى الحملة التي شنها أحد أفضل الملوك من آل بوربون Bourbons".[5]

وكان بالإمكان، فضلا عن ذلك، الإطلاّع على ما يلي: "و كان مجلس شارل العاشر يرفض رفضا مطلقا بأن تُعاد الجزائر إلى الباب العالي بعد أن تم غزوها. وكما أكد ذلك بورمون Bourmont فيما بعد

(4) ارجع إلى رسائل الماركيز سانتْ كروا marquis de Sainte-Croix ، أمين أختام اللغات ورئاسة الأديرة، المكلّف بسلطة اللغات ورئاسة الأديرة في إسبانيا والبرتغال. فرسائله المؤرّخة في 29 و 31 مارس 1830 بُعثت إلى بورمون، مصحوبةً بملاحظات تفسيرية وضعها الكولونيل، البارون بالو ديبراك Pallu Duprac ، الذي كان سيقود 'فرقة جنود النخبة' التي اقترح تشكيلها.

(5) M. P. CLAUSOLLES, l'Algérie pittoresque ou Histoire de la Régence d'Alger depuis les temps les plus reculés jusqu'à nos jours (Algérie pittoresque, partie moderne, p. 16), publié par P.-B. PAYA, à Toulouse, Paris, 1843.

قائلا:[...] كان موقفي الشخصي دائما هو أن نحافظ على الجزائر وأن نستَعمرها."[6]

وكان الهدف الأساسي من وراء الحملة إذًا، هو بلا ريب، استعمار الجزائر بشكل مُمَنهَج. "ولم يكن أحد يخطئ في المعنى الخفي لهذا المشروع."[7] وفي الوقت الذي كانت "ترتفع فيه لهجة الكلام في لندن" (إذ إن إنجلترا، ولأسباب هيمنة سياسية واقتصادية قد تمّ تصوُّرها تصوُّرا تاماً، وبحمايتها لمصالح هامة في المشرق الإسلامي، كانت تعترض على الحملة الفرنسية)، بعث دوبيري Duperré إلى البحر الأبيض المتوسط بأسطول بحري مهمّ يتكون من 65 بارجة حربية منها 9 سفن ذات 74 و 80 مدفع، و 20 فرقاطة ذات 44 إلى 60 مدفع، و 11 سفينة قلعيَّة، و 7 زوارق حراسة، و 8 سفن منجنيقية، و 9 صنادل، مرفوقةً بأربعة بواخر نابولية و ثلاثة بواخر نمساوية وباخرة سردينية وباخرة روسية تُرافق 333 سفينة خافرة.

ويُعطي ڤوتيرو Gautherot التفاصيل الدقيقة التالية: "وكان قوام جيش الحملة 37617 رجلا، و 4546 حصانا وبغلا. وكان الجنود المشاة وحدهم يمثلون 30852 ضابطا وضابط صف وجنديا كانت فيالقهم، التي بلغ عددها 36 فيلقا، مقسَّمةً إلى ثلاث فرق عسكرية [...] ووصل

---

(6) كان هذا ردّه لــ ج. هــ. آبيل J. -H. ABEL ، رئيس تحرير جريدة لا ڤازيت دو ميدي La Gazette du Midi، هذا الذي طالب، يوم 14 جويلية 1858، بشهادة المارشال ضد الصحافيين الحكوميين والبرلمانيين الذين اتهموا شارل العاشر برغبته في التخلّي عن الجزائر.

(7) M. P. CLAUSOLLES, op. cit., p. 16.

المجموع إلى 1872 مدفعا... و 368 باخرة كانت كلها متأهبةً لخوض غمار البحر معا..."[8] وكتب إسكير Esquer قائلا: "وهكذا اندفع 33000 رجلا نحو أفريقيا، ويمكننا أن نقول إنه إذا ما تمّ الإعداد لحملة ما في أدق تفاصيلها، فإنما المقصود به هو هذه الحملة بالذات."[9]

"حادثة المروحة"؟ أكانت هذه، وحدها، لتُثير الغضب المُطلق لإلهِ حرب، إلهٍ متخلّفٍ ومغرورٍ، هو بمثابة طيف شاحب وسقيم لمارس أو لآريز اللذين،هما، كانا عظيمين؟

فلنفكر إذًا في الأمر بعمق: لو لم تُستعمَل الحادثة من أجل الثأر لغطرسةٍ كانت في غير موضعها، مُسبِّبةً مأساةَ شعبٍ مسالم بأكمله، شعبٍ مُحبّ للعدل وللشرف، لكانت هذه الذريعة ببساطة متطابقةً مع فورة الغضب تلك، المُسلِّية والعنيفة، لتلك الشخصية الروائية القشتالية "إيدالقو قاتل موريس وقائل النكَات" Hidalgo tueur de Mores et diseur de pointes[10]، ذاك المُدَّعي الفضيلة والمتجنِّس بالجنسية الفرنسية، وهو من شخوص الكاتب كورناي Corneille، هذا المهووس بالشرف والمتعطّش للمجد وللربح. فأصل هذا النزاع ذي الدرجة الشخصية جدا، والقابل جدا للمناقشة، وَجَدَ علةً لقيامه وهو اعتبار مصلحة الدولة، هذه الأخيرة التي استجمعت كل طاقاتها وتحرّكت

(8) G. GAUTHEROT, La conquête d'Alger, 1830, d'après les papiers inédits du général de Bourmont. Préface de M. Louis BERTARAND, Payot, 1929.
(9) G. ESQUER, Les commencements d'un Empire. La prise d'Alger, Paris, Champion ; Alger, L'Afrique latine, 1923.
(10) G. LANSON, op. cit., p. 426.

للحرب. وهكذا، دفع القنصل بيير دوفال، ذاك الدسَّاس الماهر المُهَان، دفع فرنسا، تحت حكم شارل العاشر، للمطالبة بالتعويض:

"- تعال لِتأخذ بثأري.

- ممَّ؟

- من إهانة قاسية تصيب شرفنا نحن الاثنين بضربة قاتلة: من صفعة!..."[11]

فها هو ذا "السيّد" Le Cid يُعاد ابتكاره، ويُعاد تسليحه كما لم يكن أبدا من قبل، من أجل الحملة التأديبية لهذا القرن!

وكانت المأساة هنا، على أبواب مدينة الجزائر.

ففي يوم 14 جوان 1830، في الساعة الثالثة والنصف، تمكنت الحملة العسكرية من الإنزال في سيدي فرج، بعد مشادّات عنيفة، رغم تأثير عنصر المفاجأة الذي كان في صالحها.

وعلى الرغم من أن مقاومة القوات النظامية التابعة للإيالة كانت مقاومة ضارية، ولكن غير منظمة أو حاسمة، إلا أنها لم تكن قادرة على دفع الغازي نحو البحر. ولم تكن فرقة الفرسان مسلّحةً بما فيه الكفاية. ومع ذلك، فقد أظهرت، وهي تحت قيادة آغا أفنــدي، بسالةً دوّخت العدوّ وحيّرته. وقد حاولت فرقة الفرســان هذه، ببسالة، مناوشة

(11) P. CORNEILLE, Le Cid, acte I, scène V, p. 31, Classique Larousse, Paris, 1933.

البطّاريات المدفعية الفرنسية في سيدي فرج، كما في سطاوالي[12]، وعلى مقربة من مدينة الجزائر، ولكنها لم تُوفّق في تدميرها.

وبعد أن تعرَّضت الحملة العسكرية مطوّلا إلى نيران الجزائريين، هذه الحملة المتفوّقة في السلاح، والتي يقودها ضباط خبراء في فن الحرب والحرب النفسية، فقد زادت في ضغطها على مدينة الجزائر، وذلك بقصفها بمدافع من سفنها، ابتداءً من أول جويلية، وهذا حتى تُحَوِّل الأنظار، وتتمكّن من إتمام الحصار، حصار الجزائر المقاتِلة. وفي محاولة ثانية، يوم 3 جويلية، أشرك الأميرال دوبيري كلّ بواخره (وعددها الإجمالي 17) التي اعتنى بتدجيجها بالأسلحة. وقد كان هو على متن سفينة لا بروفانس La Provence، و قاد العمليات هو نفسه.

وقد اختلق سكان مدينة الجزائر والساحل، بصفة تلقائية، نظاما مبتكَرا للدفاع الذاتي بعد استسلام الداي حسين (5 جويلية 1830)، وانتقاله إلى المنفى، وعند بداية مشاهد النهب والتقتيل التي أكبَّ على ارتكابها جنود الحملة. هؤلاء الذين كان من بينهم، كما أثبت صحة ذلك القائد العام للجيوش فالازي Valazé، "ضباط من العيار الثقيل وينتمون إلى أركان حرب بورمون".

---

(12) M. LACHERAF, Des Noms et des lieux, op. cit., p. 167.

يذكر مصطفى لشرف أن أصل كلمة 'سطاوالي' هو تركيب مزجي لكلمتين: 'أُوسطا' و 'والي'. وهي بالأحرى مزج لكلمتي: 'سَطَح' و 'والي'. 'سَطَح' تعني سطح، هضبة، سهلة. وهو مكان لوليّ صالح. فمِن هذا المكان المُسمّى 'سَطَح الوالي'، والذي لم يكن قرية سنة 1830، اشتق الفرنسيون كلمة Staouéli. ويُشار إلى هذا المكان في خرائطهم بعبارة plateau de Staouéli أي هضبة سطاوالي.

وبينما كانت ملحمة المقاومة الشعبية الجزائرية قد بدأت، "فإن الأمم، باستثناء بريطانيا العظمى وتركيا، كانت تبتهج لتحطيم عش القراصنة. وقدَّمت روسيا وهولندا وإيطاليا والولايات المتحدة التهاني لفرنسا من أجل الخدمة التي قدَّمتها للإنسانية. وقَبِل مترنيخ Metternich نفسه بالأمر الواقع. وانتفض الباب العالي ضد هذا الاعتداء على وحدته الترابية، ولكن دون أن يتجاوز ذلك حدود الاحتجاج عديم الجدوى.

ولم تنتفع الجزائر ولو بتضامن الإيالات الأخرى [...] وإن سلطان المغرب مولاي عبد الرحمان، وعند تلقّيه نبأ الحملة على الجزائر لم يُظهِر، مثله مثل باي تونس، لا الاضطراب ولا الاستعداد للتضامن [...] بل إنه سمح حتى بالتموّن في مرافئه، كما فعل باي تونس. وكان للشعب المغربي موقف مخالف لذلك."(13)

وسقطت مدينة الجزائر إذًا بين أيدي الفرنسيين، وشَعَر سكانها بمرارة الهزيمة. كتب مونتانيون يقول: "ورفرف على الجزائر البيضاء راية بيضاء. لقد تغلبت عليها سيوف المسيحيين، و لكنّ القلوب لم تتوقف عن القتال، ولم تنس.

وسيسمع أولاد* متيجة، خلال سنوات، الطالب وهو يرتّل شكوى المهزومين قائلا:

(13) Charles-André JULIEN, op. cit., pp. 58-59.

* استعمل مونتانيون عبارة "Les yaouleds" أي أولاد، و لكنها عبارة تحقيرية، والمعنى المراد منها هو "الأوغاد". [المترجم]

واحسرتاه على الجزائر وقصورها،
وعلى حصونها الرائعة الجمال،
واحسرتاه على جوامعها، وعلى الصلوات المقامة فيها،
وعلى منابر الرخام،
التي تشرق منها أنوار الإيمان!

واحسرتاه على الصوامع، والمدائح فيها،
وعلى الطُلبة، على مدارسها، وعلى مُرتِّلي القرآن.
واحسرتاه على الزوايا، صُدَّت أبوابها،
وعلى المُرابطين الذين أصبحوا هائمين!

واحسرتاه على القضاة والعلماء المُفتين،
شرَّفوا المدينة، ورفعوا الدِّين!
لقد رحلوا بأفكارهم متأمِّلين،
تفرَّقوا بين القبائل،... المساكين!

واحسرتاه على الجزائر وديارها،
وعلى بيوتها حسنة الترتيب!
واحسرتاه على مدينة النقاء،
الرخام والبورفير فيها يُبهر العينين!
سكنها النصارى، وحالها تبدل!
خرَّبوا وأفسدوا كل شيء، يا لهم من نجسين!

هدَّموا أسوار ثكنة الإنكشاريين،
اقتلعوا الرخام، والبلاط، والدرابزين،
وشبابيك الحديد التي تزخرف نوافذه،
اقتلعوها، وكانوا لمآسينا مُحتَقِرين.

واحسرتاه على الجزائر ومحلاّتها،
ها قد أصبحت أثرا بعد عين!
إلاّ من الآثام التي اقترفها... الملاعين!

واحسرتاه على الجزائر وسلطانها،
وعلى رايته المنتهَكَة الشرف!
واحسرتاه على سكانها،
وعلى الأماكن العزيزة التي تصدر منها الأوامر!
واحسرتاه على جيوشها، وعلى ديوانها!...

واحسرتاه كيف كان ذاك الميناء،
بمعاقله وسفنه حسنة التزيين!
واحسرتاه أين قباطينها،
وأعلام الحرير الرفرافة،
وقراصنتها الذين لا يدخلون المرسى،
إلا وهم بالعبيد أو القهوة، مُحمَّلين؟
هؤلاء القراصنة الذين يقف النصارى أمامهم كربّات الحجال.

كانت الجزائر كلاّبة لقلع الأسنان،
كان يخاف منها أشجع الشجعان...
يا رب، أعد الظَفَر لراياتها،
هب الحياة لجيوشنا، وأَذِلّ الكافرين!
يا خالق الناس! يا مولانا!
أرسل إلينا شريفا يحب المسلمين،
يصبح سلطانا على الجزائر،
ويحكم بالعدل وبالقانون.
يا فتّاح، افتح له الأبواب!
ويقفل عبادك إلى بلادهم راجعين،
وتنتهي آلام الشعب.
أجل، فالله يرحم المؤمنين المعذّبين،
ويبسط النظام، والنصارى ينكفئون،
ويطرد عنا المفسدين.

'وَيَطرُد عنّا المفسدين!' وإن النداء أصبح، أكثر من أي وقت مضى، نداءً إلى الجهاد، الحرب المقدّسة، بغية طرد الكافر أي الفرنسي."(14)

---

(14) P. MONTAGNON, op. cit., pp. 67-68.
يلاحظ مونتانيون، في الهامش، موضحًا ما يلي: "هذه الأغنية العربية ألّفها سي عبد القادر، أحد المتعلّمين في الجزائر، بعد الاستيلاء على المدينة. لقد التجأ إلى مازونة، بلد (هكذا) مولده، حيث مات أسًى. وجمع كلمات هذه الأغنية الجنرال دوماس، الذي عمل بالجزائر، سنوات عديدة بعد ذلك، والذي أصبح صديقا للأمير عبد القادر...". ونحن، بدورنا، نوضّح أن 'مازونة' هي مدينة في الظَهرة، وليست بلدا. وكانت، قبل سنة 1710، أوّل مركز لبايلك الغرب.

16

نهاية عالم قديم

وذاع الخبر المَهول، خبر هجوم الفرنسيين على مدينة الجزائر واستيلائهم عليها، بسرعة، في كل أرجاء البلاد. ووصل حتى بدو شمال الصحراء الجزائرية. "وشَعَر سكان الجزائر بمرارة محنة الهزيمة."[1]

والحال أن سكان المقاطعات، وعلى غرار السكان الشجعان لمدينة الجزائر وضواحيها الذين حُرموا بغتة من حكم مركزي، قرَّروا، وباتفاقٍ تام مع هؤلاء، تنظيم أنفسهم، وهم في لحظة الخطر هذه - ولحظة الأمل أيضا-، في جبهة وِحدةٍ ودفاعٍ عن أراضيهم المهدّدة بالاجتياح.

وكان يُشار في كل مكان إلى انتفاضات شعبية تلقائية ضد الغزو الفرنسي، مع إبداء الإرادة في تخليص البلد، في الوقت نفسه، من الاحتلال التركي، لأنه لا أحد من الجزائريين نسيَ الفظائع التي اقترفها المخزن في حق كل طبقات السكان، وبخاصة في حق طبقة الفــلاحين. وكان

(1) Charles-André JULIEN, op. cit., p.60.

الموروث الشفوي والمدّاح، هذا "المنشد في الأسواق، المحبّ لوطنه" والمُستردّ لقريحته القوية في فن القول، كانا يحملان إلى المقاطعات الوجه الحقيقي للمَشاهد، والوجه الصحيح للرأي الرشيد، مُذكيان حبَّ الدين الإسلامي وحب أرض الجزائر، بكل الحنان الذي في القلوب، وبكل القوة التي في العقول.

وفي يوم 23 جويلية 1830، قَدِم شيوخ القبائل والمرابطون ذوو الكفاءات العالية، من كل المناطق، وحتى من المناطق النائية، إلى برج تامنتفوست[2] (غرب رأس ماتيفو cap Matifou، وتُدعى اليوم برج البحري)، بدافع عاجل، ليناقشوا الوضع المأساوي للبلد، في جمعية رسمية، وليُعلنوا موقفهم "من كل تسوية مع العدو [...] حيث لم يتمّ فقط ذكر قضية مدينة البليدة[3] و تطويق مدينة الجزائر، بل ذُكر أيضا تجاوزات الغزاة غاصبي الممتلكات، ومُحرقي المحاصيل، ومُخرّبي المساكن، ومُغتصبي النساء، ومُدنّسي المساجد. ويروي ضابط مرافق لبيرتيزان Berthezène، وهو البارون بارشو دو بانُوان Barchou de Penhoën، أنه 'كان هناك، حول مجلس الشيوخ الأبوي هذا، جمع غفير من أناس هائجين، مُلوِّحين بالأسلحة، ومُتلعِّبين بالأحصنة، ولا يُفوِّتون فرصة التصفيق وإرسال الهتافات الصاخبة حيال خُطَب الشيوخ المنادين بالحرب. وفي الأخير،

(2) هي، بالأمازيغية، 'ثاما ثايفوسث'. ومعناها 'الجهة اليمنى' أي الجهة الشرقية.

(3) ID. ibid., p. 60.

"هي غارة سريعة على مدينة البليدة، قام بها رتل صغير من جندٍ فرنسيين، وانتهت بانسحابهم، واضطروا أثناءها على التخلّي عن موتاهم للعدوّ (يوم 23 جويلية)."

وكونهـــم تحت تأثير ذاك الانتصار المزعوم في مدينة البليدة، استسلم الشعب ومجلس الشيوخ معا، في ترابط الأفكار هذا، إلى فكرة الحرب. وعقد الجميع العزم على الحرب، وهذا وسط هتافات صاخبة وداعية للقتال.'

وكانت جمعية تامنتفوس (هكذا) أول حلقة في المقاومة الجزائرية. ونقل مبعوثون الأوامر إلى القبائل، بهدف القيام بعمل متّفق عليه. فأعلن بن زعموم، الشيخ القوي والفَطِن لقبيلة فليسه (على مدخل القبائل الكبرى [...])، والذي شارك في تموين مدينة الجزائر، عن انشقاقه [...] وفي بايلك وهران، رفض الشاب عبد القادر، عن طريق قبيلة بني هاشم، طلب اللجوء الذي قدّمه الباي حسن، وأخبر عن هذا الأخير بأنه طاغية وخائن[4]. وبعد، فإن غزو الجزائر الآن ستدور رحاه ضد سكان مُوطّدين العزم على مقاومة الغازي، و ثائرين في وجه كل أنواع الرضوخ."[5]

وبالفعل، كانت المقاومة المسلّحة تنتظم في كل مكان، في مقاطعة الجزائر، في القبائل، في مقاطعة قسنطينة، في التيطري، وفي مقاطعة وهران. ولكن جنرالات الاستعراش La Restauration *، وبعدهم بمدّة قصيرة جنرالات مَلَكية جويلية La Monarchie de Juillet **، وهم مأخوذون بنشـــوة المغامرة، والإغرابية، والحاجة إلى مجد عسكري غير مسبوق،

---

(4) انظر تفصيل هذه الفكرة في الصفحات الموالية.

(5) ID. ibid., p. 61.

* هو الاسم الذي أطلق في فرنسا على الفترة التاريخية التي نزل فيها نابليون الأول عن العرش وتولي آل بوربون الحكم من 1814 إلى 1830.

** هو الاسم الذي أطلق في فرنسا على فترة حكم لويس فيليب الأول (1830-1848)، هذا الذي دُعي لتولي الحكم بعد ثورة جويلية 1830.

طالبوا الحملة العسكرية بأن تتقدَّم إلى الأمام، بوتيرة ثابتة، وبأن تستعمل، مرارا وتكرارا، الوسائل العسكرية الجهنمية التي زُوِّدت بها. وهكذا، كان على الحملة العسكرية أن تتقدَّم، بلا رحمة، على طول الساحل الجزائري، مُستحوِذةً على المدن الساحلية، ومُجريةً طلائع استكشافية استراتيجيه في اتجاه الأطلس.

وكان الباي حسن في مدينته، وهران، على معرفة بكل الأحداث التي كانت تهزّ البلاد. ولم يبق لديه أدنى شك في أن الحملة العسكرية، بعد احتلالها بونة، ستتوجّه نحو عاصمته كي تتمكن من السيطرة على الساحل. وما يبرّر مخاوفه أيضا، هو تلك التهديدات بالانتقام من شخصه، الصادرة من الشعب، وكذلك عجز ميليشياته التركية عن حمايته. وكان كلّ الذين يترقّبون اللحظة المواتية للانتقام من طغيانه على علم بذلك. وبالإضافة إلى هذا، فإن المخزن، هذا الاحتياطي من الجنود ذوي الأصل العربي، والموضوعين في خدمة الإدارة التركية، والمستفيدين من مزايا كبيرة، وهذا تبعا لتسلسل صارم في المراتب، بدأ يتساءل عن مستقبل الباي، ما دام البايلك في تزعزع، وما دامت القبائل، المضطهَدة منذ أمد طويل، تتجرأ الآن على معارضته، مُشهِرةً السلاح في وجهه. هذه القبائل التي عليه الفرار منها للنجاة من انتقامها الرهيب.

وحِيَال وضع سياسي كهذا، كان للباي حسن "الذي هدَّه الهَرَم"، والذي لم يكن قادرا على توفير الأمن لنفسه، ولا على القيادة حتّى، كان له اقتناع راسخ بأنه لن ينجح أبدا في التغلّب على هذا النوع من الشعور، الشعور بأنه محروم من كل عون ربّاني، الذي سلبه كل انتفاضة كبرياء.

وكان لزاما عليه إيجاد مخرج لخلاصه، ولكن لا أن يتمثّل هذا في فراره أو في الاتكال على حماية بعض العناصر النادرة من حرسه الشخصي.

وبما أن الصلات قد تقطّعت بينه وبين الحكم المركزي للإيالة (حيث إن الداي حسين كان قد "أُبعد على عجل عن العرش" وبُعث إلى المنفى)، وبين باي تيطري، مصطفى بومزراق الذي لم يكن يألو جهدا في تجريب حظه مع الفرنسيين، وبين باي قسنطينة، أحمد "الفَطِن والنشيط"، الذي أصبح بالنسبة إلى دوق دو روفيقو duc de Rovigo الرجل الذي يجب قنصه، فإن الباي حسن فكّر حينئذ في شخص، كان قَبْلا، منذ ثلاث سنوات خلت، قد أساءَ جدا معاملته، وأصبح، فجأةً، يُكنّ له التقدير الكبير. وأَطْلع رَجُلاً ثِقَةً على اسم هذا الشخص، وأرسله ليحضره إلى وهران في سريّة، كي يتوسل إليه حتّى يضمن له ملجأ من الخطر العظيم الذي سيلحق به إذا ما بقي في منصبه، في مدينته، دونما حماية.

وبالطبع، كان الأمر يتعلّق بالحاج محي الدين، شيخ قبيلة بني هاشم العظيم، والد عبد القادر. واستمع الحاج محي الدين إلى دوافع مخاوف الباي الذي كان يرتجف قَلَقًا والذي كان، في الواقع، يأمل خفية، مع ذلك، في العودة إلى عاصمته عندما ينسحب الفرنسيون من الجزائر - كما كان يعتقد -.

وتلقّى الحاج محي الدين طلب الباي حسن، والدهشة بادية على محيّاه. ثم إنه، اعتبارا لأهمية هذا الطلب، شرح له بعدها أنه يجب عليه، قبل أن يتخذ أي قرار، أن يعرف بالضرورة رأي أصحابه في مجلس بني هاشم.

ولكي يتسنّى للحاج محي الدين عقد هذا المجلس الطارئ، فقد استدعى شخصيات شهيرة في القبيلة، وكذا أعضاء ذوي نفوذ في أسرته. والظاهر أن مشاركة الشاب عبد القادر الأولى والفريدة من نوعها كانت من هذا الباب بالذات. وهذا يعني أن الكلّ كان يعلم أن عبد القادر كان مُداوما على حضور الجلسات المختلفة التي كان يعقدها والده للاستماع إلى مرتادي الزاوية الذين يأتونه ليعرضوا عليه مواضيع متنوعة جدا عن حياتهم الشخصية، أو عن وضع المنطقة العام، وأنه كان يصحبه معه في تنقلاته لأجل أعماله في البايلك.

ويروي الكولونيل شرشل، هذا الذي التقى بالأمير المَنفِيّ، ما يلي، بالتفصيل: "وعند وصوله إلى القطنة، عقد [الحاج محي الدين] اجتماعا عائليا، وطلب من كل فرد أن يُعطي رأيه في المسألة. وأبدى معظمهم رأيا مفاده أن رفض طلب الباي يُعَدُّ نقيصة في الكرم. والحق أنه لم يكن أحد يُنْكر - حيث أجمعوا كلهم على هذه النقطة - بأن الأذى الذي ألحقه بشيخ قبيلتهم المحبوب صَدَر عن سوء نيّة لا مبرّر لها، إلا أنه تمّ التشديد على أن رفض إغاثة الملهوف يُعدّ وصمة عار لشرف العرب.

وتناول عبد القادر الكلمة. واستسمح أهله، وبخاصة والده، لأنه لم يكن على رأيهم. 'ففي حالة الفوضى هذه التي تسود مقاطعة وهران في الوقت الراهن،' قال مبرهِنًا، 'فإنني لست مُطمئِنّا على الإطلاق من أنه سيكون بمقدورنا حماية الباي من تَبِعات شعور موَّحد بالحقد والسخط عليه. ومهما كان ملاذه، فإن الباي سيكون عرضةً لخطرِ السّب، أو الضرب، أو حتّ القتل أيضا. مَن ذا الذي يستطيع إِخماد نار هيجان شعبي،

أو أن يضمن عواقبه؟ وفي هذه الحال، كيف ستكون فضيحة أولئك الذين وعدوه بتصريح أمان، ثم أظهروا عجزهم عن الوفاء به!؟'

ثم تابع عبد القادر يقول:'هناك سبب مهمّ أيضا يقوم ضد استقبال الباي في قطنتنا. إن الملاذ الذي تمنحه عائلتنا لهذا الممثل الممقوت عن الاستبداد التركي يكون لدى العرب بمثابة عفو ضمني عن كل سيرته الماضية. ونتيجةُ هذا هو أن نجعل لأنفسنا أعداءً من كل القبائل التي تَعتَبِر الباي إنسانا كريها. هذا يعني، في الواقع، أننا سنجعل لأنفسنا أعداءً من كل العرب في مقاطعة وهران.'

وفي الحال، أعلن محي الدين اقتناعه ببرهنة ولده، وتحوُّلَه عن رأيه، ثم تَبِعه في هذا الأمر كل أعضاء المجلس فيما بعد. وأرسلوا إلى الباي مُخْبِرين إياه بأنه ليس بمقدورهم قبول طلبه، ذلك أن محي الدين كان لا يرغب في أن يكون الضامن لسلامته."(6)

والتزم عبد القادر الصمت خلال تناول والده الكلمة واتخاذ المجلس القرار. و في الواقع، كان يعتري عبد القادر، خلال كل هذه الفترة، شعور بفرح يعجز عنه الوصف. هذا الفرح الذي كان يتحكّم فيه بثباتِ رجلٍ رزين وذكيّ تغمره سعادة لكونه، لا ريب، تمّ تبنّيه قطعيا من قِبَل المجمع العظيم، مجمع علماء قبيلة بني هاشم.

---

(5) Charles Henry CHURCHILL, op. cit., pp. 59-60.

أنظر أيضا كتاب ج. بيشون J. PICHON، فإن فيه نفس الكلام تقريبا.

وكان والده أيضا قد شعر بإحساس عظيم إذ إنه لاحظ أن ولده قد جلب الأنظار إليه، خلال المجلس، بفضل كل الخصال الحميدة التي يحبّ أعضاء المجلس رؤيتها في أولئك الذين يقترحونهم ليكونوا على رأسهم.

وسجّل الحاج محي الدين، الرجل ذو النفوذ الذي لا يُضاهى، شيخ قبيلة بني هاشم الشريفة، الوالد العطوف والمتطلّب، المُربّي الصبور والموهوب، سجّل تسجيلا طيّبا نتيجة كل الأعمال التي قام بها في حياته، والتي أفاد منها ولده. لقد مهّد له سُبل سُمعة حسنة في مثل سُمعته. وعَرَف عبد القادر كيف يتّبع هذه السُبل بشرف، وكيف يُقيم لنفسه سمعته الخاصة.

وتلقّى الباي حسن الهَرِم الردَّ السلبي من مجلس قبيلة بني هاشم، وخلّف هذا أثرا مهولا في قلبه. كان مذعورا من فكرة أنه بات لزاما عليه أن يتحادث مع الفرنسيين بعد أن خاب رجاؤه، وأحس بأنه مخذول، تعذّبه الوحدة التي يشعر بها الباي الذي أهمله سكان مدينته وخانه مخزنه، هذا الذي أصبح لا يمثّل لديه مصدر فائدة البتة.

وما كان أقرب الفرنسيين! واحتل الجنرال شارل دامريـــمون Charles Damrémont مرسى الكبير (14 ديسمبر 1830)، بلا قتال، لأن السكان رفضوا المقاتلة من أجل البايلك. ونال اليأس البغيض من الباي حسن، الذي هو الآن شيخ رعديد قد قلّل من تنقلاته، وأصبح لا يثق في أيٍّ كان.

وفي العام الموالي، جاءه، ربّما، الخلاص المُخزي الذي انتهى بتمنّيه وبالحصول عليه. ففي يوم 04 جانفي 1831، دخل الجنرال دامريـــمون

ميناء وهران. وكان القبطان لويس دو بورمون قد كُلِّف، قبل ذلك، من قِبَل والده القائد العام دو بورمون بالإعداد للحملة، وبالحصول على اعتراف الباي بالسلطة الفرنسية. "وسلَّم الباي حسن الهَرِم، الذي فقد كل سُلطة على القبائل، المدينةَ والحصونَ للفرنسيين."[7]

وقَبِل الباي حسن بالهزيمة وبالنفي. وسرعان ما تمَّ اقتياده (3 أيام بعد ذلك، يوم 7 جانفي 1831)، هو وعائلته وبعض المقرَّبين القليلين جدا، تحت حراسة عسكرية، إلى مدينة الجزائر التي أبحر منها إلى الإسكندرية.

يا لها من نهاية حزينة لعالم قديم! نهاية حزينة لسُلطة إدارية مُفسدة يدعمها حكم سياسي مُستبدّ و حقير، ترك جيشه القديم مهزوما، مسلوبَ الشرف، قُبالة مستقبل مليء بالتساؤلات. ومع ذلك، فإنه من اللازم التخمين بسرعة في إيجاد أجوبة لهذه التساؤلات، مهما كلَّف الأمر. وتكون هذه الأجوبة صحيحة وناجعة، و هذا من أجل التصدّي للإشاعة المُهلكة التي تروج في مقاطعة وهران. هذه المنطقة الجزائرية الممزَّقة كل ممزّق من جراء ماضٍ طويل من هيمنةٍ تركية، و نزاعاتٍ داخلية أذكتها طموحات متضارِبة لشيوخ القبائل، وانتفاضاتِ عصيان متعددة الأشكال ضد الظلم و الاحتقار، والتي كان الهدف منها، على وجه خاص، هو القضاء على طمعٍ قديم لجارٍ مغربي مُكابدٍ ودائمِ الترقّب لفرصةِ ضم تلمسان إلى إقليمه.

(7) Charles-André JULIEN, op .cit., p. 60.

والحال أن الجنرال بيير بوايي وصل إلى وهران يوم 19 سبتمبر 1831، واستأنف سياسة الجنرال كلوزيل "المتصلِّف المكّار"، وشدّد من سياسته في احتلال مقاطعة وهران، وفي بذر الشقاق بين سكان المدن وسكان الأرياف. وكونه من السيّافين القُدامى في حملات إيطاليا، ومصر، وإيينا Iena، وفريدلاند Friedland، وواقرام Wagram، وإسبانيا، فإنه تمادى في استعمال أساليبه الفظيعة، ونال بسرعة كُنية "Pierre le cruel" أي "بيير الفظ". وانتفض الجزائريون في جموع هائلة للردِّ المضادّ، وذلك بالقيام هجمات على مدن عديدة مثل وهران، وتلمسان[8]، ومستغانم، ومعسكر. ولكنّ "السياسة الإيجابية والمباشِرة" لبيير بوايي كانت قائمةً أساسا على النهب، والحرائق، و المذابح.

وأمام عِظَم المأساة التي كان يعيشها الشعب الجزائري، انظمّ متطوعون من المغرب ومن تونس إلى صفوف المقاومة الجزائرية، وهم مدركون تمام الإدراك بأن العدوان الامبريالي لن يبطئ في أن يمتدّ إلى بلدانهم هم. ومع ذلك، فإن البلبلة عمّت، و كانت في تعاظم مستمرّ، من جرَّاء غياب سلطة مركزية جزائرية.

---

(8) كان خليفة تلمسان، ابن العُمري، وهو من أصل مغربيّ، أحد أبطال المقاومة في بداياتها الأولى. فقبْل أن يلتحق بالمغرب، حيث استدعاه السلطان إليه، حين هاجمت فرق جنود شارل دو مورني Charles de Mornay مدينة طنجة، يوم 4 أفريل 1832، قلّد الحاج محي الدين، وبطريقة نظامية، لقب "خليفة".

17

الاضطراب والفوضى في البايلك

وسريعا ما عمَّت البلبلة في الغرب الجزائري. وإنّ كل الذي حدث من هَول في مدنٍ وأريافٍ باقي مناطق الجزائر، تكرَّر هو هو، على مرأى من السكان المذعورين في مقاطعة وهران.

ونال الخوف، والهلع، والانهزامية، والطموح المقيت، واليأس، والاستسلام، الواحد تلو الآخر، من الجزائريين، كلٌّ حسب مزاياه الأخلاقية، وحسب انتمائه إلى الإقطاعية الإدارية للمخزن، وانتمائه إلى الارستقراطية العسكرية أو ارستقراطية مُلاّك الأراضي، أو إلى عامة الشعب الذي كان في حاجة إلى تحرّر ليتخلّص من طبقة الإقطاعيين، وليتخلّص الآن من الغازي الأجنبي الجهنمي. كتب مصطفى لشرف يقول: "و شَهِد الناس مشهدين. المشهد الأوّل، لأهل الريف والفلاحين، متوسطي الحال، وسكان بعض المدن والضيعات، المنتفضين بعفوية من أجل الدفاع عن أنفسهم، وتقريبا دونما زعماء لقيادتهم. والمشهد الثاني، للعائلات الكبيرة التابعة للمخزن الغابر، ولنبلاء النظام البائد، المترددين والمشدوهين، الذين

لا يدرون هل يتّبعون سبيل كل الناس، أو يحافظون على مصالحهم وأوضاعهم، وذلك بأن يجعلوا أنفسهم في خدمة العدو."[1]

فحيال الحرائق وتهديم المنازل، وحيال الحملات التأديبية، والنهب، والسرقة، ونزع الملكية دونما وجه حق، حيال كل أنواع التخريب التي كانت تمارسها الحملة العسكرية في الجزائر كلها، فإن مؤرخين اعترفوا بهذه الحقيقة البسيطة، والقاسية، والتي مفادها أنه "عند وصول الفرق العسكرية الفرنسية، شُوهِد السكان مغادرين بسرعة، وفارّين إلى السهل". ويشهد جنرال فرنسي، فيما يخص الرعب الذي مُورس بوجه مشابه في بلاد القبائل، قائلا: "ودامت حرب الشوارع هذه مدة ثلاثة أيام، وكما جرت العادة، فإن هذا يثير ضراوة الجندي... فالسكان كلهم إما يهلكون، أو يهاجرون دون رجعة."[2]

وعن الآثار الأولى للابتزاز الذي مُورس في عاصمة الغرب بالضبط، يسجّل المؤرخ كاميل روسي Camille Rousset ما يلي: "منذ رحيل الباي حسن من وهران، واقتحامها من قِبَل الفرنسيين، غادر كل المسلمين المدينة."[3] ومن جهته، يخلُص أوغسطين بيرك Augustin Berque إلى ما

(1) M. LACHERAF, L'Algérie, nation et société, 2e éd. SNED, Alger, 1978, p. 53.
(2) E. DAUMAS et FABAR, La Grande Kabylie, études historiques, éd. Hachette, Paris, 1847.
(3) Camille ROUSSET, L'Algérie de 1830 à 1840, Plon, Paris, 1879, t. II, passim.

يلي: "وباختصار، فإن المَلاَّك الحضري في وهران، كما في مدينة الجزائر، عانى بمرارة من مجيئنا."(4)

ويضيف بسايح إلى هذه التعليقات المختلفة، حول هذه اللوحة المذهلة عن تحطيم المنطقة، قائلا: "لم يعد هناك سلطة تركية، ولكن سلطة فرنسية حُدِّدت لمدينة وهران. وتُركت القبائل الثائرة، وهي دونما زعيم، ودونما إستراتيجية، لحالها. وسرعان ما عمَّت الفوضى، وعاودت القبائل المتناحرة إذكاء الأحقاد فيما بينها، وزاد قُطَّاع الطرق من حدّة البلبلة العامة."(5)

وإنّ وضعية مضطربة كهذه تثير الخوف من إمكانية حدوث حرب أهلية بين الجزائريين وأحلافِ الفرنسيين.

وأغلب الظن أنه في أثناء هذه اللحظات المأساوية التي يخاطر فيها البلد بوجوده، كان القلق عظيما في قطنة الحاج محي الدين. ففي الزاوية، تضاعفت الاستشارات بين أعضاء القادرية، وكانت تحدث ليلَ نهار. وشارك عبد القادر فيها، بدعوة من أبيه، بحماسة ذاك الرجل المستقيم والوَرِع الذي كانه. وعبَّر، أثناء كل جمعية، بكل احترام، عن السخط الذي كان يشعر به، مستمعًا للمُخبِرين، وهم يسردون عليه بالتفصيل الأعمال الإجرامية، والآفات الاجتماعية، التي ولَّدها إخفاق السُلطة المحليّة، وكذلك التسيير الإداري الطويل الأمد والمرتشي الذي، فوق

(4) Augustin BERQUE, La Bourgeoisie algérienne, in revue Hesperis, t. XXXV, 1948.
(5) Boualem BESSAÏH, Au Bout de l'authenticité…la résistance, 'par l'épée ou la plume', p. 34.

ذلك، لاحظه بنفسه، عندما كان طالبا في وهران. إنّ المجتمع الآن يعاني، حتمًا، من بداية انحطاط خطيرة، و على الجمعية أن تجد له العلاج!

وعند الانتهاء من الاستشارات، اقترح عبد القادر على الجمعية أن تُنظِّم، هي نفسها، تدخّلاتٍ في مواقع الاضطراب، وأن توجِّهها، وأن تُتابع الجُناة، وأن تحاكمهم كما ينبغي. ووافقت الجمعية على ذلك. وبتلقّيهم هذه المعلومات، رضي بهذا القرار شيوخُ القبائل المجاورة وأشخاصٌ، فرادى وجماعات، ومنحوا الحاج محي الدين قيادة العمليات، وهذا بالنظر إلى الثقة العظيمة التي يمكن أن يجدها لديه أكثر السكان يأسا. وكونه رَجُل خير ورَجُل دينٍ، ورجلا متعلقا بأرض أجداده ومتيقّنا، رغم كِبَر سنّه، من الفائدة المرجوّة من شخصه في مشروع عدلٍ وإحسانٍ كهذا، فإن الحاج محي الدين لم يرفض العرض. وتلقّى عبد القادر بسعادة القرار الحكيم الذي اتخذه والده.

ويصف شرشل الوضعية المُحزنة التي كانت عليها وهران، و دور الحاج محي الدين في محاولته استرجاع الأمن و القانون في القطاع الجغرافي الخاص بقبيلة بني هاشم، وفي بعض مناطق بني غرّابة، وفليته، وبني عامر، بهذه الكلمات: "وكان الاضطراب والفوضى اللّذَيْن اندلعا في الداخل في ازدياد مستمر. وكان مسلمو المدن الساحلية، الذين فرّوا من منطقة الاحتلال الفرنسية، يهيمون في الأرياف مع عائلاتهم، يغمرهم الرعب واليأس. وكان العرب ينصبون لهم الكمائن، ويسلبونهم ما لديهم، دونما رأفة. أما محي الدين الذي اكتفى إلى ذلك الحين بملاحظة الأحداث باستكانة، فقد أحس أنه قد آن أوان فعل شيء ما. وانطلق عبد القادر

وإخوته، بأمر من أبيهم، يجوبون السهول في كل الاتجاهات، وهم على رأس مفرزة من رجالٍ حازمين، يُوفِّرون الحماية للهاربين التعساء، ويُخلِّصون عددا كبيرا منهم من براثن السُرَّاق، ويُرافقوهم إلى الأماكن الآمنة. و مهما كان العمل الخيري الذي كان بمقدور محي الدين إنجازه، بفضل هذا التدخّل الإنساني الذي جاء في أوانه، إلا أنه كان من الجليّ أنه لابدّ من وجود سلطة أقوى من سلطته لتوطيد، ما يُشبه في ظاهره، النظامَ والحُكم. وازداد هيجان الصراعات والخصومات، وسادت هذه بكل حرية، ليس فقط عبر السهول ولكن في المدن أيضا. و عاودت نار الأخذ بالثأر في الاشتعال، باضطرام شديد. وفي كل مكان، فسح العرب المجال لميولهم الطبيعية إلى الفجور المطلق العنان، وإلى الفوضى.

وكان المرابطون يعقدون اجتماعات طويلةً مديدة، يسودها القلق من هذا الوضع المُخيف."(6) وكانت رقعة الخطر تتوسع أكثر فأكثر، خلال هذا الوقت، مهدِّدةً الجهة الغربية كلّها، رغم كل التدابير المتَّخَذة في جمعية شيوخ القبائل.. والواقع أن هذا الشغور المفاجئ في الدولة، هذا الزوال النهائي لإدارة البايلك، هذا الغياب أو التأسيس المستحيل لسلطةِ حكومةٍ سويَّة، و باختصار، هذا الفراغ السياسي، كان يسمح بكل التجاوزات، وبكل أشكال الابتزاز الجماعي أو الفردي، وبكل أصناف التنافس والتراع فيما بين القبائل من أجل الاستحواذ على السلطة... أو الخيانة المؤدّية إلى الولاء للعدوّ.

(5) Charles Henry CHURCHILL, op. cit. p. 60.

والأدهى من ذلك أن مضاربين، أصحاب امتياز، دونما أدنى اهتمام بالكرامة، كانوا يتنافسون من أجل طموحات حقيرة، وتسويات تجارية، بعد أن قدَّروا بأنهم سيجنْون ربحا خاصا من انهيار المؤسسات المركزية للإيالة (بعد رحيل آخر دايات الجزائر)، والمؤسسات الجهوية للإيالة (بعد رحيل آخر بايات وهران). أما المخزن، بالمعنى العام الذي تحمله الكلمة، أي ميليشيات معقّدة وخاضعة لتسلسل معيّن في المراتب، بما فيها الدُواير والزمالات الشهيرة (وهي مجموع خيَّالة القبائل الموضوعة في خدمة الحكم التركي)، فكان يشهد تقلُّب الزمن. وحاول التقرّب من الغازي الفرنسي، وهذا خوفا على مستقبله ومزاياه. وقد فعل المخزن ذلك بسبب الغيظ الذي ألمَّ به بعد أن نبذه سكان مقاطعة وهران، هؤلاء السكان الذين لم يتوقف أبدا عن تنغيص عيشهم و عن "تشذيبهم" لصالح الباي.

وهكذا دخل الأشرار حلبة الصراع، متنافِسين على ما لا يملكون!

ولكن الأمر بات دونما نتيجة، لأن الجنرال كلوزيل، "ذلك الطمَّاع، العديم الذمَّة على أكمل وجه"[7]، والذي كان متمسِّكا بامتيازاته في تسيير وهران ومنطقتها بطريقة مباشرة، كان يفضّل -تبعا لنصائح ماثيو دو ليسيب Mathieu de Lesseps، قنصل فرنسا في تونس- الاعتماد على مَحْمِيَّة "يعهد بها" إلى "أمراء تونسيين" يتصرّفون باسم باي تونس، الباي حسين، (كما كان قد تصوَّر ذلك بورمون، بالنسبة إلى بايلك الشرق).

(7) Charles-André JULIEN, op. cit. p. 71.

ولكنّ باي قسنطينة، الباي أحمد، "الماهر والنشيط"، كان قد اشتمَّ رائحة الخديعة، التي كانت عظيمة للغاية، وحاربها. "وكان مقتضى الأمر، إجمالا، هو إسباغ الحماية الفرنسية على كل إيالة الجزائر القديمة، ويكون ذلك على يد تونسيين مسلمين."(8) وأكثر من هذا، فإن الاتفاقية آنذاك (18 ديسمبر 1830)، التي أضاف لها كلوزيل "بندا سرّيا" محدِدًّا أن الباي "سيحكم البايلك بكل الشروط والحقوق كما لو أنه تلقاها من الجزائر"، والتي أُبرمت يوم 24 ديسمبر بين الطرفين، نقضها حسين باي بعد فترة قصيرة، مُعتبِرا إياها "بمثابة دليل على سوء نية" الفرنسي لأنها كانت مترجَمة ترجمةً غير صحيحة، وتحمل أخطاء، وخاصة كونها مُقيِّدة كثيرا في المجال السياسي، والمالي، و الإداري، على حساب التونسيين.

وإنّ قضية تعويض باي وهران، الذي نُفي، كانت قائمة عندما عُرِف التدخل المفاجئ لسلطان المغرب، مولاي عبد الرحمان، لحماية حَضَر تلمسان من الكراغلة، الذين هم نسل الأتراك من نساء جزائريات. أما المخزن، فقد آثر خدمة "إدارة" تلمسان الجديدة، علّه بذلك يجد فرصة لضمان مكانته كاملة.

ونال طلبُ النجدة الذي أرسله سكان تلمسان إلى سلطان فاس الدعمَ من قِبَل الكثير من مرابطي المنطقة الذين التقوا في اجتماع ألقى الحاجُ محي الدين خلالَه كلمة طويلة مؤثرة في النفوس، استمع لها، ووافقه عليها، كل الحاضرين، حيث ذكّر قائلا: "وكما تعرفون كلّكم، لقد

(8) Paul AZAN, Les Grands soldats de l'Algérie, op. cit., p. 14.

حاولت منذ أشهر طويلة أن أحافظ بعض الشيء على النظام، وسط هذا الاضطراب العام السائد هنا، ولكنّ جهودي كلها فشلت، اللّهم إلا في تخليص بعض البؤساء، الذين ليس لهم من يدافع عنهم، من وحشية المتوحِّشين.

لقد خارت قوانا بسبب استبداد الأتراك، وسيُقضَى عليها نهائيا إذا ما تركنا الوضع يتطور على ما هو عليه. فاللُّحمة الاجتماعية تتحلّل، والكل يرفع يده على جاره. وإن شعبنا، المستسلم لأهوائه الخسيسة، يُهين كل يوم قوانين الله، وقوانين بني الإنسان. وإن الشرور التي تُحدق بنا من الخارج ليست أقل رهبة من تلك التي تنخرنا من الداخل. فهل ندعو الفرنسيين؟ هذا أمر مستحيل. إن الرضوخ إليهم، وزد على هذا دعوتهم، يكون بمثابة خيانة واجباتنا نحو الله، نحو وطننا، نحو عقيدتنا [...] كلا! فسلطان الفرنسيين، الشديدُ القوة، لا يُجابهه بنجاعة إلا سلطان مثله، يكون على رأس دولة تُساس بإحكام، ولها خزينة هامة، ويأتمر بأمره جيش منتظم. وليس علينا الذهاب بعيدا جدا كي نجده. فسلطان المغرب متعاطف قَبْلا مع هذه القضية. وهو يعلم، علم اليقين، بأن الخطر الخارجي الذي يتربص بنا الدوائر سينتهي بتهديده هو. فحضوره بين ظهرانينا سرعان ما يشجع الأخيار، و يزرع فيهم روح الإقدام، ويزرع الرعب في نفوس الأشرار، ويتوطد النظام. وإذا ما كافحنا، ونحن تحت إمرته، فإن سبيلنا هو النصر المضمون، لأن راياته هي رايات الله ورسوله."[(9)]

(9) Charles Henry CHURCHILL, op. cit. pp. 60-61.

وعيّن مولاي عبد الرحمان ابن عمه و صهره الفتيّ جدا، مولاي عليّ بن سليمان، خليفةً في تلمسان، تحت وصاية القاضي إدريس، الذي هو من وجدة. وأرسله إلى هنالك على رأس جيش قويّ قوامه 5000 فارس، ورحبتان لسلاحِ وعتادِ المدفعية. و لم يحظ مولاي عليّ بتقدير حَضَر تلمسان (وفي هذه الأثناء التجأ الكراغلة إلى المَشْوَر) والقبائل التي اتحدت معها فقط، بل وحظي كذلك بتعاطفٍ وإقرارٍ بالجميل من قِبَل قبائل أخرى. ويروي شرشل أن "محي الدين وعبد القادر وكل زعماء بني هاشم وبني مجاهر وبني عامر وقبائلُ أخرى، سارعوا في الذهاب إلى وَلَد (هكذا) [هو بالأحرى ابن عم] سلطانهم الجديد وممثّله ليقدِّموا له الولاء. و لم تلبث سلطته أن نالت اعتراف كل جهات الإيالة."(10) واحتل مولاي عليّ مدينة معسكر أيضا.

والحال أن "الخليفة جازف سريعا بنفوذه، وذلك بالإجراءات القاسية التي اتخذها ضد الكراغلة، والقبائل التي كانت تابعة لمخزن الدُواير والزمالات، حيث حبس زعماءها، ونهب أموالها. وكان لكلوزيل ردّ فعل صارم ضد التدخلات المغربية."(11)

وفي الوقت الذي كان فيه المخزن، هذا الذي أصبح الآن مكوّنا من بقايا ميليشيات بائدة، وهذا الذي أُصيب في أعمق أعماق أمله في العودة إلى مكانته في المشروع المغربي، يشرع في الميلان إلى جهة الجيش الفرنسي القوي، كان كلوزيل ينوي إرسال بلاغ نهائي إلى عبد الرحمان، يَحمِله إليه

---

(10) ID. ibid., p. 62. الأحرى أن يقول: نالت اعتراف كل جهات البايلك، و ليس الإيالة.
(11) Charles-André JULIEN, op. cit. p. 70.

كولونيـــل أركان أوفري Auvray، ويطالبه فيه بتسليم مولاي عليّ، وأنّه إن لم يُستجَب لهذا الشرط فإن الحرب تكون أمرا محتوما. ولكنّ أوفري امتنع عن القيام بمهمته في مكناس، وكذلك فعل خليفته سيباستياني Sebastiani.

ولم يتمّ القيام بهذه المهمة بنجاح إلا يوم 22 مارس 1832، وذلك على يد الكونت شارل دو مورني Charles de Mornay، صهر المارشال سُولت Soult. ويجدر التنبيه إلى أن السلطان عبد الرحمان، الذي استدعى خليفتَه مولاي عليّ، وأطلق سراح الدُواير والزمالات التي حبسها هذا الأخير، كان في غضون ذلك قد "عيّن خليفةً آخر، وهو الشريف محمد بن العُمري، شيخ قبيلة بني حسن بمنطقة القنيطرة، الذي دخل تلمسان يوم 16 أوت 1931 [...] واستقبل هذا الشريف السفيرَ فوق العادة تحت أسوار مكناس، خلال احتفال كان دولاكروا في موكبه وخلّد ذكراه في ثلاثة أعمال فنيّة. وبعد أحد عشر لقاءً بين هذا الفرنسي المفوّض فوق العادة و ممثّلي المخزن، قَبِل السلطان باستدعاء ابن العُمري من تلمسان، وبالكفّ عن كل عمل في الجزائر. وهذا ما اقتضى سحب وكيليه المُعيَّنَين في مليانة والمديّة، وبأن لا يعهد أبدا بالدفاع عن مصالح أهل المغرب إلى شخص أجنبي، هذا الذي كان الناس يخشون أن يتمثّل في قنصل انجلترا بالجزائر [...] وغادر ابن العُمري تلمسان، تاركًا أمر تنظيم المقاومة إلى جزائري مُنِح لقّب 'خليفة السلطان'، ألا وهو محي الدين."[12]

---

(12) ID. ibid., p. 96.

وفي تلمسان، أسرع أول المعنيين، وهم الوطنيون المتبصِّرون، إلى الرجل الوحيد الذي بمقدوره إصلاح الموقف، وهو الشيخ الحاج محي الدين، ليُقنعوه بتولِّي قيادةِ حركةٍ ناشئة وموحِّدة للصفوف، تكافح المخاطر والمآسي التي تتعرّض لها هذه الرقعة من أرض الجزائر.

وأمام اختيار السلطان عبد الرحمان إيّاه ليخلف محمد بن العُمري، وأمام ضغط أهل تلمسان المثير للعواطف، وضغط من يحيطون به، لم يكن الحاج محي الدين ليرفض، مُتسبّبا في ذلك في صدم مشاعر الأصدقاء. هذا لأنه كان، مثل أهل تلمسان تماما، مُدافعا عن تراثهم وكرامتهم، الأمر الذي بوَّأه الصف الأول للعظماء الذين تُروى وطنيتهم، أهلاً لشخص مثل يغمراسن بن زيان، على سبيل المثال. هذا الذي مكّن قبيلة بني عبد الواد، التي كانت تحت إمرته، من تأسيس سلطة مستقّلة في تلمسان سنة 1235.

وقَبِل الحاج محي الدين إذًا بالذهاب إلى العاصمة القديمة لبني زيان، وهذا كمحاولة أولى منه لطمأنة النفوس (حيث كان الحَضَر والكراغلة والمخزن في نزاع مُعلن)، وبخاصة لتقليم الطموحات السابقة لأوانها، والزائدة عن الحدّ، لبعض النبلاء، منافسيه في السباق نحو السُلطة، مثل القايد بورصالي، والقايد محمد بن نونه (زعيم الحَضَر في المستقبل)، أو الحاج مصطفى بن عصمان (باي مستغانم ومعسكر في المستقبل).

فواجب هذا الزعيم الجزائري، الحاج محي الدين، هو أن يقود المقاومة في الوقت الراهن، بعد إخفاق التدخل المغربي في البايلك من أجل حماية تلمسان ومنطقتها، وبعد الفشل الذريع "للحماية" التونسية في وهران.

وبالنظر إلى الوضع السياسي، فإن العدوّ الأساسي بالنسبة إلى الجزائريين يبقى دائما وأبدا "الكافر أي الغازي الفرنسي."[13]

والحال أنه لم يكن بالأمر الهيّن، بالنسبة إلى الحاج محي الدين، أن يتمكّن في وقت واحد من وضع حد للخصومات التي كانت تفرّق أهل تلمسان، وإصلاح ذات البين بين الفروع ذات القرابة لبني غرّابة (أي فروع سهل سيق وسهل تليلات، وفروع القسم الشرقي من سهل غريس)، التي تفرقت شِيعا بفعل الصراعات الداخلية. وإن الشروع في مقاومة الجيش الفرنسي المحتل لوهران، هذه المقاومة التي تطالب بها معظم قبائل الغرب، تحت راية الجهاد الذي كان محي الدين ينادي به، أضحى أمرا يتجاوز كل الطاقات البشرية والعسكرية المتوفّرة، أو التي يمكن إعدادها لأجل هذا الغرض. زد على ذلك، أن المصيبة في البايلك كانت أعظم! فَبِأَيِّ شيء إذًا يمكن البدء حتى تعود الأمور إلى نصابها؟

(13) Pierre MONTAGNON, op. cit., p. 137.

18

عبد القادر، أسد في حصار وهران

كان من اللازم، أولا وقبل كل شيء، أن تُحرَم وهران من الاتصالات ومن الإمدادات ومن المؤونة التي ستحاول تأمينها كلٌّ من الحاميات الفرنسية في أرزيو ومرسى الكبير، وكذلك جماعات الدُّواير والزمالات التي التحقت بمعسكر الفرنسيين.

وكان من اللازم مهاجمة وهران من داخل البلاد. إذ الإستراتيجية تقتضي أولا اختبار حالة دفاع المدينة الذي أقامه الجنرال بوايي، ثم تنظيم مناوشات دائمة تصل حتى أبواب المدينة. وهكذا، تكون الحامية التي تشغل المكان محصورةً ولا تقدر على التزوّد -بفضل مساعدة قاضي أرزيو[1] أو غيره- بالقمح والعَلَف والدّواب. وفي الأخير، كان أمر القيادة العامة الدائم يتطلّب من القبائل المصمِّمة على القتال أن تكافح الغازي وهي موحَّدّة، وأن تُعلن إرادتها في المقاومة، وكذا رغبتها في تأسيس سلطة جديدة تنال رضا الجميع.

(1) انظر آخر الفصل 4 من هذا الكتاب.

وتعود أولى المحاولات في مهاجمة وهران إلى يوم 17 أفريل 1832، على بُعد "فرسخ، أي حوالي 4 كيلومترات" من المدينة. وقد قادها الحاج محي الدين شخصيا، بمساعدة ولده عبد القادر. وتجمَّع في القتال قبيلة بني هاشم و"القبائل المجاورة لمعسكر، وهي كلّها طموح في أن تبطل الفوضى التي كانت سادت حينها، وحتى تمنح السُلطة للمرابط المحبوب والمحترم (ماحي الدين) [محي الدين]."[2]

وإن التجديد في هذا التنظيم شبه العسكري العفوي، والذي قد يبدو لكثير من الخبراء بالخطط الحربية الإستراتيجية تنظيما "بدائيا جدا" أو "بسيطا جدا"، إنّما يكمن في الهيجان الشعبي الذي أثاره رفض شعب بأكمله الرضوخَ إلى قوانين الغزاة. وكان الشعب يُعبِّر عن هذا الرفض بالجهاد، هذا الكفاح المقدّس، بكل الوسائل، من أجل الدفاع عن أرضه والحفاظ على كل القيم الروحية لحضارته.

وأصبح هذا الهيجان المحلّي، المؤسَّس على الدفاع عن الأرض – الوطن، والمُعترِف من مبادئ العدل و الكرامة و الحرية والرقي، بالنسبة إلى جماهير المدن والأرياف التي التحقت بصفوف المجاهدين، أصبح التزاما مقدَّسا من أجل مَثل أعلى، سياسي واجتماعي في آن واحد.

والحق أن الناس قد أحسّوا بهذا المَثل الأعلى بصفة مُبهمة، وهذا بسبب اعتبارات مختلفة، جغرافية، وتاريخية قديمة، وإسلامية بوجه خاصة، إذ الإسلام دينٌ دعوتُه عالمية. ولكنّ هذا المثل الأعلى كان سيؤسِّس

(2) Paul AZAN, Les Débuts d'Abdelkader, op. cit., p. 216.

بالتدريج - ويؤسِّس ضد الغازي الذي كان عدوَ كل المُثل العليا- الهويةَ الجزائرية، وكان سيتماهى مع المفهوم الحديث للوطن.

ويمكن الإفاضة في الحديث، دونما نهاية، عن الوحدة الجزائرية، والقول كما قال مونتانيون بأنه "لا أحد من الجزائريين أدرك كنهها سنة 1830"، ولكن، هذا أمر لا طائل منه - وأي نصر تافه يُمكن جنيه، ولو دفعنا الناس ليؤمنوا بأن "الفرنسيين كانوا سيُوَلِّدُونه [الشعور بالوحدة الجزائرية] لاحقا بفضل غزوهم، و بفضل النزعة المركزية التي تبعته"(3)؟

ومهما كان من أمر، فإن الحاج محي الدين، المستسلِم لحماسة السكان المتزايدة من أجل الكفاح، قد تحمل تحمّلا كاملا مسؤولية زعيمِ مجاهدين يشكّلون خيّالة خفيفة.

ومنذ يوم 17 أفريل 1832، باغتَ هذا الجيش الشعبي الصغير مفرزة فرنسية، وهزمهاً هزيمة نكراء دونما عناء.

وكانت المفاجأة بالنسبـــة إلى الجنرال بيير بوايي، الذي تلقّى يوم 01 ماي 1832 بلاغا نهائيا من الحاج محي الدين، يُخيّره فيه بين إخلاء وهران أو الخروج إلى القتال. وكانت هذه الإنذارات تُعَدّ الأولى بالنسبة إلى الجنرال حيث " لم يسبق أن خُوطب بلهجة كهذه"(4). ولكنّ الجنرال لم يُجب. وفي مقابل ذلك، فإن جانبه الآخر من شخصية "بيير الفظ" "Pierre le cruel" انصبَّ على تقتيل الجزائريين في السجون، وفي الشوارع. "وشعورا منه بالسخط الشديد، فقد أمر بإعدام بعض العرب

(3) Pierre MONTAGNON, op. cit., p. 142.
(4) Marie d'AIRE, op. cit., p. 4.

المسجونين عنده، بالحِراب على الأرجح، ودونما محاكمة. وكان ذلك ليلة الثاني من شهر ماي."(5)

وفي كل تلك المعارك التي وصلت "حتى أبواب وهران"، تألّق عبد القادر تألقا مُدهشا، مُتمًّا بذلك، إذا جاز القول، استعداده العسكري على أرض الواقع. كتب محفوظ قدّاش ملاحظا ما يلي: "وكشفت المعارك الأولى، التي شارك فيها كمجاهد بسيط، عن ذاك المقاتل، وأقرَّت شجاعته العسكرية. وكونه يهاجم وسط صفوف الفرنسيين، فإنه كاد أن يُمسك ويُحبس بعد أن تلقّى حصانه سبع(6) طعنات بالحِراب. وحدث مرَّة أخرى أن تقدَّم مواجها نيرانا مهولة ليجلب ابن أخيه الجريح. وكان قدوة. كان يتقدَّم حتى يصل إلى المواقع الفرنسية. ويحدُث أن يغامر، ويبقى وسط ساحة الوغى، متحديا مدافع العدوّ، وهذا حتى يجعل المقاتلين يتعوَّدون على عدم الخوف من المدفعية الفرنسية."(7)

ووقعت معارك عنيفة أثناء الزحـــوف المقررّة على وهران (من 03 إلى 08 ماي 1832)، في قرية خنق النطاح، وفي مسيل شاطوناف Château-Neuf، وفي برج رأس العين، وقرب قلعة سانت أندري Fort Saint-André. وكانت هذه الأمـــاكن، التي أعادت الحامية الفرنسية تهيئتها إلى منشآت عسكرية، تشكّل القسم المهمّ في نظام الدفاع الفرنسي ضد غارات الجزائريين. "ويشمـــل نظام الدفاع هذا أيضا قلعة سانت

(5) Joseph LE GRAS, op. cit., p. 39.

(6) ذكر عبد القادر أن فرسه الأشقر طُعن ثماني طعنات برماح العدوّ.

(7) Mahfoud KADDACHE, op. cit., pp. 15-16.

أندري ذات المسَاكن البديعة، والينابيع الرائعة، والمحصَّنة جانبيا بحصنين صغيرين من حجرٍ الغرضُ منهما هو احتواء ضاحية رأس العين التي تمتد نحو الجنوب، وقد شيّد الأسبان في طرف هذه الضاحية بالذات قلعة سانت- فيليب Fort Saint-Philippe، ومخزنَ بارود ومتفجرات، مُحصَّنًا تحصينا جيدا. وكلاهما اليوم أطلال."(8)

وكانت هاتان المعركتان مُكْلِفتين من حيث الأرواح البشرية لكلا الجانبين. وكان بإمكان المكافحين الجزائريين الرضا بنتائج مآثرهم التي تُعزى إلى عزمهم الوحيد على الدفاع عن شرفهم، وإلى بسالتهم المنفردة. هذا، لكون قضيتهم قضيةً عادلة، على العكس من عساكر الحملة العسكرية.

ففي خنق النطاح، يوم 03 ماي 1832، خاطر عبد القادر بنفسه مرّات عدّة، و ذلك ببحثه عن المجابهة، وبهجومه على مراكز العدوّ المتقدِّمة، وباختراقه عمق الصفوف الخطيرة مستهينًا بالموت. وقد شوهد، وهو يشقّ طريقه وسط فرقة جند فرنسية، دونما أن يصاب برصاصة واحدة. وكاد يتعرّض للإمساك به لولا أن حصانه الأشقر، هذا الحصان الذي كان عبد القادر يجيد قيادته بمهارة خارقة، والذي أُصيب ثماني مرّات بالحِراب وبرصاصة في أذنه، لحسن الحظ، أنقذه في آخر انتفاضة بطولية.

(8) M. P. CLAUSOLLES, op. cit., p. 111.

وقد نظم عبد القادر في هذا الموضوع قصيدة طويلة نقتطف منها هذا المقطع القصير جدا:

"ألم تر في "خنق النطاح" نطاحنا :: غداة التقينا، كم شجاع لهم لوى؟
وأشقر تحتي، كلّمته رماحهم :: ثمان و لم يشك الجوى بل وما التوى"[9]

وقامت فرق القناصّة الأفريقية الثانية، القادمة من مدينة الجزائر عبر البحر لنجدة حامية وهران، بهجوم معاكس بكل شجاعة. ونجحت في إصابة جناح جزائري إصابة بالغة. وكان من بين المُصابين ابن أخ عبد القادر. وعدا هذا الأخير بحصانة عدوًا جسورا، وولج في صفوف العدوّ، وترجَّل من على ظهر حصانه، وحمل ابن أخيه، ووضعه على السرج عَرْضًا، وقفز مُردِفا، دون الاكتراث لطلقات نار مَهُولة يقودها الجنرال تروبريان Trobriand. وفي الأبيات التالية، المقتطَفة من القصيدة المذكورة آنفا، يروي الشاعر- المحارب هذه المفخرة:

بيوم، قضى نحبًا أخي[10] فارتقى إلى ::: جنان له، فيها نـــبيّ الرضا أوى
فما ارتدّ من وقع السهام عنانه ::: إلى أن أتاه الفـــوز، راغم من عـــوى
ومن بينهم حملته، حين قد قضى ::: وكم رمية كالنجم من أُفْـــقِه هوى
ويوم قضى تحتي جوادي برمية ::: وبي أحدقوا، لولا أولو البأس و القوى

(9) Henri PÉRÈS, op. cit., pp. 4-10 ممدوح حقي، م ن، ص ص، 28-36.

(10) يذكر ممدوح حقي، م ن، في هامش ص 33، "الشهيد: ابن أخيه السيد أحمد بن محمد سعيد. وكان ذلك في وقعة خنق النطاح الثانية".



(خريطة من إعداد أمبرواز تارديو Ambroise Tardieu، عضو اللجنة المركزية للمؤسسة الملكية للجغرافيا في باريس، 1843)

مواقع المعارك التي كانت تحت قيادة محي الدين، في ضواحي وهران من 03 إلى 08 ماي 1832 (في خنق النطاح؛ شاطوناف؛ قلعة سانت أندري؛ رأس العين؛ قلعة سانت فيليب)، ويوم 19 سبتمبر 1832 (حيال التحصينات التي قام بها الجنلال بوابي في وهران)، ويوم 23 أكتوبر 1832 (ضد قبائل المخزن)، ويوم 10 نوفمبر 1832 (في سيدي شبّال [شعبان؟]).

وتجدر الإشارة إلى أنه بعد مضي بعض السنوات فقط على وجود الحملة العسكرية الفرنسية في هذه المنطقة من القطاع الوهراني، (حيث إن الخريطة أُعدّت سنة 1843، و أن المعارك حوَالَي مدينة وهران وقعت سنة 1832)، فإن هذه الحملة العسكرية المدفوعة بحماستها الإنجيلية الجامحة قد بدّلت أسماء الكثير من الأماكن الجزائرية بأسماء لقدّيسين مسيحيين، وهذا من أجل "القضية الخالدة للأفكار المسيحية التي وعدها الله بالسيادة على العالم، و التي يُعتبر النظام الفرنسي دعما سماويا لها."

(POUJOULAT, Voyages en Algérie, op. cit., p. 301)

وكانت معركة الأتباع في برج رأس العين مذهلة جدا، حيث انقضّ 1500 فارس على أسوار القلعة، وهم يقذفون بمقاليعهم، بمهارة، ويتشبثون بشرفات المرامي لينتزعوا البنادق من أيادي الجنود الفرنسيين.

وكان عبد القادر يبدو كأنه معصوم عن الجروح. كان يركض بحصانه وسط القذائف، ساخرًا من اضطراب العدوّ الذي كان يقصف بالمدافع، مُوقفًا حصانه على رجليه كلما ارتطمت قذيفة ما بالأرض مُحدثة صوتا كالرعد، وحاملاً الجرحى.

وذكر عبد القادر هذه المعركة بكلام جزل حقا، لشاعرٍ سعيدٍ بأعماله البطولية، و لكن أيضا بذاك الإلهام الساطع للشعر الملحمي العربي. و الأبيات التالية، المقتطَفة من القصيدة نفسها المذكورة آنفا، تشهد على ذلك:

شددت عليه شــدّةً هاشــمية ::: وقد وردوا ورد المنايا، على الغوى
نزلت ببرج العين نزلة ضيغم ::: فزادوا بــها حزنا، وعــمّهم الجوى
ومــازلت أرميهم بكل مهنّد ::: وكلِّ جواد هــمّه الــكرّ لا الشوى

ونقل الكولونيل شرشل - وهو على دراية بما يقول - هذه الوقائع أيضا، مُوضِّحا تضحية عبد القادر بذاته أمام المخاطر، وكذا كرمه وروح التنظيم التي يتمتع بها، حيث كتب يقول: "لقد هاجم العرب منذ عهد قريب قلعة سانت - فيليب، ذلك الحصن الحصين الذي يُغطّي جنوب المدينــة. وكان عبد القادر وراء اقتراح هذه العملية وقيادتها في الوقت نفسه. كان من السهل التعرّف عليه، وذلك من خلال برنسه الأرجواني،

وهو يقود فيلقا مختلطا من خيّالة ومشاة حتى أسفل أسوار القلعة. وأعطى الأمر للجنود المشاة بالنزول إلى الخنادق، وبالإبقاء على الأسوار ملتهبة تحت النار، ووضع الخيالة بطريقة تسمح لها بصدّ كل خروج من ذاك المكان. وكان بإمكان النيران التي كان يُطلقها المُشاة والمدفعية الفرنسية على العرب أن تثير البلبلة وسط فِرق الجند الأكثر انتظاما، غير أن عبد القادر، وهو يركض من ذا لذاك، مُشجعا أصحابه بالصوت وبالحركة، كان مُبقيا عليهم في انتظام جيد، مُعلِّما إياهم تحمّل القذائف الرهيبة التي أُحسن صنعُها كي تملأ نفوسَهم رعبا وذهولا.

وتلقى رسالة تخبره بأن العرب الذين وضعهم في الخنادق قد استهلكوا ذخيرتهم، وبأن لا أحد منهم رغب في تعريض نفسه للخطر من أجل تزويدهم بالذخيرة. "جبناء!"، قال متعجِّبا. "هاتوا الخراطيش". لفَّ الخراطيش في جناحَي برنسه، قطع السهل، وحيدا وفرسَه المحضار، وَصَل إلى القلعة، رمى بالخراطيش في الخندق، وبعد أن أوصى رجاله بالتجلّد ومتابعة عملهم، أقفل راجعا. واندهش الجميع لعدم إصابته.

ففي هذه المناسبة ومناسبات أُخَر مثلها، والتي هي مصدر مخاطر ومجازفات يزيل بها نضارة سيفه الفتيّ، فإن شجاعة عبد القادر وإقدامه لم تُكسبه مدح الجميع له فقط، بل أكسبتهم إعجابا به مُتَّقِدا أيضا. وبدأ العرب يُقَدِّرون هذا الرجل تقديرا فيه نوع من الإجلال الخرافي. هذا الرجل الذي كان، بنوع من الحظ المُعجز، يمتطي جواده دونما خوف أو ألم، في كل مكان يتهدّده الخطر، تارة يشق صفّ جوّالي العدوّ، وتارة يهاجم إحدى تشكيلاتهم المربَّعة ويقضي على حِرابهم بضربات سيفه،

وتارة يقف هادئ الأعصاب مشيرا بأصبعه، و بسخرية، إلى كرات المَدَافع التي كانت تصفّر فوق رأسه، أو إلى القذائف التي كانت تنفجر على كثب منه."[11]

وَلْنَدَع جوزيف لوقرا Joseph le Gras يروي لنا معارك عبد القادر العسكرية الأولى. وبما أن الكاتب يهتم بخصوصية الواقعة، ويسرد الأحداث بنبرة مؤرخ حازم، فإن المقتطفات الموالية تشبه إلى حد بعيد خصائص الوثيقة، بالرغم من أنه استقاها، لا شك في ذلك، من مصادر أخرى:

"... ففي ليلة الثاني إلى الثالث من ماي، تحرّك المحاربون [بقيادة الحاج محي الدين]، بصمت، نحو وهران. أقاموا صلاة الفجر معا، وتلقّوا بركات زعيمهم. ثم هاجموا المدينة هجوما عنيفا من الشمال عن طريق أطلال قرية خنق النطاح، واجتاحوا شاطوناف، وأحاطوا بقلعة سانت أندري. كان الصراع فضيعا من الجانبين. فالمهاجمون يعلمون أن الاستيلاء على وهران يعني التمهيد للانهزام الفرنسي. ويعرف المحاصَرون، مسبّقا، المصير الذي ينتظرهم إذا ما دخل العرب المدينة.

وتميَّز عبد القادر في هذا اليوم عن الآخرين. كان يبدو مثل جنيّ الهجوم، ومثل ملاك القتال الضاري، وذلك بمبادرته الخطر، و بمهاجمته المراكز المتقدِّمة بضراوة، وباستخفافه بالرصاص، وببحثه عن المجابهة الجسدية، وبتهشيمه رؤوس أولئك الذين يحاولون الإمساك به، وبتهييج

(11) Charles Henry CHURCHILL, op. cit., pp. 63-64.

حصانه حيال طعنات الأسنّة. وقد تبيَّن أن حصانه خارت قوَّته بعدما أصابته الحِراب في ثماني مواضع، وأفقدته رصاصةٌ أذنَه. أما الفارس، فلم يُصَب بأذًى. وإن أصحاب عبد القادر ليعلمون أنه يتمتّع بشجاعة البطل السامية، وهذا بالإضافة إلى علم المثقَّف، وورع الحاج، وحكمة الدبلوماسي.

ومع هذا، فإن المؤمنين حُكِم عليهم بالهلاك. فمنذ الصباح الرابع من ماي، هجم محي الدين جنوبا، عن طريق رأس العين، على قلعة سانت فيليب، هذه القلعة التي تتحكم في المنابع التي تزوّد المدينة، ودام الاقتتال حتى المساء. وكان عنيفا جدا حتى إن العرب كانوا كالأمواج يتدفّقون على الأسوار، ويَصلون أحيانا إلى شُرُفات الرمي، وينتزعون البنادق من أيادي الجنود الفرنسيين. ومع ذلك، فإن القلعة قاومت، وقُتل حصان عبد القادر وهو على صهوته.

وفي الأيام التي تلت، تكاثر الاقتتال حوالَي وهران، حيث كانت تصل مفرزات جنود أخرى، دونما انقطاع، جالبةً معها حماستها وحميّتها للقضية المقدّسة. ومع ذلك، فإن شيئا واحدا يوقف أحيانا هؤلاء الشجعان، و هو الخوف من المدفع. و لكي يُظهِر بأن المدفعية الفرنسية تُصدر جعجعةً أكثر مما تسبّب الأذى، فإن عبد القادر كان يدفع بحصانه نحو كرات المَدافع المُرتَدَّة عن سطح الأرض، وتظهر هذه القذائف وكأنها تفرّ أمام هجمات هذا الشاب، أو إذا ما سقطت قنبلة متزحلقةً قُدَّامه، فإنه يجعل حصانه يقفز عليها حين انفجارها. ورغم هذه الأعمال الجنونية البطولية، فإنه يبقى منيعا عن أية إصابة. ولكن يجب الإقرار بحق أن

الفرنسيين عرفوا، رغم قلّة عددهم، كيف يحاربون، وكيف يُبقون المدينة تحت سيطرتهم.

واقترب موسم عيد الأضحى. ورغبةً منه في التستّر عن إخفاقه بستار نوايا دينية، فإن محي الدين جمع القادة، وأقنعهم بأنه من اللائق أن يحتفل كل واحد بهذا الموسم المهم في بيته. وستكون العودة إلى الحرب عندما يحين الأوان. وبهذا افترق الجيش."[12]

ولكن الأمر القريب من الواقع هو أن محي الدين، وهو الفخور بسلوك المجاهدين الذين نجحوا بجدّ في إزعاج فرق الجنود الفرنسية، وفي التقليل بشكل ملحوظ من ثقة الفرنسيين في الانتصار، قدَّر أنه من الأجدر تنظيم الحصار في انتظار مكافحين آخرين يلتحقون به. وجمعَ شيوخَ القبائل المكافحة، وبمعيّتهم، ابتكر خطة تكتيكية تتوافق، على أفضل وجه، مع السَّوقيات المتاحة في الميدان.

ولأجل هذا الغرض حاول، عبثًا، أن ينسج علاقات تَقَارُب بينه وبين مصطفى بن إسماعيل، آغا دُواير وهران، القوي النفوذ، الذي شارف آنذاك على الستين من عمره. وكون هذا الأخير محتالا ومضاربا، فإنه رفض حتى "تحالُفًا بين شخصين متساويين في المكانة". وحاول الحاج محي الدين عندئذ أن يتفاهم مع محمد بن إبراهيم، مقدَّم الطريقة الدرقاوية، و لكن هذا الأخير فضّل " الاهتمام بمسائل المسلمين الدنيوية".

(12) Joseph LE GRAS, op. cit. pp. 39-40.

وعلى العكس من ذلك، فإن الجزائريين، على العموم، اتفقوا على احترام تعليمات الحصار لاسيّما بالتزام خطِ سيرٍ صارم ومراقَب في توزيع منتجاهم من الحبوب. فكانوا، على سبيل المثال، "يفضّلون بيع قمحهم بثماني فرنكات للصاع، في مدينة الجزائر، وقضائهم 20 يوما سيرا على الأقدام، بدلا من بيعه بعشرين فرنكا في موضعه، في وهران. وكان أيضا من المستحيل ابتياع الأحصنة الضرورية لِفرق القناصة الأفريقية الثانية من قاضي أرزيو [...] أما من الجانب الفرنسي، فقد تضاعفت حالات الهروب من الجيش. وبدأ الضباط يتذمّرون بعد إساءة الجنرال التعامل معهم..."(13)

وعاود المجاهدون، يوم 19 سبتمبر، مناوشاهم للعدو، وذلك بإكثار هجماهم من أجل دخول وهران، ولكنهم اصطدموا بتحصيناتِ دفاعِ المدينة التي تمّ تدعيمها أيضا، خلال الهدنة التي قررت القبائل المكافِحة عقدها من جانب واحد.

ولا أهمية لذلك، لأن جيش محي الدين شنَّ هجمات أخرى على المدينة يومي 16 و23 أكتوبر 1832، آملاً في الوقت نفسه في أن يدفع قسما من قبائل المخزن إلى الرجوع عن غيّهم.

وأبدى عبد القــادر، مرة أخرى، شجاعة و تضحية و طاقة في الكفاح أثارت الإعجاب والحماسة في معسكر الجزائريين. فأحصِنته المختلفــة كانت، على حدّ قوله، تغوص "في بحار الآل". وكان يُعلي

(13) ID. ibid., op. cit., passim.

ذكرها في أشعاره، كرفاق كفاحٍ أوفياء. وقد افتخر بها بطريقة مثيرة للعواطف في هذا البيت:

وكم من مفازات، يضل بها القطا ::: قطعت بها والذئب من هولها عوى

وإنه لفي يوم 23 أكتوبر بالذات، قام عبد القادر بعمل، ويا له من عمل بطولي، لينقذ ابن أخيه. وقد ذكر هذا هو نفسه في القصيدة التي أوردناها سالفا.

وكانت بسالة عبد القادر الرائعة هذه، والتي لم يسبق لها مثيل في حاضر تاريخ غرب البلاد، تعمل على إعداد أسطورته...

ويجب القول أنه إذا ما كانت المناوشات المتجددّة بلا انقطاع، تستنفد عزيمة الكفاح لدى الجنود الفرنسيين المحاصَرين، فإن الإحساس بنفاد الصبر من عدم القدرة بَعدُ على دخول وهران كان، لسوء الحظ، يتملّك المجاهدين الذين أصبحت شجاعتهم تضعف مع مرور الزمن. وبالإضافة إلى هذا، فإن قلةَ الوسائل المادية العسكرية والتنسيق العسير بين الوحدات، وهو نتيجةٌ وخيمةٌ في جيش يشكّله متطوعون "يأتون ويذهبون حسب رغبتهم"، جعل حصار وهران، حصارا شاملا، أمرا غير ممكن، ومنه استحالة الإبقاء على حصارٍ مستديمٍ و فعَّال.

ثم إنه، مهما كانت شجاعته، ومهما كان تصميمه على إنقاذ وطنه، فإن الشيخ الورع الحاج محي الدين، الذي كان يتملّكه حزن عميق بسبب إخفاقه في أن يكون فعلا قائدَ الحرب المأمول، بدأ يعاني من خَوَارٍ مُضن لقواه. لقد مضى عليه بعض الوقت، وهو مريض، غير أنه كانت له

انتفاضة شرف لقائد حرب كي يجنّد عساكره للكفاح، وهو على رأسهم. وكان إذّاك يتحمل كل الآلام النفسية والجسدية التي كانت تُرهقه، مُنصتًا فقط إلى صوت ضميره. "وأخيرا، ظهر محي الدين فجأة مواجهًا وهران، يوم 10 نوفمبر، حيث كانت منطقة سيدي شَبَال (شعبان؟) مَسرحًا للاقتتال [...] وعاد محي الدين إلى القطنة يائسا."[14] كانت تلك آخر محاولة لدخول المدينة.

والملاحظ، من أرض الواقع، هو أنه إذا كان عزم الرجال، ونُبل طبيعتهم، المُقترنان بحب الله وأرض الأجداد، أمرا مطلوبا من أجل تخليص البلاد، فإنه كان من اللازم أيضا على المقاومة أن تكون منظّمة تنظيما مُحكما. وكان من الضروري جدًا أن يتوافر هناك استعداد طويل، وكثير الجديّة، من أجل صدّ عدوٍّ كان يصارع بسلاح حديث، وبحملة عسكرية مكوَّنة من عشرات الآلاف من الرجال، يتمّ تحديدهما لأدنى مطلب تقتضيه أهداف الغزو.

وكان من اللازم التوقف لفترة. وهذا ما اقترحه محي الدين. لقد تمّت مناقشة هذا الأمر، وإقرار القيام به، رُغما عن بعض شيوخ القبائل، ورُغما عن عبد القادر الذي شرّفت حيويتُه القتالية حيويتَه الفكرية على أرض المعركة.

وجَدَّ الحاج محي الدين، بنزاهة، في إفهام كل أولئك الذين عيّنوه قائدا عاما بأن الحصار كان فشلا على المدى الطويل، لأنه لم يُذهب عنهم

(14) ID. ibid., p. 45.

همومهم، وبأن الأمر كان يقتضي القيام بحرب حقيقية على فرنسا، حرب شاملة، طويلة الأمد، لأجلها لن يكون هناك ما يكفي من ذكاء كل الجزائريين، ومن حيلهم الحربية، ومن مهارتهم، أو من بسالتهم، للإلقاء بالعدو في عرض البحر.

و كن، ما عسى الحاج محي الدين يفعل من أجل وطنه وقد قارب السبعين؟ فأحرى بالجزائر أن يكون لها قائد شاب، صارم، مقدام، ذكي، ونشيط، وبدرجة أعلى يكون عسكريا. لا ينال رضا سكان الغرب الجزائري فقط، بل يرضى به كل الجزائريين، ويكون أعلى مقاما من كل شيوخ القبائل المعروفين.

ولعلّ بعض الناس، وهم يستمعون لشروح شيخ قبيلة بني هاشم المُسنّ، كانت أذهانهم تنصرف إلى عبد القادر. هذا أمر لا ريب فيه، غير أن هناك حقيقة قائمة من شأنها تكون بحقٍ قد زرعت الحيرة في نفوس بعض المرابطين من ذوي المكانة المرموقة. وفي ذكر هذا الموضوع، كتب شرشل يقول، وهو محق في ذلك،: "ومع هذا، مهما كانت الثقة التي كان يضعها العرب في قائدهم الشاب، ورغم أنهم أقرّوا له بذكاء متفوِّق قادر على أن يقودهم في كفاحهـــم ضد العدو الكافر، فإنهم كانوا يشعرون بأن طريقة المعارك المتفرِّقة هذه لم تكن تكتيكا حربيا. وكانوا يُدركون إدراكا جيدا بأن كل جهودهم ستذهب سُدًى، وبأن كل تضحياتهم ستكون دونما فائدة، إذا لم يكن هناك عقل مدبِّر ينظِّم، ويُعدّ ميزانية،

وذلك بجباية الضرائب بانتظام، ويقتصد في الموارد ويوزّعها، ويُعِدّ مخطّط حملة محدَّدًا بوضوح، وينفّذه."(15)

وخلال فترة التوقف هذه، ظهرت الفوضى من جديد في منطقة وهران، كما في باقي مناطق الوطن، معزَّزةً من قِبَل الجيش الفرنسي وشرذمة من إقطاعيين رجعيين. وكانت هذه الفوضى أشد قسوةً في منطقة وهران. وبدت إذّاك أوضاع لا تُحتَمل، وغير أخلاقية، مِنْ نهبٍ واستبدادٍ، ونزعٍ للملكية، وسلبٍ، و تدميرٍ، ونفيٍ للجزائريين ووضعهم في السجون، وغطرسة القبائل التي يسيطر عليها المخزن وانتقامها، وقمع المخزن لكل أولئك الذين حملوا السلاح ضدّه وضد الغازي، ذاك الذي يسعى إلى عرض خدماته عليه، و إلى تلقّي مزايا خاصة منه، مقابل ذلك. ولوحظت هنالك أمارات يومية تدل على الأسى، وعلى تدهورٍ في كل مجالات الحياة الاجتماعية، مِنْ اضمحلال للصناعات الحرفية، وإفلاس القرويين، وبؤس، ومرض، ومن اغتراب طوعي للجزائريين إلى البلدان العربية، وحتى إلى فرنسا، ومن أمواج بشرية طاغية من مهاجرين قادمين من عديد البلدان الأوروبية، والتي غالبا ما كانت تشمل عائلات بأسرها. فإخلاء البلد من أهله من جهة، والاستعمار من جهة أخرى، جعلا من هذا ظاهرةً مذهلةً، و مثيرةً للغضب، على مستوى بلد شاسع كالجزائر.

(15) Charles Henry CHURCHILL, op. cit., p. 64.

وكان شيوخ القبائل خلال هذه الفترة يعقدون الاجتماع تلو الآخر، دون أن يتمكنوا، ككل مرّة، من الرضا عن ما تمّ التوصل إليه فيما يخص المشاكل التي كانت تشغل بالهم. و ظهرت اختلافات جديدة، ولا شيء كان بمقدوره تذليلها ما دام جوهر المسألة وأصل المشكلة لم يُطرق بعد، ألا وهو الحدّ من المطامح، وطرح الأحقاد التي يحملها كل طرف للآخر جانبًا. وفي الأخير، وبعد أن استعادت البواعثَ الداعية إليها، وهي المتوافقة دواماً مع روح النضال لدى الحاج محي الدين، "نُوقشت هذه المشاكل كليَّة خلال جمعية عامة مهمة عُقدت في معسكر."(16)

وكان الوقت يستوجب العجلة. وكانت الأرض والأنفس في انحطاط. وعاود الجيش الفرنسي دورة حملاته في المنطقة، ليغزو الأراضي، ويوسِّع رقعة سلطته، هذا الجيش الذي انتعش بفضل سياسة الحكومة، وبفضل الإمدادات المتلاحقة التي سمحت له بها. وبالإضافة إلى هذا، فإن هذا الجيش كان يتلقّى التشجيع في ذلك من قِبل سياسة القمع التي كان يمارسها الجنرال الخسيس بوايي الذي كان "يُكنّ الاحتقار التام للحياة الإنسانية"(17)، والذي كان لا يزال قائدًا للقطاع العسكري في وهران، وحاكمًا للمدينة "كمثل باشا ذي حكم ذاتي".

ومن جديد، نادى شيوخ القبائل ومرابطون ذوو سُمعة، و هذه المرّة من معسكر، إلى ثورة شعبية، وإلى العودة إلى حرب الأنصار. وقدَّموا اقتراحات ملموسة في سبيل مقاومة منظَّمة. ووجَّه بنو هاشم

(16) ID. ibid., p . 64.
(17) Charles-André JULIEN, op. cit., p. 83.

وبنو غرّابة وبنو عامر، وهم صفوة معسكر المعروفون بتقاليدهم العريقة في التمدّن وبوطنيتهم وثقافتهم، وجّهوا دعوة إلى الحاج محي الدين في آخر اجتماع لهم - وهو مؤتمر طارئ- لاستشارته في الأمر. وقد كان الحاج محي الدين الوقور جدا "يأخذ إذّاك قسطا من الراحة في القطنة."[18]

وبما أن الجميع مقتنعون بأنه ليس في مقدورهم دحر الغازي إلا إذا كانوا مسلّحين، وتحت سلطة مركزية منظّمة، فإنهم طلبوا من ذاك الشيخ الجليل أن يتولّى من جديد قيادة المقاومة، ومنحوه لقب سلطان أي المسؤول عن السلطة العليا في البلاد، وهذا مع إلحاحهم الإلحاح الشديد عليه بقَبوله.

(18) Charles Henry CHURCHILL, op. cit., p. 64.

19

"يا حاج محي الدين، خيّرناك... فاختر!"

وأجهد الحاج محي الدين نفسه في الذهاب إلى معسكر، وما كان ذلك إلا بدافع واجب التضامن مع ذويه في البحث عن السبل والوسائل لتدارك المصيبة التي تخيّم على البلاد، وما كان ذلك أيضا إلا بدافع ممّا تقتضيه أعراف التمدّن، واللّباقة، والأدب.

ولأنه كان رجلا صافيَ السريرة، واعتبارا منه للحبل المتين الذي كان يربط بينهم في الماضي القريب، في الكفاح السياسي والديني والعسكري المشتـــرَك، فإنه لم يكن بالطبع، رغم هزال صحته، ليتحمّل خيبة أمل كل هـــؤلاء الرجال فيه بأن يرفض دعوتهم الكريمة، وهم أهل خير من مرابطين أفـــذاذ، ونبلاء أعيان، وشيوخ قبائل، وموفَدين عنها (وهم أساسا بنو هاشم، وغرّابة، وبنو عامر[1])، هؤلاء الذين كان يُقدِّر

(1) تقع هذه القبائل في الحيّز الجغرافي وسط - غرب مقاطعة وهران (معسكر - وهران - تلمسان)، وتتوزع، على وجه التقريب، على هذا الشكل: تقع قبيلة بني هاشم غرب معسكر. وهي تشمـــل خمس مجموعات لغرّابة جهة الشرق (سهل غريس، حيث أهل غريس، و جزء من البرج وتصل حتى قلعة) و تمثّل بني هاشم شرّاقة، و خمس مجموعات لغرّابة جهة الغرب (الأراضي

فيهم المروءة. وقد أدرك الحاج محي الدين تماما الطابع الاستعجالي والمأساوي لهذا النداء القادم من معسكر، المعقل الأساسي في قلوب بني هاشم.

وفي معسكر، تجمّع سكان المدينة والسكان القادمون من غريس ومن التجمعات السكانية المجاورة، في المكان الذي كان سيُستقبل فيه الحاج محي الدين. وحال وصوله، قابله هؤلاء بهتافات ترحيب حارّة، تصحبها أيضا توسّلات والتماسات صاخبة بأن يضع حدا للفوضى في المنطقة.

وكان شيوخ القبائل يلاحظون المشهد، و هم متيقّنون من أن الحاج محي الدين ستُغريه هذه الحماسة الشعبية بما فيه الكفاية، وسيقبل العرض. هذا العرض الذي قدّموه لشيخ القادرية المُسنّ، وأعلموا به كل سكان سهل غريس، وسكان ما وراء الجبال المجاورة.

ويروي شرشل بذاك التوكيد الذي يطبعه، قائلا: "فما إن ظهر ووطأت قدماه الأرض، حتى أحاط به حشد من المتحمّسين. وتعالت

خمس مجموعات لغرّابة جهة الشرق (سهل غريس، حيث أهل غريس، و جزء من البرج وتصل حتى قلعة) و تمثّل بني هاشم شرّاقة، و خمس مجموعات لغرّابة جهة الغرب (الأراضي الغربية لمعسكر، و جزء يقع بين معسكر، فروحة، وعين فكّان). ويشكّل الغرّابة 15 قبيلة موزّعة في جنوب-شرق وهران (تليلات و سيف). وعدد قبائل بني عامر 26 قبيلة، تقع في منطقة سيدي بلعباس الشاسعة. تُدعَى القبائل الواقعة شرق مدينة سيدي بلعباس، بني عامر شرّاقة، وتُدعَى القبائل الواقعة غرب هذه مدينة، بني عامر غرّابة. أمّا بالنسبة إلى قبائل المخزن (الدُواير والزمالات)، فهي تتقاسم جنوب-غرب وهران، بحيث تقع الدُواير في المنطقة الساحلية، والزمالات في المنطقة الداخلية. (أنظر الخريطة المرفقة.)

أصوات وسط ذاك الصخب حيث كان يُؤنَّب من كل جانب بهذه الكلمات: 'يا محي الدين، إلى متى نبقى إذًا دونما قائد؟ إلى متى ستبقى تتفـــرَّج على أخطائنـــا دونما تأثر؟ أنت الذي بإمكان اسمك وحده أن يجمع كل الطاقات، وأن يعيد الشجاعـــة لليائسين، وأن يُسكِت أصحاب النوايا السيئـــة، وأن يعطي القوّة والترابُط لقضيّتنا المشتركة؟ فالكثير من أشجع الشجعان قد تخلفوا الآن عن الموعد، وقلوبهم مُثقلة بالقَرَف والملل. فمن إذًا يعوِّضنا عن خسارتنا، ويعوّضنا عن أحصنتنا الميّتة، وأسلحتنا المُدمَّرة وغير الصالحة؟ أنت، يا محي الدين، المسؤول عن كل هذا.' وحينئذٍ، صاح في وجهه شيوخ القبائل، وسيوفهم مصوَّبة نحو صدره، قائلين: 'خيّرناك، فاختر: إما أن تصبح سلطانا علينا، أو يُقضى عليك في الحال'."(2)

وفجأة، اتخذ ذلك القَدْح، وتلك الصرخات العالية، مظهرَ مطلبٍ رسمي غير مسبوق. فحتى ممثلو القبائل عبَّروا عن أنفسهم بصرامة تكاد تكون مكشوفة تماما. ومع هذا، فإن الحاج محي الدين تمسَّك برفضٍ مهذَّبٍ، عقلانيٍ للغاية، وقاطعٍ. وكعادته، تذرَّع، بصورةٍ مستمرة، بسنّه المتقدِّمة، وحالته الصحية المتدهورة، وشرح لهم كيف أن صالح البلد يكمن في اختيار رجلٍ آخر، تتمثـــل فيه صفات القائـــد، كما ذكر لهم ذلك عديد المرات، رجلٍ يعترف به الجميع، رجلٍ بارود قادر على تنظيم

(2) Charles Henry CHURCHILL, op. cit., p. 64.

المقاومة المسلّحة وقيادتها، ليس فقط ضد الغازي الفرنسي، ولكن ضد المارقين والخونة الجزائريين أيضا.

ولم تُمرَّ هذه الكلمات، هكذا، دونما اكتراث بها. غير أن الصمت المطبق الذي أعقبها كان يلوّح إلى احتمال فشل المؤتمر. وحينئذ، تذكّر بعضهم الوقائع التي حدثت في كل البلاد، هذه الوقائع التي حثّتهم من جديد على البرهنة بأفكار أكثر، وعناد أشد، لإقناع الجميع بضرورة تعيين الحاج محي الدين كسلطان، ودفعه إلى قبول القيام بهذا الواجب الوطني.

وبما أن المناقشات تتابعت إلى ساعة متأخرة من الليل، ودونما نتيجة، فإن أعضاء الجمعية، بعد أن أضناهم النقاش المُملّ وغير المنقطع، وبعد أن نال منهم التعب والعياء، قرّروا أن يُعاد، بكل تأكيد، طرح موضوع المؤتمر في اليوم الموالي.

وعادوا، كلٌّ إلى مخيّمه، خائبي الأمل، متضايقين، ولكن دون أن يستسلموا لليأس.

كتب بوعلام بسايح يقول: "وحُدّد اليوم الموالي موعدا للّقاء. وفي أثناء ذلك، وبانتشار خبرٍ مفاده أن هناك مؤتمرا مُهمّا سيُعيَّن فيه القائد الجديد، هرعت القبائل المجاورة صوب محل إقامة محي الدين. وكان السكان ينتظرون في هذا الجو المحموم، والمُكتنَف بنفاد الصبر وبالأمل. وفي الوقت الذي كان فيه محي الدين يصّر على رفضه، خاطبه شيوخ القبائل، الذين أفادوا من الليل لاقتراح جوابهم، بالكلمات التالية: 'لا يمكنك أن تتنصل من قضيّة الدفاع عن أرض الإسلام. وإذا رفضت،

فإننا نُعلن في الناس بأنك المسؤول عن المآسي التي ستنجرّ عن ذلك وتصيب سكان هذا البلد.'

وبما أنه بقي غير متأثّر، ومتذرعًا بسنّه المتقدمة، قائلا لهم: 'يلزمكم رجل شاب، نشط، ذكي وشجاع'، فإنهم أجابوه بقولهم: 'حسنا، بما أنك لا ترغب في هذا، فاجعل علينا سلطانا، ليس ولدك البكر الذي هو رجل كتب، ولكن ولدك الأصغر الذي هو رجل بارود.'(3)

وبعد أخذ وعطاء، ووشوشات، وضغوطات لا متناهية، خرج الشيخ محي الدين من خيمته وقال: 'ها هو ذا سلطانكم، أطيعوه كما تطيعون محي الدين. ألا سدّد الله خطى السلطان.'

وتعالت الهتافات العظيمة من قِبَل الحشد المتجمع، وسط حمحمة الخيول، والزغاريد الثاقبة الصادرة من الخيام المجاورة. كان ذلك يوم 21 نوفمبر 1832. وكان عبد القادر إذّاك في الرابعة والعشرين من عمره."(4)

ويسرد شرشل ، من جهته، رواية مفصّلة عن تلك الوقائع في كتابه "حياة عبد القـــادر" La Vie d'Abdel Kader. وللتذكير، فإن هذا

(3) ارجع إلى كتاب ج. بيشون، في الصفحة 18 منه، و انظر قوله: " وصاح في وجهه أعيان بني هاشم وبني عامر قائلين: 'حسنا! بما أنك لا ترغب في أن تكون قائدا علينا، فاجعل علينا سلطانا، ليس ولدك البكر الذي هو ليس إلا رجل كتب، ولكن ولد الزهرة، الذي هو رجل بارود.'"

(4) Boualem BESSAÏH, De l'Émir Adbelkader à l'Imam Chamyl, op. cit., pp. 15-16.

الكتاب هو سيرة حياة الأمير "كتبها بإملاء شخصي منه، وهي مستقاة من مصادر أخرى موثوقة".

وها هو ذا مقتطف طويل من هذا الكتاب: "لقد تأثر محي الدين أيّما تأثر، ولكنه كان في كامل حضوره الذهني. فطلب منهم أن يستمعوا إليه، حيث قال: 'أنتم تعلمون جميعكم بأنني رجل سلام، وقفت نفسي على خدمة الله. وإن مهمَّة الحاكم لَتقتضي منه اللجوء إلى القوة الوحشية، وإراقة الدماء. وبما أنكم تُلحّون إلى هذه الدّرجة على أن أكون سلطانا عليكم، فإنني موافق على ذلك، وإنّني متنازل عن هذا لصالح ولدي عبد القادر.' وتلقّى الناس هذه الطريقة المفاجئة، وغير المنتظَرة، في حل المسألة، بإشارات قبول صاخبــة. وتردّد اسم عبد القادر بحماسة. وغدا الموضوع العام لكل الذين تناولوا الكلمــة هو طبع ولد محي الدين، وسيرته، وسلوكه النشــط، وقيمته الموثوق منها. وفي الحال أُرسل فارس لإحضاره من القطنة.

وفي اليوم الموالي، يوم 21 نوفمبر 1832، دخل عبد القادر مدينة معسكر، عند طلوع الشمس. وكانت كل الطرق والشوارع المؤدية إلى المدينة مكتظة بالمتفرجين. وتبارى الجمع، رجالا ونساءً وأطفالا، في إظهار مشاعر الفرح والترحاب بسلطانهم المستقبلي. وأُدخل عبد القادر إلى الساحة حيث أنعُقد المجلس، وأُطلع على كل ما جرى. كان هادئا، متحكِّما في نفسه، هادئ الأعصاب، حيث قال ببساطة: 'واجبي هو إطاعة أوامر والدي.' وبعاصفة من التصفيق، حيّا الجمعُ هذا الاعتراف البسيط بطاعة الولد لوالده، وهذا الإخلاص للوطن.

وتلقّى السلطان الشاب، ذو الخامسة والعشرين[5] آيات الولاء من النبلاء وشيوخ القبائل المحيطين به، وهو جالس على عرش من عهد قديم، كان فيما مضى مِلْكا لأحد عظمـــاء الأسبان. وقد تمّ إخراجه، ونفض الغبار عنه، بهـــذه المناسبة. وتعالت الأصـــوات من كل الجمعية منادية: 'يحيا سلطاننا عبد القادر. النصر لسلطاننا عبد القادر.' وردّد الشعب المتجمهر في الخارج هذه الصيحات. وهكذا، تمَّت تحية ميلاد الخلافة العربية.

وفي زوال ذلك اليوم، ذهب عبد القادر إلى المسجد حيث اكتظ الحشد في جو خانق. وبعد أن أتمّ صلاته، انتصب واقفا، ثم أُعطي مُصحفا، وبدأ في التلاوة والتفسير. وشيئا فشيئا، انتعش، وأصبح صوته أكثر جهورية، وبدت لهجته أكثر حماسةً، وحركاته أشدّ رزانةً، حتَّى إن وعظه نأى بعيدا عن المَواطن العادية لمعالجة الموضوع، إلى مواضيع أكثر رفعة، وأكثر إثارة.

وهكذا، غمر هذا الناسك-المحارب مستمعيه في فيض متواصل من كلامٍ مؤثِّر، متأجّج، ومتّقد، ليس خلال دقائق فقط، بل دام ساعات، وحتى أُفول الشمس في الأفق. واسترسل في الحديث، بصوت مُحزن من الألم، عن الأخطاء، والآثام، والجرائم، والويلات التي دنّست أرض الوطن. ووصف لهم، بِصُوَرٍ مجازية، العذاب السماوي الذي يلحق بشعب كافرٍ، منغمسٍ في الحرام. وذكر لمستمعيـــه، مرّة أخرى، وبكلمات ملتهبة،

(5) بالأحرى، كان عمره إذّاك أربعا وعشرين سنة، إذا ما كان تاريخ ميلاده (حسب مصادر مختلفة) هو فعلا يوم الثلاثاء 15 رجب 1223، الموافق يوم الثلاثاء 6 سبتمبر 1808.

الصورة المرعبة لوطنهم الذي عاث فيه الكافر فسادا، ولبيوتهم المنتهَكة الحرمة، ولمعابدهم المدنّسة.

ولم تفتأ تلك الدهشة، وذلك الذهول الذي تملّك مستمعيه، مُذ كلماته الأولى، أن يَتحوّلا إلى رَدّة فعل، يشوبها العار والندامة وتأنيب الضمير، كانت تغزو ضمائرهم شيئا فشيئا. ولكنه، عندما ينادي مواطنيه، ويداه ممدودتان، وعيناه تنبعث منهما الشرارة، بكلمات تشعّ بألَق الإلهام، يناديهم إلى النهوض والسير بإقدام من أجل القضية المقدَّسة، قضية الله ورسوله، وإلى الانضمام إلى لواء 'الجهاد'، وإلى التباري مع الشهداء الأمجاد، شهداء الإيمان الصادق، والذي يصفهم في صور أخّاذة، أرواحًا محرَّرَة لأبطال سقطوا في ساح الوغى، وهم يدخلون إلى عالم الخلود، فإنهم ينتفضون قائمين ملوِّحين برماحهم، مُشهِرين سيوفهم و صائحين، وهم في غمرة الصراخ والدموع: 'الجهاد! الجهاد!' [...] وبإيجاده قوى جديدة في توافق الحضور وفي هتافاتهم، فإنه كان يتلملم ويندفع من جديد، وعيناه تتألقان و يتطاير منهما الشرَر، ملوِّحا بيديه إلى السماء كما لو أنه كان يترجّى شهادة الرب. وفي الأخير، غدت حماسته مُريعة جدا، ولا تُطاق، حتى إنه كاد أنْ يفقد الصواب لولا أن الطبيعة أنقذته من هذا التوتّر الفظيع بأن ذرف دموعا مدرارا [...]

وفي اليوم الموالي، يوم 22 نوفمبر 1832، توجّه عبد القادر، في موكب رسمي، إلى وادي إرسيبيا [الخصيبية] على بُعد عشر دقائق من معسكر، سيرا على الأقدام. وكان في انتظاره هنالك نحو عشرة آلاف فارس لاستقبال مَلِكهم المُعيَّن حديثا، ولتقديم التحية له. وكانوا مفوَّجين

إلى قبائل، في شكلٍ هلاليٍّ متواصل حول خيمةٍ فخمة، نُصبت وسط السهل. وكان سّكان معسكر برمّتهم يشغلون الأرض المجاورة.

وفي الوقت الذي انبلجت فيه أشعة الشمس المائلة من على قمم جبل نسموت (هكذا)، منيرةً مسرح الأحداث بنوع من الضياء السحري، أعلنت الأصوات الحادة للنساء، وصيحات الرجال، وطلقات البنادق غير المنقطعة، اقترابَ موكب المَلِك. وكان على رأس الموكب جوقة مختارة تحرس لواء الجهاد، يعقبها شيوخ بني عامر، بني مجاهر، بني يعقوب وبني عبّاس، وهم على مطاياهم المُعدَّة للزينة والمسرَّجة تسريجا فتّانا، ويحملون أسلحة تلمع لمعانا. ثم يليهم عبد القادر متقدِّما، مرتديًا برنسا أحمر، بسيطًا، دونما أية زخرفة، مُلقًى على كتفيه، وهو يمتطي حصان القتال المفضَّل لديه، ذا الكسوة السوداء سوادَ الليل. وكان في آخر هذا الموكب الرائع شيوخ بني هاشم، قبيلته الأصلية [...].

وصل عبد القادر إلى الخيمة، و وطأ بقدميه الأرض. وتوارى عن الأنظار لبضع دقائق. وفي الأخير، تقدَّم محي الدين، مُمسكا عبد القادر بيده، ليُقدّمه للشعب، ثم تكلّم بصوت مرتفع قائلا: 'ها هو ذا السلطان الذي تحدَّثت عنه النبوءة!'[6] 'ها هو ذا ولد الزهرة! أطيعوه كما تطيعوني. وليحفظ الله السلطان!' وهتف الناس قائلين: 'فِدَاه حياتنا، وأموالنا، وكل ما نملك! و لا نتّبع شريعة غير شريعة سلطاننا عبد القادر.'

(6) ارجع إلى الفصلين 09 و 10 من هذا الكتاب.

وأجابهم عبد القادر قائلا: 'أمّا أنا، فلا أعرف شريعة غير القرآن. ولن أهتدي إلا بتعاليم القرآن، بالقرآن، و بالقرآن فقط. ولو أن أخي، أنا، أخلّ بالقرآن إنقاذًا لحياته، فإنه سيموت (7)'

ووسط الهتافات المُحيِّية لكلام مُوجَز، ثقيل المعنى، امتطى عبد القادر حصانه متبوعًا بكل الشيوخ الذين تحت إمرته. وانطلقوا بعجلة لاستعراض الوحدات العربية. وكان، على فترات منتظمة، يجمع الأعنّة، ويتوقف ليُلقي نداءات مقتضَبـــة قائلا: 'الجهاد! الجهاد! لا حريّة ولا استقلال إلا بالحرب المقدَّسة. الجنة تحت ظلال السيوف. التفّوا حول لواء الحرب المقدّسة!'

وكانت الأعلام ترفرف، والطبول والأبواق تُصدر إيقاعاتها العسكرية، أما الحشود الهائلة المفروقة الصفوف، والمحيطة بسلطانها في كوكبات متتالية، فقد رافقته هكذا حتى معسكر. تناول عبد القادر وجبة

---

(7) ذكر ج. بيشون، في الكتاب السالف الذكر، في الصفحات 18 و 19، ما يلي: "[فبعد أن طلبت القبائل بأن يكون عبد القادر سلطانا عليها، فإن الحاج محي الدين،] هذا العجوز، شعر بالأسى، حتى البكاء، ورفض من جديد، رغم الشعور بالزهو الذي تملّكه بسبب هذا التمييز الذي حظي به ولده. ولكنه في الغد من ذلك، يوم 22 نوفمبر 1832، وبعد أن ترجّاه القوم، والحّوا عليه كثيرا في الأمر، تقدّم من ولده، وقال:

– لو كان لك أمرُ قيادة العرب، كيف تراك تحكم؟

– سأحكم و كتاب الشريعة في يدي. وإذا ما أمرتني الشريعة أن أتلّ أخي للجبين وأن أذبحه لفعلت ذلك بنفسي."

[وعندئذ، قدّم الحاج محي الدين ولده عبد القادر لجمعية القبائل، قائلا: 'ها هو ذا السلطان الذي تحدّثت عنه النبوءة: إنه ولد الزهرة! أطيعوه كما تطيعونني. وليكن الله في عون السلطان! [...] وتلقّب بـــ'أمير' بدلا من 'سلطان'، اللقب الذي نودي به عليه، وهذا احتراما منه لإمبراطور المغرب."

سريعة، وبعدها انزوى في غرفة صغيرة، واستدعى كاتبيه، ثمّ أملى عليهم البيان التالي:

"... أسأل الله أن ينير درب جمعيّاتكم، ويهديها، ويسدّد خطاها، وأن ييسّر مشاريعكم و أعمالكم. إن مواطني مقاطعات كل من معسكر، وغريس الشرق، وغريس الغرب، وجيرانهم، وأحلافهم، وبني شقران، وبُرجيّه، وبني عباس، وأولاد يعقوبية، وبني عامر، وبني مجاهر، وآخرين لم نسمِّهم، قد أجمعوا على مبايعتي، وبايعوني على أن أكون أميرا عليهم. وعاهدوني على السمع والطاعة، في اليسر والعسر، وعلى بذل أنفسهم و أولادهم و أموالهم في إعلاء كلمة الله.

وقد قبلت بيعتهم و طاعتهم. كما أنني قبلت هذا المنصب، مع عدم ميلي إليه، مأمِّلا أن يكون واسطة لجمع كلمة المسلمين، ورفع النزاع والخصام بينهم، وتأمين السبل، ومنع الأعمال المنافية للشريعة المطهَّرة، تلك التي يقترفها مثيرو البلبلة في حق الناس الشرفاء، وأن ندحر العدوّ ونغلبه - هذا العدوّ الذي يغزو وطننا بُغية جعلنا تحت نيره.

وقد فرضنا، كشرط على قبولنا الأمر، على أولئك الذين فوَّضونا السلطان المطلق وجوب الامتثال، دائما، وفي كل أعمالهم، إلى التعاليم المقدَّسة، وإلى إرشاد كتاب الله، وإقامة العدل، كلٌّ في دائرة اختصاصه، وفقا لشريعة الرسول، بصدق وبنزاهة، مع القوي والضعيف، مع النبيل والفاضل. وقد قبلوا بهذا الشرط.

وندعوكم إذًا إلى إقرار هذا الوعد والعقد الذي أبرمناه معهم. وعليه، احضروا لدينا لتُظهروا خضوعكم وتؤدّوا بيعتكم. وأسأل الله أن

يُمنّ عليكم في الدنيا وفي الآخرة. إن هدفي الأسمى هو الإصلاح [إصلاح البلد]، وفعل الخير ما استطعت [من أجل العباد]. وبالله ثقتي. وما توفيقي إلا بالله، وما جزائي إلا منه [...] حُرِّر في معسكر يوم 22 نوفمبر 1832."(8)

وفي تساؤله عن الفُرص التي كان بإمكان الميدان والرجال توفيرها لتلك المبادرة التاريخية في تنظيم المقاومة، اهتدى المؤرخ بيير مونتانيون إلى هذه الفكرة غير المنتظَرة، والمثيرة للشفقة، حيث قال: "لقد انتفض الغرب [الجزائري] ضد الفرنسيين لأن زعيما دفعه إلى ذلك. أما في القطاع القسنطيني، فلم ينتفض هنالك قائد من العيار الثقيل، ولم تتحرك الجماهير مطلقا. وبذا، يشهد غزو الجزائر مرّة أخرى، لو كانت الحاجة تدعو إلى ذلك، على أهميّة رجل واحد في سير الأحداث. وهذا الرجل، في الحالة الراهنة، هو الأمير عبد القادر، المُؤالف دائما وأبدا بين العزائم، والمثير لها."(9)

---

(8) Charles Henry CHURCHILL, op. cit., pp. 64-69.

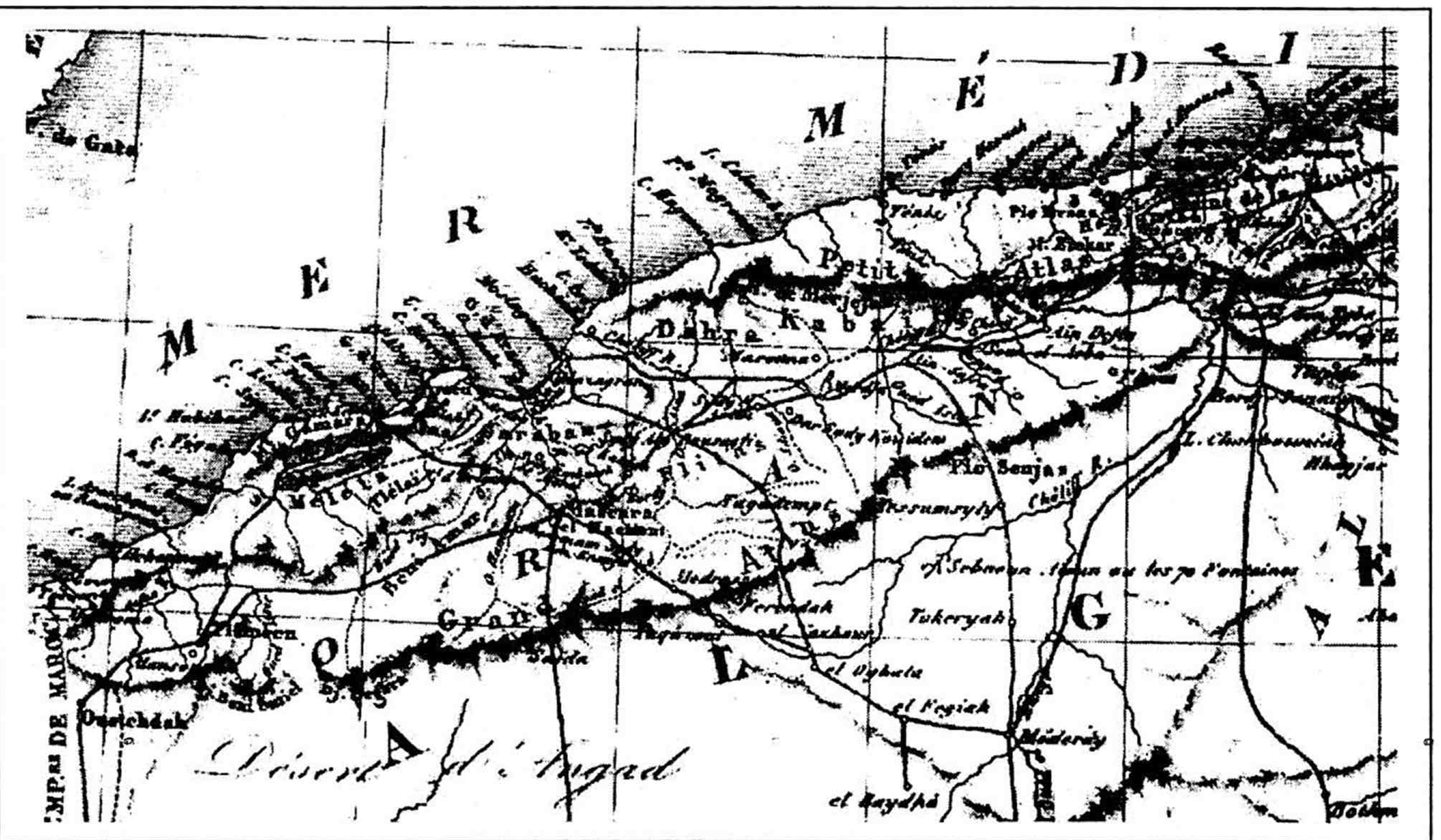
طالع، فيما يخص كتاب شرشل، الملاحظات الحصيفة التي وضعها شيخ بوعمران عن هذه السيرة و ترجمتها و طباعتها:

Cheikh BOUAMRANE in L'Émir Abd-el-kader, résistant et humaniste, op. cit., pp. 22-23.

(9) Pierre MONTAGNON, op. cit., p. 142.

إذا ما اعتبرنا هذا الحكم مدحا في حق عبد القادر، فإن هذا المؤرخ يبدو جاهلا لأعمال المقاومة الشعبية التي نظّمها قادة من العيار الثقيل في القطاع القسنطيني، من أمثال أحمد باي، وخليفته بن عيسى، والحدّاد، والشيخ المقراني، ثم شقيقه بومزراق. 'فالمقاومة العظمى،' يقول شارل أندري جوليان، م ن، ص 201، 'لم تفتأ تزداد ضراوة."

ها هو ذا درس تاريخي قويّ جدا، واقعي جدا، ملموس جدا، يُعاد دائما، ولكن يُنسى دائما، من قِبَل الغزاة المسلّحين، الممتلئين طمعا، والمستعدّين لممارسة الطغيان...



مقاطعة وهران 1843

(خريطة من إعداد أمبرواز تارديو Ambroise Tardieu عضو اللجنة المركزية للمؤسسة الملكية للجغرافيا في باريس 1834

20

عبد القادر، أمير الشباب

هناك روايتان مختلفتان في الزمان وفي المكان تخص البيان الشهير الذي وضعه عبد القادر في كيفية إدارة الحكم.

إحداهما لمحفوظ قدّاش، وهي مستوحاة من جوزيف بيشون[1]. وهو يتحدث عن الحاج محي الدين، الذي لم يقبل السلطة التي وهبته القبائل إياها، كتب قائلا: "ولكن في يوم 22 نوفمبر، ألحّ عليه القوم إلحاحا في الأمر. وبعد أن سبر أغوار ولده [عبد القادر] في كيفية إدارة الحكم لو أنه طُلب للقيادة، و الذي أجابه بقوله: 'سأحكم وكتاب الشريعة في يدي. وإذا ما أمرتني الشريعة أن أتلّ أخي للجبين وأن أذبحه لفعلت ذلك بنفسي'، عندئذٍ خضع سي محي الدين للأمر، وقدّم للشعب قائده الجديد، وقال: 'ها هو ذا السلطان الذي تحدَّثت عنه النبوءة: إنه ولد الزهرة! أطيعوه كما تطيعوني. وليكن الله في عون السلطان!"[2]

(1) عُد إلى الفصل السابق من هذا الكتاب.

(2) Mahfoud KADDACHE, op. cit., pp. 15-16.

والرواية الثانية هي لشيخ بوعمران، الذي وضع هذا البيان في نهاية الخطاب الذي ألقاه الأمير في معسكر يوم 27 نوفمبر 1832، أمام جمعية من العلماء و النبلاء، حيث كتب يقول: "وأعلن الأمير في الجمعية: [...] 'إن هدفي الأسمى هو الإصلاح [إصلاح البلد]، وفعل الخير ما استطعت [من أجل العباد]. وبالله ثقتي... وسأحكم والشريعة بيدي، وإذا ما الشريعة أمرت وأخي خالفها، فإنني سأضحي به."[3]

صحيح أن هذا ليس إلا تفصيلا للواقعة، ولكن الشيء الأكثر أهمية هو مضمون هذا البيان، وأكثر منه أهمّيّة هو تلك العزيمة التي كان عبد القادر، بعدما أصبح أميرا، ينوي أن يقود بها البلد في سبيل العدل والقانون والسيادة. ويعلّق شيخ بوعمران قائلا: "وهكذا، يريد أن يبيّن بأن حكمه سيكون عادلا، وحازما، مع الجميع، حيث إن هذا الحزم كان ضروريا في بلد كانت تسوده الفوضى في كل مكان، بعد احتلال مدينة الجزائر ورحيل الداي. وكانت كل منطقة تريد أن تقاوم على طريقتها، في الغرب، وفي الوسط، وفي الشـــرق [...] وقد ذُكِر في هذا العلماءُ الذين كانوا يشرفون على جلسات يمين الولاء وهم: سي لعرج[4]، سي محمد بن حوَّى، سي محمد بن الثعالبي، سي عبد الرحمان الدحّاوي،

(3) Cheikh BOUAMRANE, op. cit., pp. 30-31.

(4) يتعلّق الأمر بالمرابط سي لعرج، هذا الذي يُقال عنه إنه عمّر مئة سنة، ورأى في المنام عبد القادر الجيلاني الذي عيّن له الشخص الذي ستنتخبه القبائل، ألا وهو عبد القادر بن محي الدين. ارجع إلى الفصلين 10 و 11 من هذا الكتاب.

سي محمد المشرافي... وقد كتب نصَّ اليمين سي محمد بن عبد القادر. وذُكِر التاريخ، وهو: معسكـــر، في رجب 1248 هـــ/27 نوفمبر 1832."[5]

ويمين الولاء هذه التي أُدليَ بها إلى عبد القادر هي، في حقيقتها، المبايعة. والتي هي واجب الإخلاص والطاعة للملك. ويشرح شيخ بوعمران بإيجاز معنى هذا التنصيب، وأهميته، ثمّ يضعه في حيّزه الزماني الذي يهمّنا هنا. وإليكم بعض المقتطفات: "إن مصطلح المبايعة يعني يمين الولاء التي تنطق بها جمعية العلماء والنبلاء أمام القائد أو الملك الذي اختير لقيادة البلد. وهو بدوره يؤدي اليمين أمام الجمعية التي تأخذ على نفسها بطاعته وبالإخلاص له. وبعد التشاور، يعلن القائد المختار بأنه سيحكم بالقانون، ليقيم العدل بين الناس جميعا، ويضمن لهم الأمن. وهناك عموما نوعان من مراسم المبايعة: مبايعة خاصة، ومبايعة عامة. والهدف منها هو أن يُقرّ السكان كلهم، و أمام الملأ، بسلطة القائد.

أما فيما يخص حالة الأمير، فإن المراسم الأولى وقعت يوم 22 نوفمبر 1832 في سهل غريس، غير بعيد عن معسكر. إذ اجتمعت جمعية العلماء والنبلاء في فروحة[6] تحت شجرة الدردارة، حيث كان الناس يجتمعون بانتظام للتشاور، ولاتخاذ القرارات التي كانوا يَرَوْنها ضرورية. وكانت المراسم الثانية، وهي الأوسع، في معسكر، يوم 27 نوفمبر 1832 داخل

(5) ID. ibid.

(6) هي قرية صغيرة، في سهل غريس. تقع على بُعد 8 كلم من غريس الحالية، وعلى بُعد 12 كلم من معسكر.

الجامع الكبير. وقَبِل الأمير رسميا التكليف الذي عهدت به الجمعية إليه. وفي هذه المرّة، احتفل بالحدث وفودُ كل قبائل المنطقة ونبلاءُ معسكر.

وألقى علماء مشهورون كلمات، وأوصوا الأمير عبد القادر بأن يتحمّل مسؤولية مصير البلاد [...] ففي معسكر، تحتفل مؤسسة الأمير عبد القادر وفروعها بالمبايعة، عبر كل البلاد، يوم 27 نوفمبر من كل عام. فهي تنظّم يوما دراسيا في عاصمة الأمير القديمة [...] ثمّ يجتمع الكلّ في سهل غريس حول الشجرة، أو ما بقي منها."(7)

وهكذا، وبفضل الاقتراع الحرّ والإرادي لجمعية ممثّلي القبائل الثلاث الأساسيـــة، ثم بعده، وبطريقة أوسع، بفضل انخراط سكان الغرب الجزائري، فإن القَدَر قضـــى، دونما لبس، لصالح عبد القادر ولد الحاج محي الدين.

وأمام أعضاء الجمعية، يعلّق جوزيف بيشون قائلا: "كان خطابه في منتهى البراعة. فقد ركّز على عجز الغزاة (هذا العجز الذي يقرّونه هم أنفسهم، و ذلك بحصر أنفسهم بخوف بين أسوار مدينة وهران)، وهذا إلى جانب ذكره العار الذي يمثّله، بالنسبة إلى المؤمنين، وجودُ الفرنسيين على أرضهم. ولكن، للتوصل إلى هذه النتيجة، يجب طرح الفتن والشقاق الداخلي. إذ على القضية المقدّسة أن تتغلّب على كل الأحقاد، وعلى كل المصالح الخاصة. 'زد على ذلك،' أضاف قائلا: 'إذا كنتُ رضيت بالإمارة، فإنما ليكون لي حق السير في الطليعة، والسير بكم إلى

---

(7) ID. ibid., pp. 28-31, passim.

المعارك في سبيل الله. وأنا مستعدّ لها، ولكنني مستعدّ أيضا لأن أنضوي تحت قانون أي قائد آخر تَرَوْنَه أكثر مني أهلية وقدرة لأن يقودكم. المهمّ أن يأخذ على نفسه بتحمّل مسؤولية قضية عقيدتنا.' [...] وبجعله نفسه بطل الجهاد، فإن عبد القادر سبق كل منافسيه، ووضع في صفّه كل رجال الدين، وكل المرابطين، وكل الجمعيات الأخوية التي تُسمَّى الإخوان، والتي تغطي فروعُها الجزائر والمغرب."[8]

وبعدئذٍ، غدا سهل غريس، الذي تملأ أرجاءَه صيحاتُ ولاءٍ لصالح الأمير عبد القادر، مكانًا تُستَحضر فيه لحظة مشهودة في تاريخ المقاومة الجزائرية للغازي الأجنبي، وفي الاختيارات الحرّة للأمة...

وها هو ذا عبد القادر إذًا "يُنادى به"، أو "يُنتخَب"، "سلطانا"[9]، أو "أميرا"، أو "أميرا للمؤمنين"، أو حتى "خليفة" - وهذا أمر لا يهم في هذه الظروف التاريخية، حيث كان من اللازم ظهور عمل مشترك بين القبائل الثلاث الكبرى الممثّلة للغرب الجزائري (وهي بنو هاشم، وغرّابه، وبنو عامر)، من شأنه إنقاذ البلاد من الفوضى، ومواجهة الغزو! وسيعرف عبد القادر كيف يحسن استعمال لقبه، وكيف يجعله أهلا للاحترام، مع كل رأي آخر يقف قبالته، في تسيير المجتمع الجزائري، وفي السياسة الداخلية، وفي السياسة الخارجية، وفي الحرب وفي السلم. ومع مرور الزمن، سينال لقب 'الأمير'، من بين كل تلك الألقاب الرائعة التي كان

---

(8) J. PICHON, op. cit., p. 21.

(9) لم يرغب عبد القادر في حمل لقب 'سلطان'، رافضا بذلك أن يُسبِّب صدمة لجاره سلطان المغرب، ومُبديا الاحترام له.

يحملها، حُظوة لدى الشعب، وسيُلائم تماما شهرة شخصيته وإنجازه الجليل والمتعدّد.

وإن هذا الاختيار الذيْ وقع على عبد القادر بطريقة ديمقراطية، ما كان إلا مراعاةً لجدارته ولخصاله (تربيته، تكوينه، حجّه لمرتين، النبوءات المتعددة المشيرة إلى أنه سيكون سلطانا، وأخيرا، وعلى وجه الخصوص، سلوكه خلال الهجمات على وهران). ويبدو الأمر، مع ذلك، بديهيا كوننا أبرزنا قيمة نسبه الذي يعود إلى الرسول، وانتسابه إلى الطريقة القادرية التي كان والده مقدَّما لها، وانتسابه إلى قبيلة بني هاشم، القوية والنبيلة، التي كان والده شيخا لها.

ويمكننا الاعتقاد، مع هذا، بأن الليلة الأخيرة قد جلبت النصيحة إلى كل أولئك "المنتخِبين العظام"، حيث إنهم شرّفوا، باختيارهم الإجماعي، الشباب والذكاء والعلم والإيمان، لرجل نزيه ونشط، يَغمره التواضع. وكان عبد القادر، أمام الجمعية العظيمة، يمثّل كل هذا، مرّةً واحدة، عندما تكلّم بلسان مأمول، رضيت به القبائل ذات القرابة جميعها، وكذا فروعها من الأحلاف المجتمعين. كان كلامه كـــلام رئيس حكومة، عاقد العزم على إقامة مشـــروع شامل لتأسيس دولة حقيقية، قوية وعادلة، وذلك بحشد ثقافة شعبه الإسلامية، ووضعها في خدمة تحرير الأرض والوحدة الوطنية.

وكان الأمير، في واقع الأمر، يرغب عاجلا في أن يرفع لُبسا، وأن يحطّم الآمال المشوبة بالغموض، لأولئك الذين راهنوا على شبابه ليكونوا هم أنفسهـــم، بالفعل، منافسيه الأسياد في السلطة. وكان مِن بين هؤلاء

من كانوا يتلبّد في الظلام لحظة اعتلائه سُدّة الإمارة. وكان منهم أيضا مَن كان يترصّد أخطاءه، وهو القائد السياسي والعسكري الشاب. وسيكون منهم الكثير، بعد ذلك، مَن يحاول أن يُلحِق به ضربات خيانة، سواء ليفيد العدوّ، وبهذا يأمل في أن يفوز بتقدير مشكوك فيه، وقليلٍ من المجد، أو أن يتولّى الحكم الذي أضاعه. وهؤلاء طبعا كانوا هم الأشد قوّة، والأكثر خطورة من بين كلّ منافسيه. وهذا ما لاحظه آزان لدى قسم من الأرستقراطية الدينية التي، عندما تذكر الأمير الشاب، "لا تُقيم وزنا للقبه المُرابطي، ولا تنوي الانصياع لحديثِ نعمة."(10)

وسنرى، فيما بعد، النزعة نفسها لدى بعض القبائل المتمرِّدة مثل بُرجية، القبيلة التي تقع في سهل الهبرة، في الجهة الجنوبية - الغربية الشاسعة لمستغانم، والتي كانت تُشيع احتقارها في كل الآفاق صائحةً تقول: "أرأيتم من قبلُ سلطانـــا أنجبته زاوية؟ أرأيتم من قبلُ سفيها أصبح قائدا للعرب؟"(11)

وكان بعضهم، و هم أقلّ إلهاما، ولكنهم لا يقلّون عن الآخرين لذعا، يشتم بنغمةٍ محتقِرة بَداوتَه التي كان يعتزّ بها. وفي هذا يجيب عبد القادر، بطريقة ذكية، وبأبيات تلميحية إلى تهكماتهم، حيث يقول:

لو كنت تعلم ما في البـــدو تعـــذرني ::

:: لكن جهلت. وكم في الجهل من ضرر!

---

(10) Paul AZAN, L'Émir Abdelkader (1808-1883), op. cit., p. 129.
(11) ID. ibid., p. 130.

وتميّز آخرون، مرّة أخرى، من الأرستقراطيين مُلاّك الأراضي، والأرستقراطيين الإداريين، والعسكريين التابعين للمخزن، والذين أضحوا قلقين على مستقبلهم ومزاياهم، تميّزوا بعصيانهم وتكبّرهم ونذالتهم أمثال مصطفى بن إسماعيل، والمازاري، والغُماري، وقدّور بن المُخفي، وسيد العريبي،...

ولكن الأمر كان، ساعتئذٍ، يخصّ حالة بن نونه (الذي كان حاكما على تلمسان، ولا يعترف إلا بسلطان المغرب)، وحالة شيوخ قبائل المخزن (دُوَّاير وزمالات الشمال) و هم المازاري، وبخاصة، الشيخ الهرم والفظّ، مصطفى بن إسماعيل، الذي رفض الخدمة تحت سلطة الأمير "قائلا بأنه لن يذهب أبدا، وهو ذو اللحية البيضاء، ليقبّل يد صبي."[12]

كتب بول آزان، بشأن زعيم الدواير والزمالات هذا، قائلا: "كان مصطفى بن إسماعيل يَعْتبر الشاب عبد القادر مُنحدرا من عائلة أقلّ شأنا من عائلته هو. وكان يذكر ذاك الزمان الذي كان يأتي فيه هذا الصبي إلى وهران، ويتناول الطعام مع خدّامه، وتلك الظروف التي أنقذه فيها، هو وأبوه، من انتقام الباي حسن. ورغم أن الأمر صَعُب عليه كثيرا، إلا أنه أذعن، وذهب لرؤيته في مُخيّمه حيث وجده مُنشغلا بالاستماع إلى شكاوى بعض الناس من عامة الشعب. ولكن عبد القادر، الذي كان يعامل هؤلاء الناس بطيبة، لم يقاطعهم في الكلام لكي يستقبل زعيم الدُواير.

(12) Eugène DAUMAS, Les Chevaux du Sahara, op. cit., p. 127.

وشعر مصطفى بالإهانـــة، إهانة كرامته، وقال مخاطبا إيّاه: 'بما أن هؤلاء الذين كانوا بالأمس خُدَّامي، أصبح لهم الحق اليوم في أن يتكلّموا في حضرتي، ويَعلو صوتهم على صوتي، فإني أُقسم بأنّ وجهي لن يقابل وجهك أبدا.'"(13)

ولكن لم يكن هناك شيء ليوقف عبد القادر من أن يضع في الحين اللبنات الأولى لبناء الدولة، ولاختيار ممثليه. وكون الأمير شابا، فإنه من الطبيعي جدا أن ينادي على الشباب ليلتحقوا به في بناء الدولة. ويُمكن القول بأن الأمير كان، على أساس الاختيار الحصيف الذي قام به، أميرًا للشباب.

وإن ملاحظة مصطفى لشرف الدقيقة لَتجد محلّها هاهنا، حيث يقول: "و عندما نودي بعبد القادر أميرا في نوفمبر 1832، وهو ابن الأربع والعشرين سنة، وبدأ هو بتنظيم البلد، انظمّ إليه من كل أرجاء الجزائر رجالٌ من سنّه، لهم في الغالب ثقافته، وهذا الحس السياسي الذي جعل منه عدوّا لكلٍّ مِن الإمبرياليين الفرنسيين، و أذنابهم الأتراك، والإقطاعيين الجزائريين. وقد وضع أنصارُه الأكثر جسارة أنفسَهم في خدمته، من أمثال أهل حجّوط الذين كانوا يقومون بعمليات على بعد أكثر من 400 كلم من عاصمة الأمير الجديدة. واعترف بن زعموم، هذا الذي كان نفوذُه يغطّي قسمـــا كبيرا من جرجرة، بالأمير، ولكـــن دون أن يقبل بأن يكون خليفته، تواضعًا منه. وإنه بفضل نصائحه، اختار عبد القادر أحد

(13) Paul AZAN, L'Émir Abdelkader (1808-1883), op. cit., p. 33.

أفضل مُعاونيه، وهو بن سالم. وكان لهذا القائد، الشاب والذكي، خليفته في سيباو، في بلاد القبائل، 'تأثير كبير على الدوام في كل سكان شرق مقاطعة الجزائر.'[14]"[15]

ويعود بنا، مؤرِّخُنا هذا، في موضع آخر من الكتاب نفسه، عند تحليله لفكرة "معنى الثورة: المقاومة في الحَضَر والكفاح الوطني منذ 1830"، يعود بنا إلى الحقيقة التاريخية القاطعة، و هي أن الشعب الجزائري برُمّته كان يقف إلى جانب الأمير الشاب، حيث كتب يقول: "فمِن بعد مجيء الأمير عبد القادر في نوفمبر 1832، تحوّل سكان المدن والأرياف إليه، وعانوا، أكثر من مرة، من تدمير مدنهم، ومن النفي، ومن البؤس، كي يبقوا أوفياء له."[16]

وكانت شخصية الأمير عبد القادر في تطوّر وفي اتضاح. وكانت عبقرية الرجل، بأسمى ما تحمله من معان، تتشكّل في المظهر الذي سيكون عليه عبد القادر، الأمير، خلال خمسة عشر عاما من المقاومة المستمرة للغزو الاستعماري الفرنسي وللأعمال الدنيئة التي كانت تقوم بها الطبقة الإقطاعية الجزائرية ذات الأشكال المتعدّدة. وسيكون محاربًا مقدامًا، وقائدَ جيوش مكافحا لا يمكن ملاقاته، وذا الفضل، بلا منازع، في التحالفات القبلية، ورئيسَ دولة ذا روح عالية و عادلة، ودبلوماسيًا ذا ذكاء خارق بعلمه وبسخـــائه، ورَجُلاً ذا مروءة ودائم الاستماع إلى

(14) DUCROT, La Vie militaire du général Ducrot, d'après sa correspondance (1839-1871), publiée par ses enfants, t. I, pp. 170-171. (cité par Mostefa LACHRAF, op.cit.).
(15) Mostefa LACHRAF, op. cit., pp. 80-81.
(16) ID. ibid., p. 176.

نداءات الاستغاثة، والذي يمثّل إيمانُه الديني الصوفي التسامحَ كلّه، والبدويَ المتصلّب، والعاشق للأماكن الرحبة ليمتطي "شارب الهواء" وليتمتّع بالحرية والاستقلال، والمثقّفَ المحبَّ للعلم وللبحث، وأخيرا شاعرَ الحب والخير الذي لا يصرفه شيء عن احترام الإنسان، والذي كان الإحساس العظيم بالواجب لديه، نحو وطنه، يمثّل سبب وجوده.

وعن زوجته خيرة التي كان شغوفا بحبها، والتي "كانت، بعد يمين الولاء التي أصبح بعدها أميرا، ترفع عينيها نحوه بحنان متسائلةً، أجابها قائلا: 'إن أردت أن تبقي معي، من غير التفات إلى طلب حق، فلك ذلك. و إن أبيت إلا أن تطلّبي حقّك، فأمرك بيدك لأني تحمّلت ما يشغلني عنك.'"(17)

فعبد القادر الآن في مواجهة مع مصيره المكتنَف بالغموض. وسيحفظ عنه عالَم السلم والأخوّة رسائلَ عديدة رائعة أرسلها، في أوقات مختلفة، إلى كل الرجال، عظيمهم وصغيرهم، من ذوي النوايا الطيبة. و إن هذه الرسائل اليوم لتُدوِّي في الوجود مثل مبادئ حياة. وإليكم بعضا منها، اقتطفتها هكذا، دونما اختيار، من قراءاتي للعديد من المؤلفات التي تسرد سيرة الأمير عبد القادر، و من كتابات الأمير عبد القادر نفسه:

"أنا لم أُحدث الوقائع قطّ، بل هي التي أحدثتني... فالإنسان كالمرآة، لأن المرآة لا تنكشف فيها صورة الواقع إلا إذا كانت جليَّة."

(17) Boualem BESSAÏH, Au Bout de l'authenticité…la résistance, op. cit., pp. 109-110.

"فضَّل الله الإنسان بالقدرة على تحصيل الكمال بالعلم."

فإن شئت علما، تلقَني خير عالم :::

::: وفي الروع، أخباري غدت توهن القوى

"على العقل أن يحظى بتتويج رباني لأن التحالف بين الإيمان والعقل هو أمر ضروري."

"أشعر شعورا قويّا بأهمية العلم لدرجة أنني عفوت مرات عديدة عن بعض الطلبة الذين استحقوا الموت. فلا بد من وقت طويل لإعداد عالِم حقيقي، الأمر الذي لم أجرؤ معه على القضاء على ثمرة زمن طويل وشاق."

" الطعام يُشبَع منه فيُملّ، والعلم والحكمة لا يُتصوّر قط أن تُملّ وتُستثقَل."

"إذا ما الناس ترغب في كنوز ::: فبنت العمّ مكتبتي وزادي"

"لقد وَضَعْتُ قلادة الفراق حول رقبة تلك التي ودّعتها، ولكن دموعي كانت بمثابة الدرر التي تنسّق تلك القلادة." (قال مُخاطِبا سيدة فرنسية).

"إن الأُسُود تهاجم الحيوانات التي تعرف كيف تدافع عن نفسها، أما أبناء آوى، فيرتدّون إلى الآخرين..."

"فلم أكن أصرّ على المطالبة بشيء [...] دونما أن أطبِّقه أنا بنفسي."

"أنا ذاك الذي سيهابه الناس، ولو كنت تحت الثرى تنهشني الديدان."

"فمعظمهم لا يفهمون وضعيتي، ويدَّعون أنني أتيت إلى الفرنسيين بالقوّة والجبر. ويُضيفون قائلين بأنّك أنت الذي أوقعتني في ضيق شديد بعدما تتبّعت خطاي. فيجدر بك أن تعرِّفهم بالحقيقة، وأنك لو لم تأت بوعودك ما كنت لآتي إليك، وأنك تخلّيت عني عندما جرت المحادثات بيني وبينك، وأن المسافة التي كانت تفصل بيننا كانت تساوي على الأقل عشر ساعات سيرا على الأقدام، وأن المحادثات دامت أربعين ساعة، وأن طريق الجنوب كان مفتوحا لي، وكذا الطريق الذي قادني إلى البربر... فإن لم تفعل هذا، فعليك خِزيه." (مقتطف من رسالة بعثها يوم 09 جويلية 1848 إلى الجنرال دو لامورسيير ، الذي عُيّن وزيرا للحرب.)

"لن أتخلى عن وعد أعطيتمونيه. سأحمله في نفسي إلى أن أُقبر."

"فأنا أسعى لإقناعكم بالعقل وليس بالقوة."

"اسمحوا لي أن أُلفت انتباهكم إلى أنه كان عليكم، وأنتم المتمتعون بخصلتين: رجل الدين التقي، والمحب للإنسان، أن

تطلبوا مني إطلاق سراح كل المسيحيين و ليس واحدا فقط من أولئك الذين وقعوا في الأسر منذ استئناف القتال. بل أولى أن أقول: ألا تكونون أهلا لهذه المهمة التي نذرتم لها نفسكم، وأنتم تحملون اللقبين، إذا لم ترضوا بأن تكونوا الوسيلة في هذا العمل الخيري في صالح مائتين أو ثلاثمائة مسيحي فقط، بل وبأن تسعوا إلى أن يشمل هذه عددا مساويا من المسلمين الذين ذَوَوا في سجونكم؟"

(رسالة الأمير إلى أسقف مدينة الجزائر ديبيش، المعروف كثيرا بشغفه الإنجيلي الشديد، والذي كتب، متوسِّطا لصالح جندي فرنسي واحد، قائلا: "أعيدوا إليّ هذا الأخ التعيس الذي سقط بين أيدي الشجعان.")

"ما أكثر المرات التي هزمتكم فيها! لماذا إذاً لم ترسموا أبدا إلاّ هذا؟"

(قال الأمير مُخاطِبا مرشده في زيارة له لإحدى قاعات عرض اللوحات في باريس، بعد أن وجد نفسه قبالة اللوحة الهائلة التي رسمها الفنان أوراس فارني Horace Vernet، والتي تمثّل "احتلال الزمالة".)

"عندما نفكّر إلى أية درجة هم نادرون رجال الدّين الأقحاح، وإلى أية درجة هم نادرون أبطال الحقيقة والذائدون عنها، وعندما نرى الجُهّال الذين يتصوّرون أن مبدأ الإسلام هو

القسوة والعنف والغلوّ والوحشية، فإنه آن الأوان لتدبُّر هذه الكلمات: ﴿فصبر جميل والله المستعان﴾"

(مقتطف من رسالة مؤرخة في 15 نوفمبر 1860، أرسلها الأمير إلى شاميل Chamyl، بطل القوقاز، فيما يخص أحداث دمشق سنة 1860. [الاستشهاد الوارد بين ﴿...﴾ هو من القرآن: سورة يوسف/الآية 18])

"ولو أصغى إليّ المسلمون والنصارى لرفعت الخلاف بينهم، ولصاروا إخوانا ظاهرا وباطنا." (مقتطف من كتاب عبد القادر 'ذكرى العاقل وتنبيه الغافل' الذي ترجمه غوستاف ديقا Gustave Dugat، قنصل فرنسا في دمشق، تحت عنوان:

"Rappel à L'intelligent, avis à L'indifférent"

وقد كتب الأمير هذه الرسالة في بروسّا، في تركيا، خلال شهر رمضان من عام 1271 الموافق شهر ماي من سنة 1855، وأرسلها إلى الجمعية الآسيوية بباريس والتي أبدى رغبته في الانضمام إليها. وكتب رينو Reinaud، رئيس الجمعية وعضو المعهد، تقريرا عن ذلك ونشره في جريدة لو مونيتور Le Moniteur يوم 09 جويلية 1855. وتُعرف هذه الرسالة

اليوم على وجه أفضل تحت عنوان: Lettre aux Français، أي: رسالة إلى الفرنسيين.[18])

"فالعمل الخيري الذي قمنا به في حق المسيحيين، كان واجبا علينا أن نفعله، وفاءً منا للمعتقَد الإسلامي، واحتراما لحقوق الإنسانية.[19] فكل المخلوقات هي عائلة الله. وأحبُّها إلى الله هي أنفعها لعائلته [...] وشريعة محمد، من بين كل المذاهب، هي التي تُظهر التعلُّق الأكثر، وتبدي الاهتمام الأكبر، بمراعاة الشفقة والرحمة، وبكل ما من شأنه أن يضمن الترابط الاجتماعي، وأن يقينا من الشقاق. ولكن الذين ينتمون إلى دين محمد أضلوها الطريق. ولهذا فإن الله أضلّهم. وكان الجزاء من جنس العمل."[20]

(18) René R. KHAWAM, Abd el Kader, Lettre aux Français, traduction intégrale sur les manuscrits originaux, éd. Phébus, Paris, 1977, chap. II, De l'authentification de la science juridique d'origine divine, p. 163.

(19) Boualem BESSAÏH, Au bout de l'authenticité..., op. cit., p. 103.
ويلاحظ بسّايح، في هذا الكتاب، قائلا: " ' واحتراما لحقوق الإنسانية'، هو ما يُعتبر، في أيّامنا هذه، أحد الانشغالات الأساسية للمجتمع الدوليّ."

20- Cheikh BOUAMRANE in L'Émir Abd-el-kader ..., op. cit., p. 107.
ويعلّق شيخ بوعمران، في هذا الكتاب، وهو مصيب جدا في تعليقه، قائلا: " فهو [الأمير] على حق في توجيه تقريع كهذا لإخوته في الدين، في المشرق. فهو يريد حثّهم على التقيّد، على وجه أفضل، بتعاليم الإسلام، هذا الذي حادوا عنه. وكان من الممكن أن يُوجَّه هذا التقريع نفسه لمسيحيّي ذلك الزمان، أولئك الذين لم يتقيّدوا بدين المسيح تقيّدا دقيقا، والذين باشروا القيام بغزو عنيف لدول أخرى."

(مقتطف من رسالة مؤرخة في 11/10 جويلية 1862، أرسلها الأمير عبد القادر إلى المونسينيور بافي Pavy، أسقف مدينة الجزائر، بشأن وساطته لصالح مسيحيي دمشق، خلال الأحداث الدامية [جويلية 1860] التي ألحقت الضرر بالإنسانية جمعاء، والتي دارت رحاها بين المارونيين (مسيحيي سوريا، في حماية فرنسا)، والدروز (وهم هنا، مسلمو دمشق).

وفي نهاية هذا السرد البسيط لحياة شاب جزائري، اختير في زمن كان فيه بلده عرضة لخطر عظيم، وهو يغرق في فوضى، و دونما سلطة مركزية وطنية، اختير بحرّيّة، وبكل وعي، من قِبل شعبه، ليعتلي سدّة الإمارة، فَلْنَدَع أمير الشباب هذا يُكمل، على كل جبهات الشرف والعزّة، كفاحه الوطني الذي لا يوصف، وهو على رأس رفاقه الشجعان، الأوفياء...

وضع الأمير عبد القادر نفسه كلّيّة في خدمة بلده، وهو ابن 24 سنة - والتاريخ اليوم بعد أن أُزيح عنه الاستعمارُ بعض الشيء بدأ يُظهر ذلك- موقِظا ضمائر سكان كل المناطق في الجزائر ومحمِّسا لها، ومثيرا لدهشة العالم الامبريالي ولسخطه أيضا.

وقد قام، خلال خمسة عشر سنة، بقيادةٍ فعلية للمقاومة الجزائرية، حيث نظّـــم الدولة، وجهَّزها بمؤسسات مهمة، قويّة ومتفتّحة على الحداثة، وقَدَّم، في الوقت ذاته، لرفقاء الكفاح من أجل التحرير الوطني،

نموذجا للوعي الوطني العظيم، والشجاعة، والتسامح، والروح الإنسانية.[21]

ويظهر الأمير عبد القادر، وهو الرجل النشيط، والمفكّر، والناسك المُشبَع بالتواضع، والمكافح، والدبلوماسي، والشاعر الحسّاس، مثل المتناوِل العظيم للمشعل الذي كان يُوقده المصارعون العظام في الزمن الغابر، في سبيل حرية الجزائر-الأم، المُلهِمَ - أو لعلّه أفضل من ذلك - المحرِّكَ لكل ثورات الشعب الجزائري. وبدراسة إنجازه العبقري عموما، نجده، دونما أدنى شك، الزعيم الرائد للثورة المسلّحة المظفّرة 1954-1962.

ويبقى، في هذا العمل الإنساني الرائع، رغم ذلك، مرور ذكرى حافلة بالحقيقة والتواضع والمروءة... وقد كتب الأمير، وهو يتملّكه يأس عظيم وقت الرحيل عن بلده، للأسقف الأول لمدينة الجزائر المونسنيور ديبيش، يقول بنبرات مثيرة للعواطف: "... ولم يكن بمقدوري العزم على النزول من على صهوة حصاني، وعلى توديع بلدي إلى الأبد... لقد كنت أقسمت أن أدافع عن بلدي، وديني، حتى لا تستطيع أية قوة إنسانية أن تكفي ذلك، ولكن يبدو لي أنني لم أعمل بما فيه الكفاية..."

وعلى باب حصن طازة، أمر أمير الشباب بأن تُنقش هذه الأبيات التي تحمل، اليوم أيضا، قيمة رسالة مثيرة للعواطف، والتي من شأنها، على الرغم من أنها موجَزة، أن تجعل شباب الجزائر يفكّرون مليّا:

---

(21) أنظر ما يلي من صفحات، فإن فيها مقطعا، أعدّه شرشل، يُلخِّص فيه 'مسار حياة' الأمير .

"الله أعــلم أن هــذا لم يكن ::: منــّي، على الأمد الطويل، دليلا

كــلا. وإن منيّـــتي لقريبـــة ::: منّـــي وأُصبح في التراب جديلا

ورضـــا الإلـــه، هـــو المـــنى ::: بعدي انتفاع الخلق، ثَمَّ طويلا"[22]

---

(22) Henri PÉRÈS, op. cit., pp. 14-15. ممدوح حقّي، م ن، ص 91.

خاتمة

هل علينا حتما أن نختم؟

إن كل خاتمة هي إغلاق، أي هي طريقة مؤدبة في الافتراق عن إنسان ما. فهل علينا إذًا حتما أن نختم؟

فبعد التوسّع في فكرة تَذْكُر المراحل المهمة في حياة عبد القادر، وأصله، وولادته، وطفولته، وتربيته، وشبابه، وتكوينه، وزواجه، ومعاركه العسكرية الأولى ضد الحملة العسكرية الفرنسية، حتى اعتلائه سدّة الإمارة، وبعد سرد كهذا، مهما كان ناقصا، فإن المنطق الكلاسيكي يقتضي منا أن نذكر دائما الأمر الذي توصّلنا إليه.

والواقع أن القيمة المنطقية لكل خاتمة، هي أمر مثير للخوف. وهي بالتأكيد مخيفة أكثر عندما تتناول أحاسيس قوية كتلك التي تطبع رجلا عبقريا مثل عبد القادر، الذي شُغِف بالعالَم و شَغف العالم به. كان هذا في عصرٍ كانت كل متعةٍ روحية فيه تُعتبر -بعيدا عن فلك الغرب- "همجيّةً" من قِبَل أوروبا الإمبريالية، المسلّحة والمسيحية مع ذلك، أي إنه لا يجب

عليها التضحية، بسبب هذا الاستخفاف الفاضح، بحرّية الروح التي هي في كل مكان، هيَ هيَ، في كل المجتمع البشري.

وهي في حالة هذيان، عُجبًا بمهمتها الأخلاقية في مواصلة الحروب الصليبية، أقسمت أوروبا أن تقوم بحملة على الهمجية في أفريقيا. أوروبا، تلك العجوز الخَرِفة المستعدّة لأن تنالها التّخمة من كل الملذّات الشيطانية، وعن طريق الأصوات المُدوِّية الصادرة من أحلافها الأوفياء - وبخاصة أحلافها في فرنسا الذين يجزمون، فيما يخص جزائر سنة 1830، بأن "فرنسا هي البنت البكر للكنيسة"- انطلقت إلى هنالك، ناسيةً كل المحبّة المسيحية للإنسان، بالمَدافع والحراب وكلّ الآلات الجهنميّة، مُلوِّحةً بتلك الذريعة المشكوك فيها، ذريعة "حادثة المروحة"، ومُعترفةً دونما أي تأنيب ضمير، بأن "الشيء المُعَرّض للخطر إنما هو القضية المقدسة للحضارة، القضية الخالدة للأفكار المسيحية التي وعدها الله بالسيادة على العالم، و التي يُعتَبر النظام الفرنسي دعما سماويا لها."(1)

فَلْنبق هنا، ولا نغوص بعيدا في الماضي لأن المؤرخين الموهوبين، هم وحدهم، لهم الحق في العودة بأنظارهم إلى الوراء...

وحتى نختم هذا الفصل، وبدلا من إعادة نقل بعض أوصاف الأمير التي أعدّها كُتّاب سيرته، والتي بالإمكان العثور عليها في كل الكتب التي تتناول "حياة عبد القادر"، فَلْندع جوزيف لوقرا يُدلي لنا بخواطره عن الشاب عبد القادر بالذات، وهو موضوع هذا الاستذكار؛ وشارل هنري

---

(1) نقلا عن: M. POUJOULAT, Voyages en Algérie, op. cit., p. 301
(M. LACHRAF, L'Algérie, nation et société, op. cit., p. 52).

شرشل يُعطينا ملخّصا عن "مسار حياة" الأمير؛ وأنطوان دو لاكروا يقترح علينا مقارنة بين الأمير عبد القادر وبونابرت. وها هي أقوالهم إذًا على التوالي:

"— ورغم سنواته العشرين، كان عبد القادر، وهو النحيف، ذو القامة المتوسطة، والوجه الذي تحيط به لحية سوداء بدأت تنبت، يُبْدي تلك الأنَفَة المكْبوتة التي تجعل المرء لا يجهل من يكون، ولا يجهل قيمته. وكان يفرض برجولته كُمالَ طبعه، كما ذلك الكمال الفكري والجسدي الذي يميّز النبلاء، والمحاربين، والزعماء. وكان جبينه العريض، الموسوم بوشم صغير بين الحاجبين، وهو ميزة بني هاشم، يُطِلّ على وجه شاحب ذي تقاسيم رقيقة، وعينين لا يُدرَك غورُهما، تخترقان أعماق السرائر في طَرفة واحدة. أما شفتاه المزمومتان عادةً، فإنهما لا تنبسان إلا في الوقت المناسب، وبما قلّ من الكلام، الكلام المُفكَّك العبارات والمُقنِع للمنطوين على ذواتهم."[2]

"— لم يحدث أبدا أن وُجد مسار حياة أشدّ تمثيلا [من مسار حياة عبد القادر] للطبيعة الغريبة للحياة الإنسانية، ولا أكمل توضيحا لحقيقة الحكمة الفلسفية التالية:

'مقادير الإنسان بيد الخالق: فكيف يدري إلى أين يسير؟'

ومن الممكن الآن تلخيص مسار الحياة هذا، في بعض الكلمات الموجزة الجامعة. نذر شاب عربي مسلم نفسه للاعتزال، للزهد الديني

(2) Joseph LE GRAS, op. cit., p. 11.

الرهباني. وإنّ أزْمة كانت تهدد بلده أخرجته، على الرغم منه، من عزلته لكي تجعله قيّما على مسائل الناس. وفجأةً، تفتّقت حِكَم عبقريته الكامنة حتى ازدهرت ازدهارا كاملا. وتألّق، بعظمة لا تُضاهى، داعيةً إلى الحرب المقدسة، وزعيمًا ضد حملات غزو تقوم بها قوة مسيحية. وسبَّبَ الفشلَ، خلال خمسة عشر سنة، لجيوش هذه القوة العظيمة، وهو على رأس قواتٍ لا يمكن قياسها بقوات العدو. قوات لم يكن بمقدوره تجنيدها، إلا بفضل تلك الحماسة الملتهبة التي زرعها فيها. وقد تمكن مرّتين من إرغام عدوه على القبول بشروط سلم ملائمة، وعلى الإقرار له بألقابِ سيادة.

وكان، في الوقت نفسه، يؤسِّس وينظِّم إدارة داخلية تغلّبت بسرعةٍ على بلبلةٍ عارمةٍ من فوضى واضطراب، وتمكّنت من بسط النظام، والشرعيةً، والعدل. وأقام أُسُس إمبراطورية مسلمة. وكان هو نفسه، بالنسبة إلى رعيته، مثالا يُقتدى به في البسالة، والحزم، والنشاط، والمثابرة، والورع، والحماسة. وانتهى به الأمر إلى الرضوخ، وهذا لغلبة أعداد العدوّ. واستسلم لخصومه المسيحيين، بشرطٍ صريح، وهو أخذه إلى أرض إسلام أخرى، يتمتع فيها بكل حريته، ودونما أية قيود.

وأخذه أعداؤه، غدرًا، إلى بلدهم هم. وفَرَضت عليه حكومة البلد أسرا كان يبدو خاليا من الأمل، ولا مخرج منه. وإذ تمكن أميرٌ [بونابرت]، ساعدته عبقريته -التي هي في مثل عبقريته [عبد القادر]- في الضراء، وبثقة لا تنفد، على القيام بانقلاب على هذه الحكومة، ووصل إلى السلطان المطلق، وتكرّم هذا الأمير عليه بأن أطلق سراحه.

وعندئذ، شُوهد بطل النزعة الإسلامية هذا، المتألّق والمتصلّب، يخلق لنفسه مكانةً في الصدارة، في العالم المسيحي، بأن أصبح عضوا في عدد كبير من جمعياته العلمية والأدبية، متبادلاً الرسائل، من باب النّد للنّد، ومن باب الصداقة، مع أعظم رؤساء الدول. وفي الأخير، وعندما أوشك على إنهاء مسار حياته العامة، ألفى صدره مغطًى بالأوسمة المدنية والعسكرية، منحته إياها الأمم التي كانت الداعمة الوفية للدين الذي شهر سيفه ضده، منذ خطواته الأولى في هذا المسار، ليسدّ الطريق أمامه ويتحداه! و إن مسار حياة كهذا، في الواقع، ليس له مثيل في التاريخ."(3)

"— من بمقدوره أن يُخبرنا عن النقطة التي سيتوقف عندها اندفاع هذا الرجل الشديد القوة، والذي لا يكل؟ وأية سلطة لم يمارسها أبدا؟ وأي محرِّض نفسي لم يعطه أبدا؟

ولنقل، مع ذلك، أمرا: لا شيء يشير إلى أن هذا الزعيم الشاب كان سيحصل على الميل الجامح للفتوحات التي تجرف عادةً القادة العظام. بل على العكس، كل شيء لديه كان يُظهر، على ما يبدو، الروح الخلاّقة والمنظِّمة. أنظروا كيف تمكن بسرعة فائقة من امتلاك فنون عدوه النافعة، وعلمه، وصناعته.

فوسط انشغالات الحرب، تمكن من تأسيس مدن، وأحدث نظاما حكوميا قائما بذاته، وشرّع القوانين، وأدّب شعبا بأكمله، ووحّد أقواما تُفرقهم المطامـــع والمصالح، وكانوا في الغالب أعداء. وأقام أُسُس

(3) Charles Henry CHURCHILL, op. cit., pp. 325-326.

إمبراطورية، في الوقت الذي كان يخوض فيه المعارك. وبَذَرَ، إذا صح التعبير، وهو في عجلة من أمره، مبادئ وطنية جديدة على أرض محروثة بِكُرات مدافع الحضارة!...

تتلخص كل عبقرية بونابرت، وكذا كل الزعماء العظام للشعوب، في هاتين الكلمتين: مُنظِّم ومُحارب. وهاتان الكلمتان تنطبقان، بحق، على اسم سلطان العرب، الشاب، المتألق. فبدِّلوا الظروف، ووسِّعوا مسرح الأحداث، وستحصلون على نتائج لا تقل روعةً.

ويبقى أن هاتين الخصلتين العظيمتين اللتين تشكلان، إذا صح القول، الطابع الخارجي الذي يميِّز مؤسِّسي الشعوب، أو أسيادها ، ليستا وحدهما وجها الشبه بين بونابرت وعبد القادر. فعبد القادر، مثل بونابرت، هو رجل متديّن، مُعتدل، بسيط في لباسه، نشط، شجاع، ودائم التحكم في نفسه... هو صريح، ووفيّ لوعوده، ولا يثير غضبَه سوى الخداع والكذب... وهو، مثل بونابرت، مخلص لعائلته، وله، على كلّ من يتردّدون عليه، تأثير كأنه السحر... وفي الأخير، نجد أن عبد القادر، في آخر شبه بينه وبين الإمبراطور العظيم، يُكنّ لوالدته حنانا ووقارا يكاد يكون عبادة..."(4)

(4) Antoine de LACROIX, op. cit., pp. 270-271.

يذكر جوزيف لوقرا أنه: "بعد عام من المجازر [ويقصد بها الأحداث الخطيرة التي دارت رحاها بين المسيحيين المارونيّين والمسلمين الدروز، في دمشق، في جويلية 1860]، تُوفيت والدته، الزهرة. وكان لهذا وقع مؤلم عليه حتّى إنه أبعده أكثر فأكثر عن ملذّات الدنيا."

Joseph LE GRAS, op. cit., p. 218.

فهرس الأعلام

فهرس الأعلام

مسرد يضم أسماء الأشخاص والقبائل والطرق الدينية المذكورة في متن الكتاب، وكذلك تلك المذكورة منها في الهوامش والتي أشرنا إليها بوضـع حرف الهاء (هـ) بجانب رقم الصفحة الواردة فيها. ولم نذكر اسـم الأمير 'عبد القادر' ولا اسم والده 'محي الدين'، فالكتاب حافل بهما.

– أ –

– ب –

– ت –

– ج –

- ح -

- خ -

- د -

– ر –

- ز -

- س -

- ش - / - ط -

- ع - / - غ -

- ل -

- م -

- ن - / - هـ -

- و - / - ي -

فهرس المواقع

- ب -

- ت -

- ج -

- ح - / - خ -

- د - / - ر -

- س - / - ش -

- ص - / - ط -

- ع - / - غ -

- ف -

- ق -

- ك -

- ل -

- م -

- ن - / - هـ - / - و - / - ي -

قـائـمـة الـمـراجـع

استعنّا بالكتب المذكورة أدناه في تفصيل الموضوع الخاص بهذا العمل الذي بين يديك. أما تلك التي استعملناها عَرَضيًا - وكانت مع ذلك مهمة للتدقيق في معلومة ما أو إتمامها- فقد ذكرنا في الهوامش. ولكل من ساعدنا في جمعها الشكر الجزيل.

ABD-AL-QÂDIR. — Dhikrâ l'akîl wa tanbîh al-ghâfil, Beyrouth, s.d. et le livre d'Abd-el-kader intitulé « Rappel à l'intelligent, avis à l'indifférent », considérations philosophiques, religieuses, etc., par l'émir ABD-EL-KADER, traduit avec l'autorisation de l'auteur sur le manuscrit original de le Bibliothèque impériale, par Gustave DUGAS, Paris, Duprat, 1858, XXV.

AIRE (née Boissonnet, Marie d'). — Abd el Kader, quelques documents nouveaux lus et approuvés par l'officier en mission auprès de l'Émir, impr. Yver & Tellier, Amiens, 1900.

AZAN (Paul). — L'Émir Abdelkader (1808-1883). Du fanatisme musulman au patriotisme français, Hachette, Paris, 1925.

AZAN (Paul). — Les débuts d'Abdelkader, B.S.G.O., t. 1921 (cité par Tayeb CHENNTOUF, in L'Algérie politique).

BEN CHENEB (Mohammed). — Lettre sur l'éducation des enfants par Abou Hamed El-R'azzaly, in Revue africaine, n° 45, Alger, 1901.

BERQUE (Jacques). — Maghreb, histoire et société, coéd. Duculot et SNED, Alger, 1974.

BESSAÏH (Boualem). — Au bout de l'authenticité… la résistance. "par l'épée ou la plume". ENAG-ADITIONS, Alger, 2002.

BESSAÏH (Boualem). — De l'Émir Abdelkader à l'Imam Chamyl, le héros des Tchétchènes et du Caucase, ENAG-ADITIONS, Alger, 2001.
BODIN (M.). — La brève chronique du bey Hassen, BSGO, 1924 (cité par Tayeb CHENNTOUF, in Le Maghreb au présent.).
BOUAMRANE (Cheikh). — L'Émir Abd-el-Kader, résistant et humaniste, éd. Hammouda, Alger, 2002
CHENNTOUF (Tayeb). — L'Algérie politique, 1830-1954, OPU, Alger, 2003.
CHENNTOUF (Tayeb). — Le Maghreb au présent, OPU, Alger, 2003.
CHURCHILL (Charles Henry). — La vie d'Abd el Kader, ex-sultan des Arabes de l'Algérie, Londres, 1867, trad., introd. et notes de Michel HABART, ENAL, 4e éd. Alger, 1991.
CLAUSOLLES (M. P.). — L'Algérie pittoresque ou Histoire de la Régence d'Alger depuis les temps les plus reculés jusqu'à nos jours, publié par P.-B. PAYA, à Toulouse, Paris, 1843.
DAUMAS (Eugène). — Correspondance du capitaine Daumas, consul à Mascara (1837-1839), éd. Par G. YVER, Soubiron, Alger, 1912.
DAUMAS (Eugène). — Les chevaux du Sahara et les mœurs du désert, Hachette, Paris, 1862.
ESQUER (Gabriel). — Les commencements d'un Empire. La prise d'aller, Paris, Champion ; Alger, L'Afrique latine, 1923.
ESTAILLEUR-CHANTERAINE (Philippe d'). — Abd el-Kader, Libr. De France, 1931.
EUDEL (P.). — Aperçu historique de l'Orfèvrerie algérienne, in Revue africaine, n° 45, Alger, 1901.
FRANCE (Napoléon-Maurice, pseud. A. de). — Les prisonniers d'Abdelkader ou cinq mois de captivités chez les Arabes, 2 t. éd. Desessart et Cie, 1837, rééd. Par Ernest Alby, Paris, 1837.
GAUTHEROT (Gustave). — La conquête d'Alger, 1830, d'après les papiers inédits du général de Bourmont. Préface de Louis BERTRAND, Payot, 1929.
HUGO (Victor). — Choses vues, Laffont, Histoire, ou Gallimard, 1972.
HUGO (Victor). — Les Châtiments, Collection Pocket, Paris, 1997.
JULIEN (Charles-André). — Histoire de l'Algérie contemporaine, t. I, La conquête et les débuts de la colonisation (1827-1871), 2e éd. PUF, Paris, 1979.

KADDACHE (Mahfoud). — L'Émir Abdelkader, Collection «Art et Culture», n° 7, éd. Ministère de l'Information et de la culture, Alger, 1974.

KHERFI (Salah). — Propos sur un poème, l'Émir a-t-il aimé une dame française? in Cah. Alg. Litt. comp., Alger, 1968.

LACHERAF (Mostefa). — Écrits didactiques sur la culture, l'histoire et la société, éd. ENAP, Alger, 1988.

LACHERAF (Mostefa). — L'Algérie, nation et société, SNED, Alger, 1978.

LACROIX (Antoine de). — Histoire privée et politique, renfermant des détails curieux sur sa famille, sa naissance, son mariage, son élévation au rang d'Émir, ses faits militaires, etc., (publié sur des notes de N. Manucci qui a vécu pendant 2 ans sus la tente d'Abdelkader et qui a contribué à l'échange de 4 prisonniers français), chez Bureau, impr., Paris, 1845.

LANSON (Gustave). — Histoire de la littérature française, Hachette, Paris, 1846.

LAURENT (Franck). — Victor Hugo face à la conquête de l'Algérie, Maisonneuve & Larose, Paris, 2001.

LE GRAS (Joseph). — Abdelkader, éd. Berger-Levrault, Paris, 1929.

M'HAMSADJI (Kaddour). — Aller à 'Arafât, notes de pèlerinage, éd. ENAL, Alger, 1986.

M'HAMSADJI (Kaddour). — La Dévoilée, drame en un prologue et trois actes, avec une préface d'Emmanuel ROBLÈs et un jugement d'Albert CAMUS, éd. Subervie, 1959.

M'HAMSADJI (Nour-Eddine). — Usages et rites alimentaires d'une contrée rurale d'Algérie (Aumale [Sour El-Ghozlane]- Sidi Aïssa), Annales de l'Institut Orientales, t. XIV, Alger, 1956.

MATIBEN (Tayeb). — De la circoncision en Algérie, thèse pour le doctorat en médecine et de pharmacie, n°52, ronéotypé, Alger, 1950.

MENYIER (Gilbert). — Histoire intérieure du FLN, 1954-1962, réé., Casbah-éditions, Alger, 2003.

MONTAGNON (Pierre). — La conquête de l'Algérie, les germes de la discorde, (1830-1871), éd. Pygmalion, Paris, 1986.

NEVEU (Capitaine de). — Les Khouans. Les ordres religieux chez les musulmans, 2e éd., 1846.

PÉRÈS (Henri). — Les poésies d'Adb-el-Kâder en Algérie et en France, R.A., hors série, 1932. (Cinquantenaire de la Faculté

des Lettres d'Alger, 1881-1931) ou tirage à part, avec 1 pl., impr. Jules Carbonel, Alger, 1932.

PICHON (capitaine 2e tirailleurs algériens, J.). — Abd El Kader, sa jeunesse, son rôle politique et religieux, son rôle militaire, sa captivité, sa mort (1807-1883), Henri Charles Lavauzelle, éd. Militaire, Paris, s.d.

POUJOULAT (M.). — Voyages en algérie. Parallèle de Jugurtha et d'Abdelkader, études africaines, t. II, chap. XIV, Paris, 1847.

ROCHES (Léon). — Trente-deux ans à travers l'Islam (1832-1864), éd. F. Didot, Paris, 1884.

SAHLI (Mohammed Chérif). — Abdelkader, chevalier de la foi, éd. En-Nahdha, Alger, 1953.

TOUALBI (Noureddine). — La circoncision, blessure narcissique ou promotion sociale, éd. ENAL, Alger, 1983.

TOUSTAIN du MANOUAR. — Au pays d'Abdelkader (journal), R.A. t. 98, n° 440-441, 3e - 4e trim. 1954.

WALSIN-ESTERHATZY (M.). — De la domination turque dans l'ancienne régence d'Alger, Gosselin, 1840.

WALSIN-ESTERHATZY (M.). — Notice sur le Makhzen d'Oran, Perrier, 1849.

حقي (ممدوح). - ديوان الأمير عبد القادر الجزائري، دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر، دمشق، 1960.

عبد القادر الجزائري. - ذكرى العاقل وتنبيه الغافل، دار اليقظة العربية، بيروت، 1966.

عبد القادر الجزائري (محمد بن). - تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر، الإسكندرية، 1903.

الغزالي (أبو حامد محمد). - إحياء علوم الدين، ج 2، العادات، القاهرة، د.ت.

لـوحـات الـكـتـاب

الـفـهـرس

أنجز طبعه على مطابع
ديوان المطبوعات الجامعية
الساحة المركزية ـ بن عكنون
الجزائر